يُوسف زيدان



شُجون مصرية

شجون مصرية

مدخل

عنوانُ هذا الكتاب وتوأمه الآخر " شجون عربية " لا يُقصد به المعنى المشهور، الذي يظن معظم الناس اليوم أنه المعنى الوحيد لكلمات "شجون، اشجان، شَجَنْ " إذ يتوهمون أن هذه المفردات تعنى فقط: الحزن والأسى .. فالحقيقة أن هذا المعنى " المجازي " لهذه الكلمات، وإن كان واردًا، فهو ليس المعنى الأصلى المرتبط بالقول المشهور في تراثنا منذ القدم: الحديث ذو شجون.

الشجون أو الأشجان، هي حسبما يقول العلامة ابن منظور في كتابه المشهور "لسان العرب" تعني: عروق وفروع الشجر المشتبكة، وهي مشتقة من الشجن والشجنة. أى التداخل والأشتباك بين غصون الأشجار. يُقال: أشجن الكَرْمُ (نبات العنب) وتَشجَّنت الشجرةُ، إذا التفَّت فروعها، وفي المثل المشهور "الحديث ذو شجون" أى له فنون فرعية وأغراض متداخلة في بعضها البعض .. وهناك معانٍ أخرى للشجن، فهو: هوى النفس، الحاجة، نوح الحمام، الهم، الحزن، الحبس من الحركة.

ولم يخرج آبادى الفيروز في "القاموس"[١] بالدلالات المتشجنة لهذه المفردات، عما ذكره ابن منظور والذين سبقوه من علماء اللغة. وهوما نراه أيضًا عند مرتضى الزبيدى في "تاج العروس" لكنه أضاف لمحة مهمة، حين أشار بإيجاز إلى أن كلمة الشجن إذا استُعمِلَت.بمعنى الحزن، كان جمعها "أشجان"

---

(١) هو معجم لغوي مشهور، عنوانه كاملًا: القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لكلام العرب شماميط !

لا شجون.. عجيب، لماذا صار بعض العرب اليوم يسمون بناتهم: أشجان ! كأنهم يستجلبون إليهم الأحزان، ويلتذذون بذكرها.

وربما كان ارتباط كلمة "شجن" بالحزن، هو قربها صوتيًا من كلمة "شجو" التي تعنى بالدلالة الأصلية: الحزن والهم. فالشَجو هو البكاء الحزين والنشيج، والشجي هو المحزون، و أشجيت الشخص إذا أحزنته .. أما قولة "الحديث ذو شجون" التي صارت مثلًا وقولًا مشهورًا، وجعلها عدُد من الكُتَّاب عنوانًا لمؤلفاتهم، فهي مقولة ترتبط بقصةٍ قديمةٍ مشهورة في التراث العربى، لعل أول من ذكرها هو " البلاذري" في كتابه (أنساب الأشراف) ثم تناقلها كثيرُ من المؤرّخين وأهل الأدب، مع بعض الإضافات. وملخص القصة: كان هناك رجلًا من العرب اسمه "ضبُة بن أد بن طابخة" وكان له من الأبناء ثلاثة: باسل وسعد وسعيد .. وباسل هذا هو جد "الديلم" لأنه هجر أباه ورحل عنه غاضبًا، فذهب إلى بلاد العجم وتزوج أمراةً منهم فأنجبت ولدًا اسمه "ديلم" هو جدُّ الجماعة المعروفين في تاريخنا القديم باسم الديلم.

أما سعد وسعيد فقد نفرت في الصحراء إبلٌ يملكها أبوهما "ضبة" فخرجا لاستعادتها، وكان هذا الأمر يستغرق أحيانا عدة أيام .. وعاد "سعد" بالإبل، ولم يعد "سعيد" قَطَ، وانقطع خبره، فكان "ضبة" يقول إذا رأى رجلًا قادمًا من بعيد: أسعدُ هذا أم سعيد ؟ فصارت هذه العبارة مثلًا سائرًا على ألسنة الناس.

وذات يوم، التقى "ضبة" بواحدٍ من الصعاليك الفُتَّاك في موضعٍ ناءٍ بالصحراء،وقيل كان لقاؤهما في موسم الحج، وجرى بينهما الكلام حتى قال له

محدثه (اسمه: الحارث بن كعب) إنه لقي مرةً شابًا وحيدًا في الصحراء، فأراد أن يسلبه ما معه فاستعصى الشابُ، فقتله وأخذ ما معه وكان من جملة المسلوب سيف .. طلب منه "ضبة" أن يرى السيف، ولما رآه عرف أنه سيف "سعيد" وأن الحارث بن كعب هو الذي قتله، فطعنه بالسيف ذاته حتى قضى عليه، وأجاب على نظرة المقتول المندهشة، بقوله: الحديث ذو شجون! فصارت العبارة مثلًا سائرًا على ألسنة الناس. ولأن العرب قبل الأسلام وبعده، كانت تحرم القتل ولو للثأر، خلال الأشهر الحرم.فقد تعرض "ضجة" إلى اللوم والتوبيخ والعزل من بعض أهل زمانه، فقال لهم: سبق السيفُ العزل ! فصارت العبارة مثلًا سائرًا على ألسنة الناس.

* * *

وعلى ما سبق، فإن "الحديث ذو شجون" تعنى أن له تشابكات وتداخلات، كالشجنة من فروع الشجر الملتف. وبهذا المعنى، نستعمل الكلمة في عنوان هذا الكتاب الذي يحتوي على سبعة فصول متفاوتة الحجم متنوعة الموضوعات، لكن ما يجمع بينها هو كونها شجون، ولكل فصلٍ منها شجونه. فالفصل الأول الافتتاحي الذي عنوانه "اعتياد العجائب" يلتقط من (شُجنة) الأفكار والمعتقدات المصرية عددًا غير قليل، منها قولهم بأن البلاد "هبة" ومنها اعتقادهم بأن كل الأمور سوف تسير إلى خير في نهاية المطاف، ومنها ميلهم إلى "السبهللة" ومنها تناقض الخطاب المضمر في أمثالهم الشعبية المشتهرة على الألسنة، ومنها أنهم إذا أرادوا مدح شخصٍ شتموه وإذا أرادو القدح فيه مدحوه. وغير ذلك من العجائب التي لا يقتصر خطرها على وجودها،

وإنما يتعدى ذلك إلى الاعتياد عليها والنظر إليها على اعتبار أنها حقائق ثابتة، مثل اعتقادهم العجيب، المُتَوَهَّم أن مصر هي مهد التوحيد.

وفي الفصل الثاني، نسعى إلى فكِّ الاشتباك والاشتجار والتشجن الحاصل بين ثلاثة مفاهيم متشابهة اللفظ متداخلة الدلالة، هي الدين والتدين والمديونية، ثم نكشف السر الكامن وراء الارتباط بينها، وسخف المقولة الفضفاضة التي انتشرت مؤخرًا حتى صارت مدعاة للسخرية: المصريون أكثر شعوب الأرض تدينًا .. وبعد هذا الفصل القصير، يأتي الفصل الثالث المُطَوَّل الذي نفحص فيه ذلك الكل المركب، المضطرب، المسمى: منظومة القيم المصرية. وهو ليس بحثًا في "الأخلاق" بقدر ما هو تنبيه إلى أن القيم ، سواءٌ الثلاث الكبرى منها أو تلك الكثيرة الفرعية، بينها ارتباط عضوى إن غاب عن الأذهان فلا معنى ولا أثر ولا قيمة لمنظومة القيم السائدة في المجتمع. وخلال هذا السياق نتوقف عن مفردات كثيرة مشتبكة مع هذه الأجمة، أو ملقاة على أرض هذا الدغل المتشجِّن، منها مفردات ومفاهيم: الإصلاح، الحب، الحرية.

يلي ذلك فصلٌ قصيرٌ قليلُ الصفحات غزير الدلالة،عنوانه "أثر الفراشة" وفيه نطرح الإشكالية المشهورة المسماة علاقة المثقف بالسلطة، على نحوٍ جديدٍ يؤكدُ أن هذه العلاقة ليس من شروطها أن تكون تصادمية بالضرورة .. فقد تقتضى الظروف العامة والسياقات السلطوية أن تكون العلاقة تكاملية، أو متناغمة، أو تصادمية. بحسب اختلاف الحال والمقام، وبحسب الظرف التاريخى الذي يمثل البوتقة التي يتفاعل فيها المثقف مع مجتمعه، بما في ذلك نظام السلطة المسيطرة على هذا المجتمع.

وبعد الكلام عن الثقافة والسلطة، يتحدث الفصل الخامس عن المثقفين أو بالأحرى عن سبعة من المثقفين المصريين الكبار الذين تعاملت معهم عن قرب، وجمعتني بهم صلة شخصية :سامي خشبة، د.مصطفى محمود، حسن حنفي، أبو الوفا التفتازاني، أبو العز الحريري، د. نصر، د. حامد أبو زيد، د. محمد يسري سلامة. والكلام عنهم في هذا الفصل، لا يدور حول أعمالهم وإنتاجهم الفكرى ومواقفهم العامة، وإنما عن تفاصيل صغيرة (كاشفة) جرت معهم، وجرت منهم، وجرت عليهم. وكنتُ شاهد عيان على ذلك.

ولأن المثقفين المصريين يُعرفون بلقب "أحفاد رفاعة" فقد خصصتُ الفصل السادس للحديثِ عن (الجد) المؤسس لثقافتنا الحديثة، رفاعة رافع الطهطاوى. ليس من ناحية مدرسية مادحة، وإنما من خلال الغوص في طبيعة شخصيته. إذ كان لى خط القيام بفهرسة مكتبته الخاصة، الثرية بنوادر المخطوطات المنسية حاليًا بصعيد مصر (محافظة سوهاج) فرأيتُ الرجل من خلال ما كان يقرأه ويعلق عليه بقلمه، ومن خلال منعطفات شخصية في حياته. منها زواجه الذي تعهد فيه كتابةً لزوجته، بعدم الزواج عليها "مادامت على المودة باقية" وزواجه بعد وفاتها بخادمة منزله.

أما الفصل السابع الأخير، وربما الأهم، فهو يتناول قضية بالغة الخطورة من وجهة نظري الخاصة .. خلاصتها: إذا لم تقم بمصر ثورة ثقافية، فسوف تضيع ويضيع معنا العرب.

* * *

وأصول فصول هذا الكتاب، بعضها إعادة كتابة لمقالات تناثرت في الصحف السيارة واجتمعت هنا في سياقٍ واحد، وبعضها ينشر هنا لأول مرة. وكلها تسير على طريقٍ واحدٍ، هو: الوعي العميق بالماضي، والغوص في الحال الحاضر، واستشراف المستقبل.

يوسف زيدان

اعتيادُ العجائب

عنوان هذا الفصل الإفتتاحي، يقارب العنوان الذي نشرت تحته المقالات السبع (عجائب مصرية) لكنه يدل أكثر على موضوعه. إذ أن أعجَب ما في عجائب المصريين، أنهم يرونها أمورًا اعتيادية لا تستدعي الدهشة. حسبما سنرى عبر الصفحات المتتاليات:

هبة

معظمُ أمور مصر، وأغلبُ أحوال أهلها. محيِّرٌ. ليس على مستوى ملاحظة الوقائع الجارية ومشاهدات الحاضر الحالي، فحسب، وإنما أيضًا على مستوى رؤية الماضي والتراث وطبيعة التكوين العام لمصر والمصريين. وهو الأمرُ الذي يصعب معه وضع تصوّرات صحيحة عن هذا البلد وأهله، وبالتالي يصعب التنبؤ بما سيكون منه، ومنهم.. وهناك ما لا حصر له من "تصوُّرات" عمومية عن مصر. ومفاهيم كُلِّيَةً عنها، منها ما سوف نبدأ به الكلام هنا، أعني أشهَر وأقدَم الأحكام العامة " مصرُ هبةُ النيل" وهو تصوُّر يستحقُّ منّا وقفة.

هذه العبارة الشهيرة التي قالها المؤرِّخ اليوناني القديم "هيرودوت" ونُقِلَت عنه باعتبارها تعريفًا عامًا لمصر، ومدحًا لها. فنظرنا إليها، مع دوام تكرارها، على أنها نوعٌ من (الحقائق) ووضعناها في الكتب المدرسية التي نحشو بها عقول الصغار، ثم اعتدنا على العبارة المُكَرَّرة حتى صارت مع الوقت كأنها اليقين.

"مصرُ هِبَة" .. ليس في هذا القول إلا زعمٌ عريضٌ، لا دليل عليه. وإلا فلماذا تختصُّ مصر بهذا الوصف المراوِغ، غير محدَّد الدلالة؟ ولماذا لا ننظر من هذه الزاوية إلى البلاد القديمة المجاورة، التي شهدت فَجر الحضارة الإنسانية وأسهمت في بزوغ شمسها، كالعراق مثلًا أو سوريا؟ وهل وصفَ أحدٌ أحدَ هذين البلدين بأنه "هبة" أي منحة أو عطية، من الأرض أو السماء؟

وقد اشتهر بناءً على هذه العبارة العجيبة (الخالدة) أن بلادنا هبةٌ من النيل. مع أن هذا النهر الموصوف بالعظيم، يجري في أرضٍ تمتدّ عبر بلادٍ عديدة، ولم يفعل فيها مثلما فعل بمصر، ولم يجعلها في الزمن الأول مهدًا أو موطنًا للحضارة. ولو كان النيل هو "الواهب" لتوزَّعت الهبات على أقوامٍ آخرين، غير مصريين، كالأحباش والسودان والنُّوب.

والمتحمّسون لمصر وأهلها، من أبنائها، عدَّل بعضهم العبارة المَجَازيَّة المُرَاوِغَة فجعلها "مصر هبة المصريين" انطلاقًا من أن المصريين هُم المتميّزون، أما النيل فهو يمرُّ منذ قديم الزمان على جماعاتٍ إنسانيةٍ متعدِّدة، لم يكن لها شأنٌ وشأوٌ كهذا الذي امتاز به المصريون .. لكن هؤلاء المتحمِّسين وسامعيهم، لم يتوقفوا أصلًا عند مسألة "الهبة" ذاتها، وكأن الهمَّ الأول لهم هو اكتشاف وإعلان هذا الواهب، واستبدال اسمه، من دون أيِّ شكٍّ في أن مصر أصلًا: هِبَة .

ولأن المسألة كلها مجازيةٌ وفضفاضةٌ، وتخضع للعاطفة والهوى وليس للعقل والمنطق. لم يسأل هؤلاء الزاعمون القائلون بأن (مصر هبة المصريين) أنفسهم: لماذا يتبدَّل حال هؤلاء "الواهبين" في كل حين، وقد ينقلب أحيانًا إلى

النقيض. حتى إن المصريين في زمنٍ ما، صاروا على لسان أشهر شعراء العربية "المتنبّي" هم الأمة التي ضحكت من جهلها الأمم.. والذي ينظر إلى حال مصر والمصريين في زمن "المتنبّي" لن يُنكر عليه إطلاقًا، إطلاقه هذه الصفة السلبية الشاتمة! فهذا البلد كان في زمانه مسكنًا لمساكين، ليس فيهم علماء مرموقون أو شعراء مفوّهون أو رجال معدودون. الا فيما ندر. وكان حاكم مصر آنذاك، هو عبدٌ زنجيٌّ خَصِيٌّ (مخصِيّ) مشقوق الشفتين اسمه "كافور" لم يُعرف له أب أو جَدّ، ولذلك نُسِبَ إلى مالكه: الإخشيد.

أين إذن المصريون، الواهبون؟.. ولماذا نُظِرَ لمصر، أصلًا، على أنها هِبَة؟

* * *

مصرُ ليست هِبَةً، أصلًا، للنيل أو للمصريين. وإنما هي بلدٌ امتدَّ تاريخه لآلاف السنين، وحفَلَ بما لا حصر له من المفاخر والمخازي. والحضارةُ المصريةُ القديمةُ ليست موهوبةً، وإنما مصنوعة بجهدٍ كثيرٍ من الملوك الراشدين، والأتباع الواعين، والمبدعين. في لحظات تاريخيةٍ خاصةٍ لم تشهد فيها البلاد حروبًا طاحنة، أو غاراتٍ همجيةً من الجيران، أو جدبًا يحرق الأرض ومَنْ عليها. وفي تلك "الهدأة الهانئة" التي امتدت لمئات السنين في مصر القديمة، حكَمَتْ البلاد (الموحدة) تلك الأسراتُ الأولى التي أينعت في زمانها بذورُ الحضارة المبكرة، وبالتالي فلا معنى للكلام عن "هِبَة" ثم البحث عن الواهب. أهو النيلُ أم المصريون.

ومفهوم "الهِبَة" يرتبط أصله بالمعتقد الديني العام ويعود بجذوره إلى اليونان القديمة؛ حيث كانت الآلهةُ تتخذ صفةَ "الوهب" أي العطاء غير

المشروط، وغير المحدَّد، إلا بحسب إرادة الإله الواهب. فالمبدعون بحسب المعتقد اليوناني القديم، تفيض عليهم الإبداعاتُ من "رَبَّاتِ الفنون" بلا شرطٍ أو نظامٍ محدَّد، على النحو الذي يقترب من المفهوم العربي القديم المعبَّر عنه بقولهم "شيطان الشِّعر" الذي كان في اعتقادهم القديم، يمنح الشعراء مطالع القصائد البديعة.

وفي فترةٍ لاحقةٍ تَلَتْ الزمانين المصري واليوناني القديمين، سوف تُعلي المسيحيةُ وهي تُعالج عَنَتَ اليهودية وجفافها، هذه الفكرة اليونانية. فكرةَ الإله الواهب. وطِبقًا للمعتقدات المسيحية العامة، فإن الله (الأب) وهبَ ذاته من خلال المسيح (الابن) لخلاص الإنسان من الخطيئة الأولى. فنزل إلى الأرض، وتجسَّد، وتألَّم، وصُلب، فوهبَ بذلك الخلاص للإنسان. ومن هنا ظهرت في المسيحية، بقوة، فكرة "الهِبَة الإلهية" لبني البشر، واشتقوا من هذا المفهوم ومن لفظه، الأسماء والألقاب المشهورة التي طالما تكرَّرت.. ولذلك، ليس من الغريب أن نجد للرجلينِ الفاضلينِ اللذين يترأسان الكنيستينِ المصريتين اليوم، اسمًا واحدًا ذا أصلٍ يوناني (وإن اختلف النطق ورسم الاسم) وهما البابا "تواضروس" بطريرك الكنيسة المصرية الأرثوذكسية المنوفستية، المعروفة حاليًا عند العوام بكنيسة الأقباط، والبابا "ثيؤذوروس" بطريرك الكنيسة المصرية الأرثوذكسية الخلقيدونية. المعروفة عند العوام اليوم بكنيسة الروم الأرثوذكس. وهما اسمٌ واحدٌ يوناني الأصل يعني حرفيًا: هِبَة (عطية، منحة) الله. وهو يُنطَق على ألسنة المصريين بعدة أشكالٍ، كلها مشهورة : تواضروس، تادرس، توادرس، تودري، تيودور.

وربما نستفيق يومًا من تلك الفكرة العجائبية المعتادة، ونعرف أن البلاد لا تُوهَب من نهرٍ أو أرضٍ أو سماء، وإنما يصنع الناسُ فيها تاريخهم وحاضرهم بحسب احكام "اللحظة التاريخية" وبحسب إحكام الجهد المبذول. وربما يستفيق الآباءُ والأمهات، فيكفُّون عن تسمية إحدى بناتهم تحديداً "هِبَةُ الله" وكأن بقيَّة بناتهم، وبنات الآخرين، لسنَ هباتٍ من الله.. مع أنه تعالى القائل إنه هو الذي خلقكم، وخلقَ ما تعملون، وما تُنجبون.

الفاعلُ الخفيُّ

حين دعوتُ، بلطفٍ، إلى الكفِّ عن اعتناق الفكرة الفضفاضة القائلة بأن مصر "هِبَةُ النيل" أو "هِبَةُ المصريين"؛ لأن البلاد ليست هبات من الأرض، ولا من السماء. انزعج بعض المعلِّقين عليَّ وقالوا إن هذا الإعتقاد "الوهمي" بأن مصر "هِبَة" هو في واقع الأمر اعتقادٌ نافعٌ، ولا يصحّ نقضه؛ لأنه يدعو أهل مصر للاهتمام بنهر النيل. وهذا القول (المنزعج) عندي عجيب، ولا يخضع للمنطق، ولا يصمد أمام أي تحليل. إذ كيف لنا أن نبرِّر وهمًا عجائبيًّا كهذا، بانه دعوةٌ لأبناء مصر كي يهتموا بنهرهم! لو صحَّ هذا لكان أهل البرازيل قد أشاعوا أن بلادهم هِبَة الأمازون، ولكان العراقيون قد زعموا بأن العراق هِبَة الرافدين (دجلة والفرات) وهكذا، لتشجيع المواطنين هناك على الإهتمام بنهرهم.

والأعجب في هذا الموقف (المنزعج) أنه لن يجيب على سؤالٍ بسيطٍ: لو كانت مصر هِبَةُ النيلِ، بحسب هذا الوهم القديم الداعي للاهتمام بالنيل. فلماذا ظَلَّ المصريون يعتقدون في ذلك ويردّدونه ليل نهار، وهم في الوقت ذاته

يلوّثون النهر الذي وهبهم بلادهم؟ والأهم من ذلك، السؤال الآخر: ألم يُؤَثِّر هذا الوهم سَلبًا على المصريين، لأنه جعلهم يعيشون دومًا على الشريط النهري "الواهب" ويتَكَدَّسون فيه ثم يشتكون من زحامه، بينما يُهْمِلُونَ بقيَّة أنحاء بلادهم وينفرون منها، فيتركونها صحراوات جرداء لا حياة فيها؟.. وبالطبع، فإن هذين السؤالين، كلاهما "استنكاريّ" لا ننتظر عليه إجابة.

وقد وردت سابقاً إشارةٌ إلى قول "المتنبِّي" وهو يسخر من المصريين في زمانه "يا أمة ضحكت من جهلها الأمم" وقد يستغرب بعضُ القرّاء أن يكون المقصود بهذا القول، أهل مصر. معتقدين أن قوله "الأمة" يدل على المسلمين عمومًا. وهناك فعلاً مَنْ توهّموا أن المتنبّي لم يسبّ المصريين تحديدًا! وهو ما يدلُّ بشكلٍ واضحٍ على أن هؤلاء المتوهمين لم يقرأوا القصيدة كاملة، ولم يعرفوا ديوان المتنبي وقصائده المسماة (الكافوريات) التي سبَّ فيها الشاعرُ، حاكم مصر آنذاك "كافور الإخشيدي" وشتم أهل مصر بما لا حصر له من تعبيرات، كان أشهرها: نامت نواطير مصر عن ثعالبها (يعني: لا حُرَّاس مصريين يراقبون السُّراق الناهبين) وقد بشمن وما تفنى العناقيدُ (يعني: السُّرَّاق الناهبون لمصر أصابتهم التخمة، وما يزال فيها المزيد ليُسرق ويُنهَب).. وبالمناسبة، ربما يجب علينا أن نستعيد في وعينا المعاصر كلام المتنبّي، ونتأمله في ضوء ما يجري معنا اليوم.

* * *

ومن العجائب المصرية، الأخرى، ما سوف نلمسه برفقٍ فيما يأتي حين نقترب من إحدى طبائع المصريين المعاصرين، أو الغالبية منهم، أعني ذلك

الميل العام للحلول السهلة والقعود بقدر المستطاع عن بذل المجهود، على اعتبار أن المهام المطلوبة سوف يقوم بها، من أجلنا فاعلٌ خَفِيّ.

ولا شك عندي في أن النفس الإنسانية، كما قال حجةُ الإسلام الإمامُ الغزالي، تميل بطبعها إلى الكسل والإسترخاء (أو بحسب تعبيره: الدِّعَة) وتنفر من ركوب الأخطار والمشقات، وتملُّ العمل الدائم الدؤوب. لكننا هنا لا نتحدث عن طبيعة النفس بالمعنى السيكولوجي، وإنما يقع حديثنا على الظواهر الإجتماعية العامة التي تنتشر بين الجماعة المصرية (وبالأحرى: الجماعات) تأسيسًا على قواعد عقائدية أو وقائع جغرافية أو موروثٍ ممتدٍ لآلاف السنين، كان خلالها المصري يرى الخير يأتيه سنويًا في كل صيفٍ مع الفيضان، فيضع في التربة البذور وينتظر حتى تنمو وتنضج بلا جهدٍ منه أو بأقل مجهودٍ. وظلَّ المصري في أوقات فراغه الطويلة، يتعبَّد شاكرًا "آمون" لآلاف السنين، ثم "الرب" يسوع لقرابة الألفي عام، ثم "الله " سبحانه تعالى خلال الألف سنةِ الماضية.

الطبيعة المريحة، والمعبود الأعلى الداعم، وموروث الدعة، وعبور المحن الطاحنة والنجاة المؤكَّدة من دواهي الشدائد. هي رؤية عامةٌ ومعتقدات ظلت تجتمعُ في عقول المصريين وتعتملُ في صدورهم يومًا بعد يوم، وعامًا تلو العام، حتى صار عموم المصريين ذوى طبيعة خاصة تثير العجب من وفرة ثقتها بأن الأزمات مهما اشتدت، فسوف تنفرج لا محالة. وقد دُعِّمَ هذا الإعتقاد بما لا حصر له من تعبيرات وأمثال شعبية، تعكس حالة التخلِّي عن الفعل انتظارًا لحلولٍ غير منظورة، فمن ذلك: إصْبِر على جار السوء، سيرحل أو تصيبه مصيبة.. العبد في التفكير (وليس الفعل) والرب في التدبير (إيجاد الحل)..

ربك يفرجها من عنده! وغير ذلك كثيرٌ من الأقوال المأثورة التي تنطبع في نفوس الناس منذ الصغر، ثم تصير مع التكرار اعتقاداتٍ راسخة ومواقف يقينيةٍ، تُساق من دون التدقيق في مصداقيتها. وتؤدي في نهاية المطاف إلى رسوخ الإعتقاد، وبالأحرى: الإيمان، بأن هناك "فاعلًا خَفِيًّا" سوف ينوب عنَّا في أداء ما نودّ، وتلبية مانطلب.

ولهذا الأمر "العجيب" الذي يبدو من ظاهره طريفًا ومفيدًا لسكب السلوان عند الإحتياج إليه، آثارٌ أخرى مُدَمِّرَة؛ فقد أدَّى مِرَارًا إلى خروج مصر والمصريين من التاريخ لمئات السنين، مثلما هو الحال في الزمن المصري المسمى (الفوضى) الذي كان بين الدولتين الوسطى والحديثة، وامتدَّ لقرابة خمسمائة عام. وهناك الخمسمائة عام الأخرى، المسمّاة بالعصر المسيحي المصري. وكذلك فترة الخمود الحضاريّ التي امتدت من أواخر العصر المملوكي إلى بدايات العصر العثماني.. وخلال هذه الفترات الطِوَال كانت الثقافة المصرية، اتّكاليةٌ، وكان الحالُ العام مُزرِيًا. (ولا عبرة هنا بالطنطنة الفارغة الزاعمة بأن مصر: سبعة آلاف سنة من الحضارة) كأن تلك " الحضارة " ظلت طيلة الوقت متصلة.

ومعظم العجائب المصرية، تتعلق بالحال الحالي مثلما تتجلى في الماضي البعيد؛ فحيثما توفُّرت المقدمات ذاتها، أعطتْ النتيجة نفسها. والمثال على امتداد صيغة "الفاعل الخفيّ" وتوغلها فينا، ما رأيناه خلال الأعوام التي تلت اندلاع ثورة يناير ٢٠١١ حيث انتفضَّ الناسُ ضد دولة "مبارك" أيامًا، وبعدها بأسابيع انتظروا وصول الأموال المنهوبة، التي قيل أيامها أنَّ مبارك وحده، هَرَّب

منها مائة وسبعة وسبعين مليون دولار. وسوف تعود هذه الأموال للبلاد فتفعل لنا كل ما نشتهي.

وطيلة الأعوام الثلاثة التالية، رأينا من المصريين ما هو أعجب من انتظار الحلّ السحري للمشكلات الإقتصادية، باستعادة الأموال المنهوبة. وأعني بذلك ما فعله معظم المصريين المشهورين بالثورية (أو بالأحرى الذين أحبوا أن يتّصفوا بهده الصفة) إذ ترك هؤلاء أعمالهم الأصلية وصاروا فقط ثوارًا، وضيوفًا في القنوات التلفزيونية، وأصحاب نظريات تفسّر سفاسف الأمور! فما عاد المهندس يُهندِس لأنه ثائر، وما عاد الطبيب يعالج لأنه ثائر، وكفّ الكاتبُ عن الكتابة لأنه ثائر.. وهكذا، وكان فاعلًا خفيًا سوف يقوم بدلًا منهم، بما يجب عليهم القيام به .

وفجأة، صار غالبية المصريين يتكلمون ليل نهار، ولا يفعلون شيئًا. كأنهم كانوا ينتظرون انفراج الأزمة من السماء، من دون بذلهم الجهد في العمل.. ولذلك، عندما كتبتُ عقب ثورة يناير بأسابيع، مقالًا نُشر بعنوان (إحياء الأمل بخُطط العمل) تجاهله الجميع ولم يعلّق على كلامي احد. ولا أعتقد أن أحدًا قد اهتم به أو أراد أن يهتمّ.. وختامًا، وكَيلا نخوض في تلك النقائع السَّبِخَة، نقول إجمالًا: إن النشاط (الحقيقي) لكل شخصٍ إنما يكون في ميدانه الأصلي، وإحياء الأمل بخطط العمل هو المفتاحُ الوحيد للفرج.. وليس حسبما ندّعي ونقول دومًا: الصبر مفتاح الفرج.

الإلتذاذ بالسبهللة

ومن عجائب أهل مصر ومفاتن أحوالهم الغرائبية، أنهم قومٌ طيِّبون يعيشون عيشَ السبهللة (هذه الكلمة فصيحة) ولا يحبون الغوص فيما وراء المظاهر الخارجية، إلا نادرًا. ولذلك تجدهم يمدحون الثمرة، ويتجاهلون جهد الذي غرسَ بذرة الشجرة التي أثمرت. ويبادرون إلى إدانة السكين، ولا يجهدون أنفسهم في اكتشاف شخصية المُدَان الفعليّ الذي قَتَلَ بها. يظهر ذلك في أمورٍ عديدة نختصُّ بها نحن المصريين، منها شكوانا الدائمة من مستوى الأفلام السينمائية (الهابطة) ومن أداء قنوات الإعلام (الفاسد) ومن سُخف الجرائد الحكومية لأنها حكومية، وغير الحكومية لأنها غير مسؤولة وتطارد الأخبار "الحريفة" وتنشرها مُحَرَّفة عن مواضعها. وغير ذلك كثيرٌ من الدلائل المؤكِّدة حرص المصريين على التنصُّل من المسؤولية العمومية، عبر هذه الإتهامات الجاهزة للإنطباق وعبر ما لا حصر له من الحيَل الأخرى.. وللأمر تفصيل:

من قبل اندلاع الأحوال المصرية في آخر يناير ٢٠١١ (وهو ما كنّا نسميه سابقًا: ثورة الربيع العربي) وحتى اليوم، واللومُ دائمٌ للمنتج السينمائي "الفلاني" الذي لا يهتم إلا بالكسب المادي، فيقدِّم في أفلامه الرخيصة تلك "الخلطة" مضمونة النجاح جماهيريًّا، وهي: شيء كثير من العنف، مع شيء أكثر من الإثارة الجنسية. ولا بأس لو أضيفت البهارات السياسية، عبر بعض العبارات الناقدة الناقمة التي يدسّها "السيناريست" بين ثنايا المشاهد السطحية.. وبالطبع، لا يجب أن تخلو هذه "الخلطة" من رقصةٍ تُهيِّجُ بالأرداف أتقى

الرجال الأشراف، ومن قُبلةٍ طويلة أو قُبلاتٍ متتالياتٍ يفرح بها ويتحسَّر معها المحرومون، يعني معظم المصريين.

وينجح تسويق الفيلم ويكسب أموالًا، ليبدأ من بعد ذلك عويلُ "عقلاء" المصريين ونحيبهم على حال الفن ورداءة هذه الأفلام، التي تقدِّم عن مصر صورةً مُشِيْنَةً. وقد تصل هذه النقمة العامة إلى الهجوم شخصيًّا على المنتج الرقيع، والمخرج الوضيع، والممثلة الخليعة، والموزِّع المنحاز.. المهم أن نجد نحن "عموم المصريين" مَنْ يحمل أوزار الفيلم الهابط، الذي نجحَ تجاريًا لأن "عموم المصريين" أقبلوا عليه.

ولأن الناس في بلادنا يتحاشون نقد الذات، ويستعملون هذه الحيَل البائسة بدلًا من طرح الأمر على وجهه الحقيقي، وبالشكل المنطقي. كثيرًا ما نسمع مثل هذه التعليلات المبرِّئة لعموم المصريين، والمخلِّصة لهم من المسؤولية، فنقول: الناس كانوا في حالة ثورية ويحتاجون الآن شيئًا من التلطيف، الأحداث الدامية من حولنا تجعلنا نُقبِل على الأفلام المريحة للذهن، الترفيه مطلوب.. وغير ذلك من عبارات السبهللة الذهنية، والمخايلة، والمخاتلة، ومخادعة الذات.

أما طرحُ الأمر على وجهه الحقيقي، وبالشكل المنطقي، فهذا ما لا يجرؤ عليه معظم الناس في بلادنا، في معظم الأحيان. لماذا؟ لأن الذي يفعل ذلك، سيخرج من الحالة العجائبية العامة فيصير في نظر الآخرين شخصًا ثقيل الظِلّ، وربما غير مُحتمَل. إذ كيف يتجرأ شخصٌ على غالبية المصريين ويصفهم بالسطحية والسبهللة والهبوط، لأنهم يُقبلون طواعية على مشاهدة الأفلام

الهابطة؟ وكيف يقول إنه لولا هذا الجمهور الهابط، لما كانت هذه الأفلام الهابطة؟ ولماذا لا يكتفي مثل الآخرين بإدانة بعض الأشخاص "منتج، مخرج، ممثلة" ويُحَمِّلَهُم وِزْرَ الهبوط، مادام ذلك ممكنًا، فيبرأ هذا الشعب العظيم صاحب (الحضارة) الممتدة سبعة آلاف عام، من الآثام.

وعلى هذا النحو نستمر في تلك المناورات العجائبية، كَي لا نُقِرُّ بأنه لولا كون غالبية الناس في مصر (أكثر شعوب العالم تديُّنًا) كاذبين، لما كانوا قد احتملوا كل هذا الكذب والتضليل. ولولا أن الجمهور العريض منهم هابطٌ، لما غَامَرَ المنتج بأمواله لتقديم فيلم أهبط من مستوى الهابطين، ولما تعرَّت هذه الممثلة لتأكل الشهد بالإثارة مُسَيِّلَةً اللعاب وبألعاب الإبتذال المطلوبة جماهيريًا .. ولولا حالة السبهللة العامة، لاستطاع الناس التفرقة بين فيلم (تجاري) يهدف إلى التسلية والترفيه فقط، وفيلم (إبداعي) لا يراعي الكسب المالي بقدر ما يهتم بالفن السينمائي، وفيلم (هابط) يتناسب مع الجمهور العريض الهابط.

وإذا أَمسكنا بهذا الخيط، ونَسَجْنَا على المنوال السابق؛ سوف نكتشف الكثير من عجائبنا في غير المجالات السينمائية والإعلامية، فنَكُفُّ مثلًا عن الحَطِّ والإزدراء والتحقير للمنتجات الصينية، على اعتبار أنها الرداءة بعينها. بينما الذي طلب رداءتها هذه، هو المستورِد المصري الذي استرخص أصلًا، وكان بإمكانه تقليل هامش ربحه لرفع مستوى سلعته، وكانت المصانع الصينية ستعطيه في تلك الحالة سلعةً أعلى جودةً.. وبعيدًا عن "السبهللة" سوف نكفُّ عن اتهام الإعلام بالفساد حين نعترف بأن فاسد الذوق والعقل، هو المشاهِد الذي يتابع هذا "الفساد". ولولا هذه "المتابعة" لما قدَّم الإعلامُ الباحثُ أصلًا

عن الإعلانات، الباحثة أصلًا عن جمهور مشاهدين، مادةً إعلامية من شأنها أن تُوصَف بالفساد والسطحية. وببساطة، لو انصرف الناسُ عن مشاهدة ما يشتكون منه، نقصتْ الإعلاناتُ وكسدت "البضاعة" وانصرف المنتجون إلى غير هذا الذي يُنتجونه من برامج !.. ولهذه "السبهللة" أضرارٌ أنكى وأشدُّ أثرًا، تظهر لنا حين ننظر في الجانب السياسي. وبيان ذلك وتبيانه فيما يلي:

بعد ثورتهم بعامين، فقط، انتخب غالبية المصريين "الإخوان" ثم تسارع كثيرون كي يلحقوا بركبهم الراكب كرسي الرئاسة. وأيامها رأينا هؤلاء فجأةً أولئك الذين اكتشفوا في أنفسهم، أنهم كانوا دومًا من "الإخوان" لكنهم ما كانوا يدركون ذلك. ورأينا هؤلاء الذين تجمَّلوا في وجوه الإخوان وجاملوهم، عساهم يجدون معهم لقمةً سائغة. ورأينا هؤلاء الذين أنشأوا ما لا حصر له من قنواتٍ دينية، للتنفيس عما يعانونه من عُقدٍ نفسيةٍ راسخةٍ فيهم. وعلى هذا النحو اصطخب على الملأ الخللُ النفسي وطُرِحَت إعلاميًا قضايا وهمية من مثل: ماهو السن الأنسب لزواج الجواري؟ (بالمناسبة، الجاريةُ هي البنت الصغيرة التي تريد أن تجري وتلعب مع قريناتها، وليس لهذه الصفة صلة بالعبودية المعروفة).. هل يجب أن تتزوج البنت في التاسعة من عمرها، أم نصبر عليها حتى الحادية عشرة من عمرها؟.. فإذا بعبقريٍّ منهم، لم يسمح الزمان بمثله، يحلّ هذا الإشكال الفظيع بفتواه الأفظع: يجوز الزواجُ في السن الذي تطيق فيه الطفلة الوطء (وبالمناسبة، كلمة "الوطء" تعني المضاجعة الفِراشية، وتعني أيضًا الضغط بالقدم على أرضٍ مستوية)!

وبالطبع، فقد كان هؤلاء "المشايخ" يدّعون أنهم يبحثون عن شيءٍ جليلٍ، يزعمونه، هو إحياء السُنة. وبالطبع، كان علينا تصديق ذلك لأنهم مشايخ

يعيشون في نطاق دولة تُحْكَمُ بالشريعة "الإخوانية" ذات الصلة بالشريعة الإسلامية. وبالطبع، كان ذلك كله هزلٌ وتهريجٌ عجائبيّ.. لأن الفتيات في مصر في واقع الأمر، يتجاوزن من أعمارهن الثلاثين سنة، من دون أن يجدن أصلًا أيَّ فرصةٍ للزواج.

فلما اطمأن "الإخوان" إلى أن المصريين مُصِرُّونَ على السبهللة، وإلى أنهم أعطوهم أصواتهم فَصَيَّروهُم حاكمين، وأنهم يهرولون إلى كبار الإخوان وصغارهم كي يتقرَّبوا من الحاكم. اطمأن كهنةُ الإخوان إلى تلك المظاهر، فاستبدوا وبهرجوا وبالغوا في إبداء الغباء الذي كان مستترًا حتى سقطوا من فوق العرش.. وفور سقوط الإخوان تعالت على الصعيد العام المصري، صيحاتُ الإدانة والإتهامات الجاهزة للإنطباق في مثل: الإخوان كاذبون.. إحنا شعب وانتوا شعب (دون تحديد لخصائص كل شعب منهما).. الإخوان أضرُّ على مصر من اليهود الإسرائيليين .. لن نتهاون مع الإخوان ..اضرب ياسيسي.. إلخ. وبلا خجلٍ، انبرى كثيرون لفضح مخازي الإخوان ومفاسد دولتهم، ودعا غيرهم إلى الفتك بكل إخوانيّ صغيرٍ أو كبيرٍ.

مَن الذي اخترع أصلًا قصة الإخوان؟ الإجابة: مصر والمصريون.. ومَنْ الذي أيَّدهم نكايةً في نظام مبارك أيام كان يحكم؟ الإجابة: مصر والمصريون.. ومَنْ الذين أعطوهم الأصوات بالملايين حتى حكموا البلاد؟ الإجابة: مصر والمصريون الذين لا يخجلون لأنهم اعتادوا تبرئة أنفسهم من كل ذنبٍ، بهذه الحيلة العجائبية المكشوفة: عيشُ السبهللة، وإلقاء اللوم على الغير لإبراء الذات .

الأمثال

ومن عجائب أمورنا نحن المصريين، أمثالُنا الشعبية. إذ المفروضُ نظريًا أن تلك العبارات القصيرات المسجوعات عادةً، المسمّاة اصطلاحًا "الأمثال" هي خلاصةُ تجارب الشعوب القديمة، ومرآةُ حكمتها المتوارثة على ألسنة الناس جيلًا من بعد جيل. وربما تجري عليها مع مرور الأيام بعضُ التعديلات الطفيفة في المفردات، وربما تنطمر تمامًا وتُنسى، ولكن الباقي منها والمتداول، يظلُّ محتفظًا في طياته برحيق الحكمة العملية المتوارثة، وبطبيعة التفكير السائد في الجماعة عمومًا. وهو ما يُسمّى: العقل الجمعي. كما يمكن النظر إلى الأمثال الشعبية، على اعتبار أنها رسالةٌ تعليميةٌ وتنبيهاتٌ مُهِمّةٌ تُقَدِّمُهَا الأجيالُ السابقة إلى اللاحقة.

وغالبية الأمثال الشعبية مجهولة المؤلف، فلا نعرف قائلها الأول أو مُبتكِرِها الأصلي. ولا نسأل عنه أصلًا، ولذلك نُسبِقُهَا بعباراتٍ من نوعٍ: وكما جاء في المثل.. قالوا قديمًا.. وَرَدَ في الأمثال.. من كلام جدتي (دون تحديد لهذه الجدة أو تلك).

غير أن بعض العبارات اللامعة، معروفة القائل، تلقى قبولًا عند الناس فتشتهر بالتداول على الألسنة، ويقال عنها إنها: سارت مَثَلًا. والأمثلة على ذلك كثيرة (لاحظ هنا الفارق في جمع كلمة "مثل" بأمثلة وأمثال، للتفرقة بينهما) فمن تلك الأقوال: الليلة خمر وغدًا أمر.. وهي عبارة الشاعر الجاهلي الشهير المشهور بالمجون "امرؤ القيس" عندما أبلغوه ليلًا وهو يلهو حسبما اعتاد، بأن أباه قُتِلَ وعليه السعي للأخذ بثأره.

وقد يتناقل الناسُ عبر القرون "مثلًا" ما، ويتغافلون عن نسبة المقولة لصاحبها كأنها صارت مع مرور الوقت ملكية عامة؛ فمِن ذلك قولنا: داوني بالَّتي كانت هي الداء.. دون اهتمام بالإشارة إلى أن هذه العبارة، التي سارت مثلًا، هي الشطرة الثانية (العَجُز) من بيتِ شعريٍّ بديعٍ لأبي نواس، تقول الشطرة الأولى منه (الصدر) مانصُّه: دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءُ.

وعلى المنوال السابق، تكثر أمثلة "الأمثال" التي يُنسى صاحبها الأصلي وقائلها الأول، وتشتهر بنصِّها مع مداومة استعمالها في المواقف ذات الصلة بها. فمن ذلك، الأمثلة الثلاثة التى جاء ذكرها فى مقدمة هذا الكتاب.. ومنها أيضاً: إن غدًا لناظره قريب (وهي قولة تعود إلى زماننا القديم المسمَّى الجاهلي).. عفا الله عما سلف (وهي عبارة قرآنية).. كل جاف طاهرُ بلا خلاف (وهي قاعدة فقهية تحدِّد المواضع المناسبة للصلاة)، لكن هذا النوع من "الأمثال" ذات القائل المستتر، يكون فقط في الأمثال الشعبية ذات الألفاظ الفصيحة، أما الأكثرية الغالبة من أمثالنا فهي عاميَّة المفردات وغير معلومة المصدر أصلًا، ولا يكترث أحدٌ بمعرفة أصلها.

ومن الأعمال المهمة المرتبطة بأمثالنا الشعبية، ما قام به العلأَمة أحمد تيمور (وهو أحد باشوات مصر المرموقين) عندما جمع منها ما يزيد عن ثلاثة آلاف مَثَل، أو بالأدق ثمانية وثمانين ومائة وثلاثة آلاف مَثَل، وجعلها في كتابٍ موسوعيّ طُبِعَ بمصر تحت عنوان: الأمثال الشعبية.. وعلى منواله، جاءت عدة محاولات لجمع وتبويب أمثالنا الشعبية والعربية، ولكن ظل كتاب "أحمد تيمور" هو أولُ وأهمُّ محاولة في هذا المجال. كما قام د. حامد طاهر بمحاولة طريفة في كتابٍ صغيرٍ له، يدلُّ عنوانه على محتواه: الفلسفة المصرية من الأمثال الشعبية. ومع أن مؤلف الكتاب من أساتذتي (وكان أحد الثلاثة الذين أعدُّوا

تقرير ترقيتي إلى درجة الأستاذية في الفلسفة) ومع أنه من أظرف أساتذة الفلسفة المعاصرين (ولا أحب أن أغضبه، لمكانته عندي) إلا أنني قرأتُ الكتاب مؤخرًا فوجدته من زاوية النظر الفلسفية، لا يزيد عن كونه دعابة لطيفة.

وبعدُ، فما هو العجيبُ في أمثالنا الشعبية؟.. حسبما ذكرنا في البداية، فإن الأمثال تدل على طبيعة الحكمة العملية للجماعة، ولذلك نجد شعبًا تميَّز دومًا بالمهارة والدأب كالصينيين، يشتهر من أمثالهم: لا تعطني كل يوم سمكة ولكن علمني الصيد. وعلى هذا المنوال، سنجد الأمثال الشعبية عند كل الجماعات المختلفة مُعَبِّرةً على نحوٍ ما، عن طبيعة هذه الجماعة أو تلك. وقد نجد اشتراكًا بين الأمثال الشعبية الدالة على المعاني العامة، مثل قولهم: "الولد صنو أبيه" المعبَّر عنه بالصيغة الإنجليزية الشهيرة: الابن مِثل أبيه **Like father like son**.

لكننا لن نجد في "أمثال" الشعوب، هذا التناقض الكبير الذي نجده في أمثالنا الشعبية المصرية. والدلائل على ذلك تكاد لا تقع تحت الحصر، فمثلًا: من أمثالنا الشعبية ما يدعو إلى احترام التخصُّص في الأعمال، كقولنا العاميّ "أعطِ العيش لخبَّازه" وفي المقابل من ذلك تمامًا، نجد المثل الشعبي الذي يزري بالمتخصِّصين قائلًا: باب النجار مخلَّع.

ويمتد فينا تناقُض أمثالنا، فإذا أردنا تحميس شخصٍ ودفعه إلى التميُّزِ والمُخَاطَرَة والمُغَامَرَة نقول: يفوز باللذات كل مغامرٍ (وهو صدر بيت شعري قديم، صار مثلًا). وفي المقابل من ذلك تمامًا، تدعونا الأمثلة الشعبية إلى المهادنة والموادعة والخنوع بأقوالٍ كثيرة، منها: مِنْ خاف سِلِمْ.. امشي سنة ولا تعدّي قَنَا (مجرى مائي).. حُط راسك في وسط الروس.. إلخ.

وللإعلاء من قيمة الإيمان واستلهامًا من الواقعة العربية القديمة في "نجران" الوارد ذكرُها في القرآن الكريم نقول باللفظ العاميّ: النار ما تحرقش مؤمن.. وعند المواساة نقول ما يناقض ذلك: المؤمن مصاب! وإذا أردنا التدليل على ضرورة الصبر عند المِحَن، وأهمية احتمال حوادث الزمان والإستهانة بها؛ نقول: ياما دقَّت على الراس طبول.. وفي المقابل من ذلك، نجد المثل المناقض القائل: خَبْطتين في الراس توجع! وإذا استعجلنا الأمور، قلنا بشكل مجازيّ لطيف: اتقلْ على الرُّز يستوي.. وعلى النقيض من ذلك، يقول مثلٌ آخرُ فصيحُ المفردات: خير البر عاجله!

وعلى هذا النحو تتناقض أمثالنا الشعبية المشهورة، لتجعل المعنى المراد في هذا "المَثَل" أو ذاك، متعارضًا بشكلٍ تام.. وقد اكتفينا بذِكر الأمثلة السابقة للأمثال المتناقضة، للإشارة إلى هذه الحالة العجائبية للعقل الجمعي المصري، الذي يُعبِّر عن نفسه بالأمثلة والمأثورات المتعارضة.

وقد يعترض هنا معترضٌ، انطلاقًا من أن هذه "الأمثلة" إنما تُقال في سياقات منفصلة، وأنها تعبِّر عن التنوع وإتاحة "البدائل الثقافية" في مجتمعنا "العريق" .. وردًّا على هذا المعترض نقول: إن هذا التميُّع وعدم الضبط في التوجُّهات العامة التي تعكسها وتُعَبر عنها الأمثال الشعبية، بصرف النظر عن السياقات المنفصلة التي تستعمل فيها، هو دليلٌ على تفاوت طرق التفكير العامة في المستويات الشعبية. بشكلٍ حاد التناقض، مما يدل على الرغبة في المراوغة وقبول الأحوال أيًا ما كانت، وتفصيل الأقوال وفقًا لما يُرضي جميع الأطراف.

المدح والقَدْح

ومن عجائب أهل مصر وغرائب أحوالهم (الحالية) أنهم يشتمون إذا مدحوا، وقد يمدحون حين يشتمون.. ولبيان ذلك وتبيان مُضحكاته المُبكيات، لابد أولًا من التمهيد التالي:

كلُّ لغةٍ، بحسب تعريف العلّامة اللغوي الشهير "ابن جِنّي" هي: أصواتٌ يُعبِّر بها كل قومٍ عن أغراضهم.. وكلُّ لغةٍ، بحسب قول الفيلسوف المعروف "لودفيج فتجنشتين" هي: رسمٌ للعالم الخارجي وصورةٌ له في الأذهان.. وكلُّ لغةٍ، بحسب ماهو بديهيٌّ ومُتداول، هي وسيلةٌ للتواصل والتفاعل بين الناس. وأعتقدُ من جانبي، أنها أيضًا وسيلةٌ للتفكير والإدراك، لأننا نُفكِّر ونتأمل من خلال مفردات وصيغ لغوية، حتى وإن لم ننطق بها.

واللغةُ، هي التي نقلت الإنسانية عن أطوارها البدائية التي دامت قُرَابَةَ مليون سنة (مع احترامنا طبعًا للتصورات التوراتية التي قررت إن حياة "آدم" أبي البشر، كانت من سبعة آلاف عامٍ فقط) واللغةُ هي التي ارتقت به عن مرتبة الحيوانية التامة، وجعلت الإنسان يبدأ مسيرة الحضارة ويتميّز عن بقيَّة الكائنات الحية، بل ويستعلي عليها بتسخيرها لخدمته وحبسها في أقفاصٍ ليستمتع بمشاهدتها أطفالُه والكبار. حتى بلغ الغرورُ بالإنسان إلى الدرجة التي جعلته يظن أنه ابن الإله ومحور الوجود، وأن الأرض التي يعيش عليها هي مركز الكون. وهو الوهمُ الذي أطاح به علماءٌ نابغون من أمثال "جاليليو" و"كوبرنيكوس" وأمثالهما ممن أيقظوا الناس من سُباتهم، ودفعوا ثمنًا غاليًا لجرأتهم على تنبيه النائمين الغارقين في عسل الأوهام الأسود، المر.. ثم جاء

الفيلسوف العارم "نيتشة" وسَخِرَ من طغيان الإنسان وتوهُماته المُعَتَّقَة، بقوله الآسر البليغ: في ركنٍ بعيدٍ من الكون، حيث تترامى ملايينُ الكواكب والمجرّات، جاءت على أحد الكواكب حيواناتٌ ذكيةٌ اخترعت المعرفة. وكانت لحظةُ الاختراعِ هذه، هي أكبر ما شهده التاريخُ الكوني من زيفٍ وتبجُّحٍ. غير أنها مجرد لحظة، إذ يكفي أن تتنهّد الطبيعةُ، حتى يفنى الكوكبُ، وتموتُ الحيوانات الذكية.

ولم يحدث التطوّرُ الإنساني والإرتقاءُ الحضاري، بفضل مثابرة البشر أو ذكائهم، ففي الحيوانات ماهو أكثر مثابرةً منهم، وأحدُّ ذكاءً، وإنما كان ذلك لأن البشر تناقلوا المعارف وقدّموا خبرات السابقين إلى اللاحقين، فتراكمت المعرفةُ من خلال "اللغة" التي هي العنصر الأول والأكثر تأثيرًا، في افتراق الإنسان عن القرد (مع أن بعض البشر اليوم، أكثر قرديةً من القرود) ولو كان أي كائن آخر هو الذي عرف اللغة ونقل بها خبرةُ الجيل السابق ومعارفه إلى الجيل اللاحق، لكان هذا الكائن هو الجبّار المتسيّد. فاللغة، هي أهم "شرط" للحضارة الإنسانية، ولولا اللغات ما قامت حضارات.

واللغة عبارة عن "صوت" و"دلالة" مرتبطة به، بمعنى أن الأساس الذي تقوم عليه كلُّ اللغات هو وجود ألفاظٍ منطوقةٍ (أصوات) لها عند الناطق بها والسامع لها، دِلَالَاتٍ مُحَدَّدَة ومعانٍ تمّ الإتفاقُ عليها، وهو ما يُسَمِّيهِ اللُغَوِيُّونَ العرب القدماء "الوضع" .. يعني وضع مفاهيم محدّدة للمفردات، يتم بها التواصل والتعبير عن المُراد وانتقال الخبرات من السابقين إلى اللاحقين.

فماذا لو انقطعت الصلة بين اللفظة والدلالة؟.. سوف يؤدي ذلك إلى الإطاحة بأهم سمة من سمات اللغة، وبالتالي تحويل المجتمع إلى ما يشبه "مستشفى المجانين" حيث لا تواصل بين المتحدّثين، ولا بناء للأفكار وتطوير لها، ولا تراكم معرفي. ومن هنا، تظهر أهمية وخطورة التناقض والتضاد بين اللفظ والدلالة، في كثيرٍ مما يجري اليوم على ألسنة الناس في بلادنا. فيما يلي بعضُ الأمثلة:

في حياتنا اليومية، ومع هيمنة نمط عارضات الأزياء وعارضيه حدث سُعارٌ محموم لإنقاص الوزن، حتى لمن كان وزنهم أصلًا ناقصًا أو مناسبًا. ولذلك نسمع كثيرًا مَن يقول بالعامية عبارات مثل: عايز أخسّ شوية، أنا خاسس اليومين دول، ماشاء الله خسيّتِ كتير، لازم تخسّ..إلخ! وهذه كلها مفردات مشتقة من "الخِسَّة" وليس من المعنى المراد فعلًا وهو النحافة. وبالتالي، فنحن لا نمدح شخصًا حين نقول إنه "خَسّ" بل نشتمه ونصفه بالخِسَّة. وكذلك الحال حين نقول عن شخصٍ "ابن ناس" قاصدين بذلك مدحه، إذ معنى ذلك أنه لا أب له! على النحو الذي شرحته بالتفصيل في كتابي: "كلمات، التقاط الألماس من كلام الناس."

وفي المقابل من ذلك، قد يشتم المصريون شخصًا بوصفه بالمدائح، على النحو التالي (وساضع الشتائم مفكّكة الحروف، كَيلا تخدش صورتها حياء القارئ) فنراهم يقولون إذا أرادوا الشتم، إن فلان " ع ر ص" أو " م ع ر ص" وهي كلمة يظن الناس أنها تعني قَوّاد. مع أن اللفظة مشتقة من العرصة والعرصات، وهي المساحات الواسعة التي تكون بين البيوت، كالميادين الصغيرة والتقاطعات الواسعة بين الشوارع. وعندما نصِفُ شخصًا بالوصف المذكور

بالحروف المُفَكَّكَةِ السابقة، فهذا يعني أنه شخص اجتماعي وغير كسول وكثير الإختلاط بالناس، أو هو حسبما تقول القواميس اللغوية: نَشِط.. وبالتالي، ففي فصيح اللغة التي من المفروض أننا نتكلّمها: كل ناشطٌ هو بالضرورة م ع ر ص

وإذا أردنا أن نصف شخصًا بالشذوذ الجنسيّ، قُلنا إنه "ل وط ي" واستخرجنا من ذلك مصدرًا لُغَوِيًّا هو اللواط، ظَنًّا منا بأنه يعني المثلية الجنسية بين الرجال. بينما "لوط" نبيٌّ أرسله الله حسبما تقول التوراة ويؤكد القرآن الكريم، إلى قومٍ اشتهروا بشهوة المثلية الجنسية، ولما فشل في هدايتهم لِمَا يدعوهم إليه من العودة إلى اشتهاء النساء، أخرجه الله من بلدتهم التي كانت تفعل الفواحش، ومسحها من فوق الأرض بأن جعل عاليها سافلها. وبالتالي، فإن مفردة "لوطي" تعني عكس دلالتها. ناهيك عن أن "المصدر" هو الذي يجب أن تشتق منه المفردات، وليس العكس، فلا يصح أن نستخرج من صفة " لُوْطِيّ" مَصدرًا لُغَوِيًّا هو اللواط.

وقريب من ذلك، الكلمة التي نظنها في مصر فاحشةً فنشتم بها، وهي الكلمة التى حروفها "خ ول " مع أنها تعني في المعاجم العربية: عطيّة الله من النِّعَم والعبيد والإماءِ وغيرهم من الأتباع والحشم ! وفي المعاجم العربية: الخائل والخول هو الموكّل بقضاء حوائج الناس! وفي الأسماء العربية الفخمة: خولة. وهو الاسم الذي كانت تحمله أخت سيف الدولة الحمداني التي رثاها المتنبي، وكانت تحمله محبوبة "طرفة بن العبد" التي استهلَّ بذِكرها معلّقته الشهيرة فقال (لخولةَ أطلال ببُرقةِ ثَهمدِ، تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليدِ) وهناك كثيرات من النساء العربيات الماجدات اللواتي حملن سابقًا ويحملن الآن اسم "خولة " ولم يتحرّجنَّ قَطٌّ منه.

وعندما يتساخف أحد المسلمين على أحد أقباط مصر، يصفه بأنه "عظمة زرقاء" ظنًا منه بأنها شتيمة، مع أنها مَدْحٌ. لأنها تدل على التمسُّك بالعقيدة وحمل الصليب على الكتف، حتى تزرقَّ عظامه (ولهذا قصة طويلة يضيق المقام هنا عن ذكرها) ..وإذا تحامق رجل وأراد شتم امرأة وصفها بأنه "م ر ة" مع أنه لم يزد شيئًا عن تخفيف الهمزة من الكلمة الفصيحة، المحايدة "مرأة". فإذا ازداد فُحْشَهُ قال إنها "ل ب وة " وهذه أصلًا كلمة مدح للمرأة، بل للإلهة! وفي ابتهالات الربة عشتار، توصف الإلهة تقديسًا لها، بأنها: لبؤة إجيجي.. وفي تماثيلها التي كانت مُقَدَّسَةً لعدة آلافٍ من السنين، كانوا يُجَسِّدُونَهَا على هيئة امرأة يعتليها أسدٌ. وهكذا صارت المرأة تُشتم، بعين الصفة التي كانت تُمدح بها.

ولا تكاد الأمثلة على الخلط بين مدائحنا والشتائم، تنتهي. وهو خلطٌ نشأ عن الجهل باللغة والترخُّص والإبتذال في الدلالات، في غَيْبَةٍ وغيبوبة مُتْحَفُ الجمود المُسَمَّى: مَجْمَعَ اللغة العربية. حتى أننا صرنا نختلف في تحديد دلالة بعض الكلمات متكررة الإستعمال، ولا نعرف هل هي مدحٌ أم ذم، مثل كلمة "عسكر" التي يكرهها ضباط الجيش والذين يحبونهم، مع أنهم يقولون دون حرج، ومن دون أي غضاضة في الإشتقاق من كلمة "عسكر": القضاء العسكري، الروح العسكرية، المعسكرات، كبار العسكريين.. إلخ.

وكذلك الحال عندما يصف أحدُ المصريين أحدَ المصريين بأنه "خروف" قاصدًا شتمه لأنه ينتمي إلى تيار ديني معين. مع أن الخروف كان معبودًا مُقَدَّسًا في منطقة حوض البحر المتوسط، لعدة آلاف من السنين، وقد رأيتُ في قبرص وفي غيرها من المدن المتوسطية كثيرًا من تماثيله التي كانت قديمًا مُقدّسة..

وكذلك الحال في وصف "الأفعى" الذي يُعَدُّ عند المعاصرين شتيمةً للنساء، مع أنه كان دومًا لفظ تقديس! وكانت الأفعى رمزًا للملكات العظيمات، والإلهات المقدسات، على النحو الذي عَرَضْتُ له تفصيلًا في رواية " ظِل الأفعى".

وقد يتفاصح أحدُ المتحذلقين فيقول إن العبرة في المفردات، ليست بالدلالة المعجمية أو التاريخية لهذه اللفظة أو تلك، وإنما المهم هو ما تعنيه الكلمة في وعي المعاصرين الذين يستعملونها. ولهذا المُتفاصح نقول: لا تدافع عن الجهل، بجهل. وإلا، فإن انعدام الدلالات ومناقضاتها للمعنى الثابت لُغَوِيًا وتاريخيًا، سوف يؤدي بالضرورة إلى انقطاع الصلة مع اللغة المعاصرة وتراثها السابق، فنصير كالهائم في فراغ المعنى أو كالسابح في فضاء انعدام الوزن.

مَهْدُ التوحيد

ومن عجائب أمورنا نحن المصريين أننا قومٌ مُتَقَلِّبُونَ، في ماضينا وحاضرنا، ومع ذلك لا نُحِبُّ أن يصفنا أحدٌ بالمتقلِّبين. وكثيرون ممن يقرأون التاريخ المصري المديد، يندهشون من تلك التحولات الكبرى (الدراماتيكية) في الحياة المصرية العامة، وعلى مستوى العقل الجمعي. وكثيرون ممن يتابعون أحوالنا الحالية، يستغربون من سرعة التحولات في المِزاج المصري العام، ويُرَجِّحُونَ أن يكون السبب في ذلك هو تلاحق الوقائع، أو طيبة أهل مصر، أو استحالة فهم الشخصية المصرية. وهذه بطبيعة الحال أحكامٌ عموميةٌ، ولا أقولُ بلهاء، نلجأ إليها يأساً من الفهم العميق وتلافيًا لمشقته، فنُقَدِّمُ هذه التعليلات العليلة التي لا تصبر أمام أيِّ نقدٍ عقلانيٍّ أو أيِّ محاولةٍ علميةٍ لتحليل معطيات الواقع المصري.. ومن هنا، سوف نتوقف فيما يلي عند ظاهرتين كبيرتين

تتصلان بتقلُّبات المصريين، الأولى تتعلق بالتاريخ المصري وتحولاته العقائدية المدهشة، والأخرى ترصد تحوُّلات المِزَاج العام في مصر منذ اندلاع ثورة يناير ٢٠١١ وحتى اليوم..

يستغرب كثيرٌ ممن يقرأون التاريخ المصري العام، من ظواهر "التدين المصري" ومساراته وتحوُّلاته الكبرى، ليس بالمعنى السلبي الذي طَرَحْتُهُ في كتابي "دوَّامات التدين" وإنما بمعنىً آخر هو دوام الديانة المصرية القديمة لعدة آلاف من السنين، راسخةً مُستقرة، ثم هجران المصري لديانته العريقة وإيمانه العميق المفاجئ بالمسيحية، التي وفدتْ إليه من خارج الحدود الشمالية الشرقية.

لا خلاف في أن المسيحيةُ أزاحت الديانةَ المصرية القديمة وانتشرت بمصر حتى صارت عقيدة الأغلبية من أهلها. ولكن بعد قرونٍ طِوال من نضال المصريين من أجل الاستمساك بالعقيدة المسيحية القويمة (الأرثوذكسية) وبعد عبورهم الفترة المسماة "عصر الشهداء" إشارةً إلى كثرة المؤمنين الذين ضحوا بحيواتهم من أجل الديانة المسيحية. نجد المصريين يرُحبون بالإسلام ويدخلون فيه أفواجًا، فتصير مصر بلدًا مُسْلِمًا وعاصمة من كبريات العواصم الإسلامية في العالم. ناهيك عن دورها التاريخي في خدمة الإسلام. وهو الدور المتمثل في نشاط "الأزهر" خلال ألف سنة، وفي قيام القاهرة بعبء الحفاظ على التراث والحاضر الإسلامي لاسيَّمَا عقب سقوط بغداد بيد المغول، ثم إسقاط دولة الإسلام في الأندلس.

لكن هذا الأمر، فيما أرى، فيه نظرٌ ويلزمه كي يكون مفهومًا، أن نراعي بعض الحقائق وأن نُعمِل العقلَ في تلك التحولات. فمن تلك الحقائق الواجب مراعاتها، أن ما نسميه "الديانة المصرية القديمة" لم تكن نَسَقًا عقائديًا مُوَحَّدًا امتد لعدة آلاف من السنين. صحيح أن المصري القديم، والمعاصر، كان يؤمن بإلهٍ أعلى اختاروا له الإسم المصريّ القديم (آمون) أي المحتجب أو المختفي خلف السماء العالية، وصار اسم الإله يُنْطَقُ بألفاظٍ مُحَوَّرة لن نبذل جَهْدًا كبيرًا لاكتشافها وإدراك تطابقها. ومع ذلك، فإن مصر القديمة لم تكن لها يومًا ديانة مُوَحَّدة، وعبثًا حاول الفرعون المحدود المحبوب اليوم "إخناتون" توحيد ديانة أهل مصر، تحت لواء الإيمان بالإله الذي التقطه من التراث المصري الأقدم منه، أعني الإله "آتون" الذي كان مُنْدَثِرًا في زمانه. ولكن مسعاه هذا لم يُكتَب له النجاح، إذ فشلت محاولة "إخناتون" ودفعت البلاد ثمنًا فادحًا لهذا الفشل. فقد اضطربت أحوالها واحتُلَّت أراضيها، نتيجةً لهذا الفشل الإخناتوني الذي كان من أسبابه الأساسية التنوع العقائدي عند المصريين، مع أنهم كانوا يعيشون لعدّة آلاف من السنين تحت مظلّة "آمون" الذي لم يكن لديه بأس من تنوع العقائد تحت مظلّته الجامعة، ولم يجد بأسًا في تعدد الآلهة المفردة، والمجامع المقدَّسة التي كان منها ثالوث: إيزيس، أوزوريس، حورس (= إسّت، أوزير، حور).

وقد حدث هذا الإنتقال العقائدي نظرًا للتشابهات الكثيرة بين هذا الثالوث المصري المُقَدَّس (الأقدم) والثالوث الوافد، سواءً في صورته الأولى "العذراء، روح القدس، الإبن" أو في صورته النهائية: الأب، الابن، روح القدس.. ونظرًا للتقارب الشكلي بين الرمز الديني القديم: عنخ (مفتاح الحياة)

والرمز المُقَدَّس الذي وفد من فلسطين: الصليب (علامة الخلاص).. ناهيك عن "المواساة" التي قَدَّمتها المسيحية لشعبٍ ظلَّ خلال القرون الطوال التي سبقت ظهور المسيحية، مقهورًا.

ومن غير الصحيح، الظنُّ بأن مصر استقبلت الإسلام بالترحاب حين جاء إليها مع الجيش الذي قاده عمرو بن العاص؛ فالذي حدث فعلًا هو رضوخ المصريين للعرب المسلمين الفاتحين، باعتبارهم سُلطةٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ وجدوها أرحم بكثير مما عانوه من ويلاتٍ على يد إخوانهم "الحُكَّام" المُشْتَرِكِيْنَ معهم في العقيدة . ليس فقط في الديانة (المسيحية) عمومًا، وإنما أيضًا في المذهب (الأرثوذكسية). لكنهم تخالفوا مع إخوانهم الذين أسموهم قديمًا "خلقيدونيين "ويسمونهم اليوم "الروم" في بعض دقائق التفاصيل اللاهوتية المُبْهَمَة، فدفع عشراتُ الآلاف من أهل مصر آنذاك حياتَهم ثمنًا لخلافٍ مذهبيّ لم يكن معظم "الشهداء" يدركون حقيقته وفحواه وأسبابه .

وخلال مئات السنين التي أعقبت الدخول (الفتح أو الغزو) العربي الإسلامي لمصر، بقيت العقيدةُ العامةُ المنتشرة في مصر هي المسيحية الأرثوذكسية، وكان المسلمون الفاتحون يعيشون في معسكراتٍ مُنْعَزِلَةٍ عن عموم البلاد: الفسطاط، العسكر، القطائع.. ولم يكن مسموحًا لأفراد الجيش من العرب المسلمين، بأن يختلطوا بالمصريين في القرى والبلدات المتناثرة في الأرض الخضراء، إلا في زمن (الإرتباع) الذي كان يسمح فيه للجنود بالخروج من معسكراتهم إلى الريف، في فترة الربيع، فيأخذوا أحصنتهم لترعى هناك وتصحُّ ويزداد استعدادها لأيِّ قِتَالٍ مُتَوَقَّع. وكان من المحظور بشدة، أن يتعامل الجنود (المسلمون) مع أهل القرى (المسيحيين) أو يتداخلوا معهم، ناهيك عن

حظر الإختلاط بهم أو التزاوج معهم، مثلما حدث مثلًا في الأندلس. ولذلك، لم نسمع في القرون الهجرية الأولى عن زيجات شهيرة بين الحاكمين المسلمين والمحكومين المسيحيين، بصرف النظر عن الوهم المشهور، المتعلّق بزواج النبي محمد عليه الصلاة والسلام، من الفتاة المصرية (أم المؤمنين) التي كان اسمها: مارية.. فلهذا الأمر تفصيلٌ وتصويبٌ يضيقُ عنه المقام هنا، وقد ناقشته باستفاضة في كتابي "متاهات الوهم" وألمحتُ إليه في رواية " النبطي".

المهم، لم تدخل مصر في الإسلام إلا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ولم يكن الأمر انقلابًا عقائديًا بقدر ما كان إجبارًا اقتصاديًا وعَنَتًا اجتماعيًّا جرى في الزمن الفاطمي، وتخلَّص منه معظم المسيحيين في مصر بأن أعلنوا إسلامهم وتحوّلوا عن المسيحية، لا سيما أنهم وجدوا كثيرًا من وجوه التشابُه بين الديانتين، وكثيرًا من التطابق بين الدين الإسلامي وبعض المذاهب المسيحية القديمة كالآريوسية والنسطورية، وهي مذاهب كانت مرفوضة عند الأرثوذكس (رجال الدين) لكنها في نهاية المطاف، عند عموم المسيحيين وعوامهم، مذاهب مسيحية .. ومن هنا جرى التحول التدريجي، وليس الإنتقال المفاجئ من المسيحية إلى الإسلام .

* * *

وفي زماننا المعاصر، وفي ابتداء الإهتياج العام بمطلع العام الحادي عشر بعد الألفين، ظللنا لمدة شهرين نقول: ثورة يناير أخرجت من الشعب المصري أفضل ما فيه.. ثم صرنا نقول بعد ذلك بقليل: إن هذه "الثورة" أخرجت من الشعب المصري أسوأ ما فيه. وهذا التحول من النقيض إلى نقيضه، كان بسبب

شغفنا نحن المصريين بصيغة أفعل التفضيل "أفضل، أسوأ" وكان يمكن لنا، لو كنا نعرف كيف نضبط اللغة التي نستعملها، أن نعفي أنفسنا من هذا التناقض بقولنا: ثورة يناير أخرجت من الشعب المصري، ما فيه. بلا حُكمٍ (عامٍّ) على كونه أفضل أو أسوأ، وبالتالي يصير بإمكاننا أن نرى الطبيعة الفعلية للحالة العقلية والإجتماعية العامة، بما تشتمل عليه من مكوناتٍ بعضها "فاضل" وبعضها الآخر "بالغ السوء" فنستطيع بالتالى أن نُولى المُكَوِّنَات السلبية اهتمامنا، فنَخْرُجُ منها ،ولا نقع في براثن اصطدام الجَيِّدِ بالرديء وفي اضطراب الأحكام العمومية غير الصائبة.

وفي منتصف فترة الإضطراب المصري العظيم، أعني قبل عامٍ ونصف العام، انهمكنا في الخلاف حول ما إذا كانت ثورة يناير ٢٠١١ هي بالفعل "ثورة مجيدة" أم هي "فوضى خلأقة" وانهمك الكلُّ في المواقف المتضاربة والمتحوِّلة، حتى صار من الأوصاف الشهيرة في ذاك الوقت القريب: المتحولون.

وبالفعل، لقد تحوَّل كثيرٌ من المصريين خلال السنوات الثلاث الماضية، من النقيض إلى النقيض: يرفعون "عصام شرف" فوق الأعناق في ميدان التحرير ابتهاجًا باختياره "رئيسِ وزراء الثورة" ثم يهتاجون ضده بعد شهرين ويشتمونه ويتهمونه علنًا بأنه أسوأ رئيس وزراء عرفته مصر. ناهيك عن توزيع السباب عليه وعلى وزرائه الذين كانوا يتغيَّرون بسرعة، وبالأحرى: يتساقطون، حتى إن بعضهم قضى في الوزارة يومين اثنين ثم انخلع أو خُلِعَ، بسبب هياج الناس ضده بعدما كانوا يهتفون له. ومن هنا، يظهر لنا أن"المتحولين" لم يكونوا فقط هم هؤلاء الكُتَّاب والكَتَبَة الذين أيَّدوا ثم ندَّدوا، وإنما كان هذا التحوُّل عامًّا في معظم

الناس.. فجأةً، كنا نكتشف أن مصر "إسلامية، إسلامية" ونصخب في الشوارع والميادين مُعلنين العبارة التي أراها كوميديةً: على القدس رايحين شهداء بالملايين (ولا أدري لماذا لَم يقولوا: منصورين بالملايين) .. ثم ننسى بعد شهور كل شيءٍ يتعلق بالقدس وبالشهادة وبالمظاهر الشكلية التي كان يستعلن بها الذين يستعملون الدين في السياسة.

أين ذهب هؤلاء المُلْتَحُونَ الذين كانوا يملأون شوارعنا والنواحي؟ وأين نساؤهم المتشحات بالإسوداد؟ وأين ساحر الرأي العام في مصر: محمد حسان؟ وأين "أختي كاميليا" التي احترقت بسببها المباني الدينية وأُزهِقَت من أجلها الأرواح؟ وأين ذهب هؤلاء "الحازمون" الذين كانوا يتوعّدون مخالفيهم بالويل والثبور، ويحاصرون مدينة الإنتاج الإعلامي كأنهم في نزهة خلوية، ويرسلون مجموعات الشباب للقتال في سوريا وليبيا.. كيف اختفى هؤلاء كلهم، فجأة، مثلما ظهروا فجأة؟

أعرفُ أستاذة جامعية من النوع النمطي المعتاد، كانت تقاطع جيرانها الذين أيّدوا "شفيق" في الإنتخابات الرئاسية الماضية، لأنها كانت تعتقد أن عدم دعمهم "مرسي" هو خيانة للدين والوطن! كان ذلك رأيها، ثم رأيتها بعد ذلك بعشرة أشهر تجمع في الشوارع توقيعات الناس ضد رئاسة مرسي الكارثية، في إطار الحركة التي عُرِفَت باسم "تمرُّد".. ولم يكن هذا الموقف المتناقض فرديًا، أو مختصًا بهذه الأستاذة الجامعية بالذات، وإنما كان موقفًا عموميًا لمعظم الناس. وتيّارًا جارفًا. ولم يكن هذا التقلُّب العام العجيب بسبب أن المصريين يحبون التغيير ويميلون إلى التقلُّب، بل بالعكس فالمصريون هم أهل "الثبات والنبات وخِلْفة الصبيان والبنات". ولا يمكننا منطقيًا، قبول التفسير الظريف

الذي قَدَّمَهُ شاعرنا الراحل "أحمد فؤاد نجم" بخفَّةِ دمه المعتادة، حين قال: مصر دي حدُّوته، وشعبها مالوش كتالوج! فهذه الرؤية الشاعرية والتعبيرات الشعرية، لا تُجْدِي كثيرًا إذا أردنا تفسير حالة التناقض المُرِيع التي عصفت بالعقل المصري الجمعي خلال السنوات الثلاث الماضية. وبالتالي، علينا أن ننظر إلى هذا الأمر برؤيةٍ ومنطقية، فنقول في معرض فهمه وتفسيره:

إن العزوف عن المشاركة السياسية والفعل الإجتماعي العام، خلال الستين عامًا الضباطية الأحرارية، وخصوصًا في الثلاثين سنة الأخيرة منها "المباركية" بالإضافة إلى غياب المناهج التعليمية المتطورة، وبؤس التدريس، ونقص الرؤى الثقافية والخطط المعرفية. وغير ذلك من الأسباب التي أدَّت إلى حالة الجهالة العامة، والغباء السياسي، قد أسهمت بشكلٍ مباشر في حالة التخبُّط العام. وأدَّت بالتالي إلى هذه المواقف المُتَنَاقِضة، حين شرع الناس في مصر فجأةً، في المشاركة السياسية وصياغة الواقع الثوري الجديد. ولا شيء أخطر على البلاد من جهل أهلها وانعدام خبرتهم ونقص وعيهم العام.. فالوعي وقود الثورة.

فماذا بعد هذه العجائب والأحوال الغرائبية والتخبُّط العام على هذا النحو المُرِيع؟ وكيف يمكن الخروج من تلك الحالة إلى أُفُقٍ أكثر جَدْيَةٍ ونفعًا؟.. لا سبيل إلَّا الآتي: العملُ الجاد في المجال الثقافي العام (لأن المواجهات والأخطار المُحَدِّقَةُ بنا، تتعلق أساسًا بطريقة التفكير) وضبطُ اللغة التي يستعملها العوامُّ والخواص (لأن غياب الدلالة وانفصالها عن المفردات يجعلها سببًا للفوضى الذهنية) والإصلاحُ الجذري للعملية التعليمية لا سيما الجامعية (حتى

وإن اقتضى ذلك إغلاق الجامعات الحكومية لمدة عامين) وإعادة بناء منظومة القيم التي اهترأت.. باعتبار ذلك مسألة مصيرية.

واعرف أن هذا الطريق طويلٌ، لكن لا غنى عنه.

الدين والتدين والمديونية

تمهيد

من الأمور اللافتة للنظر، أن البلاد المتقدمة اليوم في الغرب، لا تضم حكوماتها "وزارة إعلام" بينما نجد بلادنا العربية تولي اهتمامًا خاصًا بهذه الوزارة التي بدأت في مصر مع حكم الضباط الأحرار (جدًا) وكان اسمها الأول: وزارة الإعلام والإرشاد القومي .. وبالطبع، فإن كلمة "الإرشاد" تدل على المراد الواضح من هذا الكيان الحكومي، الذي تفترض السلطة السياسية من خلاله أن الشعب يحتاج مرشدًا، وأن جموع الناس لا تستغني عن مرشدين.

وخلال ستون عامًا من حكم الضباط الأحرار جداً، وورثتهم من الضباط، كان الإعلام بمصر هو أداة الإرشاد والتوجيه والتقويم والتنويم الحكومي لجموع الشعب، ولم تكن وسائل الإعلام من صحفٍ وإذاعةٍ مسموعةٍ ومرئية تتمتع بأي قدر من الاستقلال عن السلطة الحاكمة. حتى حدثت الطفرة المعلوماتية وانهمرت على الناس القنوات الفضائية وزعزع الإنترنت استقرار الحال الذي دام لعشرات السنين. وهنا انكشف تخلُّف الإعلام المصري الحكومي، وتناقصت الثقة في الصحف (كلام جرايد) حتى تزعزعت وصارت من المضحكات المبكيات.

وفي ظل انعدام الاستقلالية، لم يكن بمقدور الوسائل الإعلامية المبادرة إلى طرح رؤى عامة أو وجهات نظر استراتيجية بعيدة المدى. وإنما اقتصر الدور الإعلامي على حالة رد الفعل،والاستجابة إلى ما يأتى من "تحديات" فإذا

هوجمت السياسات العامة سارع الإعلام إلى الدفاع عنها، وإذا تدهورت شعبية الرئيس سارع الإعلام إلى تحسين الصورة، وإذا جاء من الغرب أو الشرق صوتٌ كان إعلامنا هو الصدى .. ولا أريد هنا أن أُعَدِّدَ الأمثلة على صدى الإعلام المصرى وصداه، فهي مسألة لا يكاد ينكرها أحدٌ أصلًا. لكن ما يعنينا من ذلك الآن، هو الأصداء الجوفاء التي طَنَّت في آذاننا بفعل الإعلام، حين صدر تقرير مؤسسة "جالوب" الأمريكية الذي يقول بناء على استطلاعٍ واسعٍ، إن المصريين هم أكثر شعوب العالم تدينًا ..(لابد من وضع عدة علامات تعجُّب) وبطبيعة الحال، انهمكت وسائل الإعلام المصرية في إحداث الصدى المناسب.. و حين هاتفني الصديق أسامة سلامة داعيًا إياي، بإصرار، إلى الكتابة لمجلة "روزاليوسف" عن هذا الاستطلاع، كنت لحظتها على الطريق الصحراوى متجهًا من الإسكندرية إلى القاهرة، للمشاركة في الحلقة التليفزيونية التي سوف تُذاع ليلتها على الهواء مباشرة، ضمن البرنامج اليومى الأكثر انتشارًا في القنوات المصرية (الرسمية) وكان من المفترض أن تناقش الحلقة على مدار الساعة، الاستطلاع ذاته ونتيجته الدالة. كنتُ في الليلة السابقة قد حاولت الاعتذار عن التصوير، معتذرًا بأنه من غير المعقول أن أقطع المسافة في ثماني ساعات، كي أسجل مع مجموعة ضيوف ساعة تليفزيونية، يمكن تغطية نصيبى منها بمكالمة هاتفية (مداخلة) أعرض فيها وجهة نظري. غير أنهم أقنعونى بأن الموضوع مهم، ويحظى باهتمام كبير على الإنترنت، ويجب أن يوليه الإعلام المصري ما يستحقه من عناية ومناقشة وتحليل .. فاقتنعتُ بهذا واتخذت في اليوم التالي طريقي إلى القاهرة المحروسة من أعين الحاسدين واللائمين والطامعين والمتربصين (كان ذلك قبل ثورة يناير بعامين، سنة ٢٠٠٩).. وعند الرست هاوس (بيت الراحة) الواقع في منتصف الطريق إلى القاهرة اتصلوا بي من التليفزيون المصرى الرسمى، معتذرين مني لأنهم قرروا تأجيل تصوير الحلقة،

لظرًا لوقوع حادث جَلَلٍ ومناسبة قومية على درجة قصوى من الأهمية؛ إذ حصل اللاعب المصرى أبو تريكة على جائزة أفضل لاعب في نادٍ محليّ بإفريقيا، بينما حصل لاعب كرة من ليبيريا (حسبما قالو لي) على الجائزة الأكبر باعتباره احسن لاعب في نادٍ دولى .. لم أفهم أول الأمر، الصلة بين جائزة أبو تريكة وإلغاء مناقشة نتيجة الاستطلاع الذى من المفروض أنه مهم! فقالوا إنهم سوف يخصصون البرنامج كله، ليلتها، لأبو تريكة نظرًا لأهمية الموضوع وخطورته واهتمام الناس به. تقبَّلت اعتذارهم مندهشًا، وتهيَّأتُ للعودة إلى الإسكندرية من منتصف الطريق، قانعًا بقاعدة: وكفي الله المؤمنين.. كان سائقُ سيارتى مندهشًا من اندهاشى! فقد فهم موقفهم من الوهلة الأولى، وأيَّد ما قرَّروه. سألته مستنكرًا، كيف يجوز هذا الإلغاء فى آخر لحظة؟ فقال بالعامية: إيه يا دكتور، ده أبو تريكة.

في المرات القليلة التي شاهدتُ فيها مباريات كرة القدم، التي شارك فيها "أبو تريكة" كنتُ معجبًا به. فهو لاعب جيد، ومهذب جدًا في تصرفاته بالملعب، ويحرز أهدافًا جميلة. تلك هي فكرتى عن أبو تريكة، ولكن لم تكن لدى فكرة عن أنه في بلادنا (المحروسة) أهم من مصيرها، ومن اتجاهات أهلها، ومن نتائج الاستطلاعات العالمية الدالة على أن (العقل الجمعى) في مصر في خطر. يومها، في المساء، عرفت من أحد الأصدقاء أنه يتم اتخاذ الترتيبات لاستضافة أبو تريكة في الاحتفال بعيد العلوم. إذن، للعلوم في بلدنا عيد، وفرحة العيد العلمي سوف تكتمل عند أهلنا إذا ما شارك فيه أبو تريكة. سألتُ صاحبى: هل لأبو تريكة إنجاز علمِّي لا أعرفه؟ فقال ما معناه أن إنجازه الكروىَّ يَجُبُّ أىَّ إنجازٍ آخر، علميًا كان أو غير علمي .. سألتُ، فما سر مشاركته في احتفالٍ كهذا ؟ قال: لضمان مشاركة عدد كبير من الناس! ثم اضاف موضِّحًا: يعنى لاصطياد مزيد من الحاضرين للاحتفال، ولجذب اهتمام

الصحف. لحظتها، رنّت في أذني مقاطع من قصيدة قرأتها قبل سنوات طوال، لشاعرنا المصري "محمد عفيفي مطر" وحفظتها على النحو التالي :

حاشيةُ الحثالة في مواكب الصيد

هَرّاجون بالفوضى

ومحبوكون في لغوٍ من الزُّور المضفَّر

مجدٌ، ولا شرفُ

والشعبُ تحت عراء العار ينجرف

قد يسلم الشرفُ المأبون، في زمنٍ

ديُّوثه الصُحُفُ

خطورة الاستطلاع

لا تكمن خطورة التقرير الصادر عن مؤسسة Gallup الأمريكية فقط في تأكيده أن المصريين هم أكثرّ شعوب العالم تديُنا، وهي مسألةٌ تقتضي بالطبع الوقوف عندها ولو قليلًا، بالتحليل. ولكن خطورة الأمر تتعدَّى ذلك، إلى مسائل لا تَقِلُّ خطورة سوف نوردها فيما يلى، ثم ننظر بعدها في (مانشيت) التقرير ومحتواه الدال؛ فمن تلك المسائل الخطيرة، المهملة:

أولًا: التقرير ونتائج الاستطلاع، ليسا جديدين تمامًا كما كنا قد نظن. فقد تم نشرهما في كتاب للباحث الأمريكي جون إيسبوسيتو John Esposito

صدر في فبراير ٢٠٠٨ (قبل عام كامل) فلم ينتبه إليه أحد. ثم نشر الموضوعَ موقعٌ إسلاميٌ محتفيًا بالنتيجة، فهاجمته المواقع الأخرى، وتناقلت الموضوع بعد عام كامل من غفلتهم عنه. ولأن الأمر تَمَّ على قاعدة (الهياج) فقد أحدث صخبًا متوقَّعًا، كنتُ أتوقع أن يخمد فجاة بعد أيام أو أسابيع قليلة، ننسى بعدها الموضوع برمته وننشغل عنه (نتلهَّى) بأيِّ صخبٍ آخر، يُلبِّي الحاجة إلى الهياج الفارغ، ويعفينا من النظر الجاد في الموضوعات .. وهو ما حدث فعلًا، حتى صارت الإشارة إلى هذا الموضوع، بعد عامين أو ثلاثة، تعني شيئًا واحدًا هو السخرية.

ثانيًا: كانت دهشة الجميع من نتيجة الاستطلاع (الاستبيان) غريبة. كما لو كنا قبله غافلين عن تلك الحقيقة، حتى أتانا المركز الدولي الأمريكي باليقين. وهذا عندى عجيب، وإلا فما الذي تفعله عندنا هذه الكيانات الهائلة المهولة: المركز القومي للبحوث..المركز الإقليمي .. المركز المحلي ..مركز التقرير الاستراتيجي ..مركز .. مركز! قال تعالى في محكم آياته (إن هي إلا أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان).

ثالثًا: إن نتيجة الاستطلاع الذي سأل الناس في بلادنا: هل الدين جزء مهم في الحياة اليومية ؟ كانت مائة بالمائة. أى كل الذين أجابوا أجابوا بنعم، مع أنهم ألف شخص ! لم يوجد من بينهم شخص واحد قال (لا) إذ الشيطان وحده، عندنا، هو الذي يقول لا. فالإنسان يجب أن يقول (نعم) المصرى يجب أن يقول (نعم) فقد اعتاد أن يقولها منذ أيام الاستفتاء على بقاء الرئيس، فكانت النتيجة ٩٩,٩٪ أي أنَّ واحدًا من كل الف يفكر. أما اليوم[١]، فالناس ١٠٠٪ أو بحسب التعبير العامى"مية مية" أي لايفكرون. إذ من شان التفكير

---

(١) نشرت المقالة (الأصل) لهذا الفصل، في مجلة روزا اليوسف، سنة ٢٠٠٩

أن يؤدّى إلى اختلاف وجهات النظر، ويجعل (الإجماع) أمرًا مستحيلًا، ويعطي معقولية لفكرة الأغلبية، ومن ثم إمكان الديموقراطية .. ولكن و الحال كذلك، أى مائة بالمائة، فهذا دالّ على أنه لم يعد هناك ديموقراطية.. ولا أغلبية أو أقلية.. ولا معقولية.. ولا تفكير.. ولا إنسانية. لأن "الإنسان" بحسب التعريف الفلسفي:هو كائن مفكر.

أخيرًا: إن الإجماع العام على أهمية الدين في الحياة اليومية، يدل على أن (الدعاة) سوف يكونون في المرحلة القادمة هم قادة الرأى في المجتمع المصري[١]. وسوف يؤدي ذلك إلى إعادة توزيع مثلث الجماهيرية الذي يمثله اختصارًا، ثلاثةُ زوايا: أبو تريكة، عمرو دياب، عمرو خالد. إذ أن هيمنة الدعاة سوف تؤدى إلى إهمال الاهتمام بكرة القدم، لأنها عند الدعاة من أعمال الدنيا لا الآخرة. وسوف تؤدى هيمنة الدعاة إلى هجر الغناء الشبابى، لأنه من عمل الشيطان .. وعلى ذلك، سوف تتراجع زاويتا الكرة (أبو تريكة) والفن (عمرو دياب) لصالح زاوية التدين التي يمثلها (عمرو خالد) .. ولابد لنا أن نتقبل، أن المستقبل هو عمرو خالد! أعني المستقبل القريب، لأن المستقبل البعيد سيظهر فيه دعاةٌ يرون أن عمرو خالد لايمثل التديُّن تمثيلًا صحيحًا، لأنه أقرب إلى الزاويتين الأخريين في مثلث قادة الرأي، منه إلى الزاوية التي يمكن أن تكون رأس الزوايا، ورأس القيادة، ورأس الرؤوس: زاوية الدعوة إلى الله، في المجتمع الأكثر تدينًا في العالم، والأكثر أهلية للعبور إلى المستقبل بهدى الدعاة.. الهداة، الهادين، المهديين، المهدويين (نسبةً إلى المهدي المنتظر).

---

(١) حدث ذلك فعلا، بعد عام ونصف، فور اندلاع ثورة يناير ٢٠٠١.. (وبقية الكلام منشور هنا بنصه الذي نشر به في المجلة آنذاك، دون أى تعديل أو إضافة

الدِّين والتديُّن

ينبغي علينا أن نفرق بين مفهومي: الدين، التدين. فالأول هو الأصل الاعتقادي الذي يمثله في ثقافتنا (كتاب) هو عندنا نحن المسلمين القرآن ومتون السنة، وعند إخواننا الأقباط وعموم المسيحيين هو الإنجيل وأعمال الرسل، وعند أولاد عمنا (الأقارب الأبعاد) هو التوراة والتلمود. تلك هي أصول الدين. أما التدين فشيءٌ آخر، فهو سلوك اجتماعي وعقل جمعي ينطلق من الأصل الديني، لكنه لا يُشترط أن يطابقه. وسوف أعطي أمثلة على الفارق بينهما:

يدعو الدين الإسلامى إلى توريث المرأة نصف ما يرثه الرجل، وأن للذكر مثل حظ الأُنثيين. لكن المتدينين في قُرانا خاصة في الصعيد، لا يورثون المرأة أصلًا. ولا يرون في ذلك مناقضة للدين، أو أنهم يرونه أمرًا متناقضًا لكنهم لا يكترثون بهذا التناقض.

يدعو الدين الإسلامى المرأة إلى التحشُّم وعدم إبداء زينتها إلا لبعلها (زوجها) وأبيها، والآيات القرآنية صريحةٌ في تنبيه النساء إلى عدم التعمد في إظهار ما خفي من زينتهن. لكن المتدينات المصريات يضعن على رؤوسهن الحجاب، ويضعن الماكياج! وبعضهن يغطين شعورهن ويُبرزن بالملابس الضيقة المؤخرات والنهود، ولا ترى اللواتي يفعلن ذلك، أن في الأمر مناقضةً للدين. أو أنهن، مثلما هو الحال في الرجال، يرينه متناقضًا من دون أن يكترثن بهذا التناقض.

يدعو الإنجيل أهل الديانة المسيحية إلى اللحاق بملكوت السماء، وهجران الملكوت الدنيوي الزائل، ويأمرهم المسيح بأن يعطوا ما لقيصر لقيصر ومالله لله، أى لاينازعوا أهل الدنيا في دنياهم. لأنها زائلة لا محالة، ولا تستحق

العناء ناهيك عن الدعوة اليسوعية الصريحة، الآمرة، الحاسمة: أحبوا أعداءكم .. والمتدينون في بلادنا من أهل (الديانة) يفعلون شيئًا آخر، وفي كل يوم تطالعنا الصحف بموضوعات عن ثورة الكنيسة، وسلطة الكنيسة، وغضب الكنيسة، وذهب الكنيسة، وغير ذلك مما يناقض (الدين) من أفعال المتدينين.

يدعو الإنجيل إلى تعديل شريعة اليهود، ويعُفي المسيحيين من الختان. لكنَّ المتديِّنين والمتدينات الأقباط يختتنون ويختتِنَّ، وكأن الشريعة لم تعدَّل أو أن التدين الذي علامته الختان، أهم من الدين الذي نهى عن الختان .. ولن أفيض هنا في بيان هذه النقطة (الحرجة) إذ مرادي فقط، هو تبيان أن الدين غير التدين.

تدعو التوراة اليهودية إلى العمل لتحقيق وعد (عهد) الرب لهم، بامتلاك الأرض الممتدة من نيل مصر إلى الفرات بالعراق. ومع ذلك، تَبْرُم إسرائيل مع العرب معاهدات السلام، وتنسحب لهم من الأرض التي استولت مؤخرًا عليها: سيناء، قطاع غزة، الضفة الغربية جنوب لبنان. وفي حكومة إسرائيل كثيرٌ من المتدينين، ومن الأحزاب (المتطرفة) ومع ذلك، فهم لا يجدون غضاضة في مخالفة صريح التوراة. مثلما لا يجد المتدينون المسيحيون والمسلمون غضاضةً في مخالفة صريح الإنجيل والقرآن الكريم.

تدعو التوراة إلى الاحتفاء بالإبادة (الهولوكست) ويبتهج النصُّ التوراتى في سفر يشوع بن نون، بإبادته لعشرات الممالك في فلسطين، دون أي رحمة أو شفقة. ولكن كلما أقدم الإسرائيليون اليوم على إبادة الفلسطينين، سرعان ما يتراجعون بعد قتلهم لبضعة آلاف من الفلسطينين والعرب (الكنعانيين) مع أن هؤلاء القتلى لا قيمة لهم أصلًا من ناحية الدين اليهودي، إلا أن قلب المتدينيين يرتجف، وعقلهم يعمل ألف حساب لنقمة العالم على مذابحهم، فيتراجعون وهم المتدينون، عن الأمر الذي يدعوهم إليه الدين.

إذن، الدينُ غير التديُّن ! فالدينُ نصٌ لا ينطق بذاته وإنما ينطق به الناسُ، ويضعون له منطقاً خاصًا بهم يناسب ثقافتهم الموروثة، واتجاهاتهم العامة، وأحوالهم الجدارية ومصالحهم اليومية ولذلك ترى الإسلام في السودان يختلف عنه في ماليزيا، وهو في السعودية يختلف عنه في بنجلاديش، وفي إيران مختلف عنه في لبنان. وهكذا. مع أن أغلبية الناس في هذه البلاد كلها، مسلمون ! صحيح أن الأُطُرَ العامة للدين واحدة، فالصلوات خمس والحج فريضة والشهادة واجبة، إلا أن فحوى التدين ومظاهره الاجتماعية متباينة.

وكذلك الحال في المسيحية، فالشرقية منها غير الغربية. الإنجيل واحد، لكن الأقباط غيرُ الإنجيليين (البروتستانت) بل يتهم كلٌّ منها الآخر، على مستوى التدين بأنه هرطوقي، أو خارج عن حدود (الملة) أو هو على أحسن تقدير: يسيءُ فهم النصوص. وفي اليهودية، حسبما نرى على شاشات التليفزيون، يتعارك المتشدِّدون في الشريعة (حزب شاس، ومايشابهه) مع المتشدِّدين في حقوق الإنسان، مثل حزب ميرتس.. مع أولئك وهؤلاء يهودٌ والكتاب الذي يدينون به واحد، أعني التوراة وملحقاتها من المشنا والجمارا و(التلمود).

من هنا نقول، إن هذا التقرير الأخير الذي شعرنا به بعد عام من صدورو لايتعلق بتمسك المصريين بالدين الإسلامي أو المسيحي، وإنما يتعرض للنمط الاجتماعي (التدين) في مصر، بعيدًا عن أصل الدين السائد. ولذلك، فإننا إذ ننتبه إلى خطورة التقرير، وضرورة النظر في أثر ذلك (الإجماع) التام، الرهيب، المنذر باختفاء التنوع اللازم للتجربة الإنسانية، فإن ذلك لايعني بحال من الأحوال، أننا نقف ضد (الدين) إسلامًا كان أو مسيحية، وإنما نحذِّر من هوجة اجتماعية اسمها التدين، سوف تنقلب قريبًا إلى هياج تام ثم تؤدى إلى أفعالٍ

هوجاء من تلك التي ابتدأ ظهورها في بلادنا، وهي كفيلة بأن تودي بنا تمامًا[1]، وتردنا موارد الهلاك الذي نبّه إليه الحديث الشريف: هذا الدين متينٌ، فأوغلوا فيه برفق .. والحديث: من الناس مَنْ يمرقون من الدين مثلما يمرق السهم من الرَمِيَّةِ! يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم (أي لايصل إلى رؤوسهم).

إن الذي يتعلق بالدين هو الإيمان، بينما التدين يرتبط بمظاهر التعبير. فالأول إخلاصٌ والآخر شكليٌّ، الأول لُبّ والآخر قشر، وقد صرنا ١٠٠٪ قشريين، شكليين، متعبدين بغير إيمان. وشتان بين قلبٍ مفعمٍ بالإيمان واليقين، ولسانٍ زاعقٍ بما هو غير مبين، وليس هو مراد الدين.

التديُّن والديون

الذين نظروا في نتائج الاستطلاع لم يلحظوا الارتباط الخفي بين درجة التدين، وحجم المديونية العامة. ولا يقدح في ذلك أن نسبة التدين في الولايات الأمريكية الجنوبية جاءت عالية، إذ أن أمريكا البلد الأكثر مديونية في العالم وقد كانت مديونياتها الضخمة، أحد أسباب الأزمة الاقتصادية العالمية التي نشهدها مؤخرًا[2]. ومع ذلك، فهناك مؤشرات دالة على مقدرة الاقتصاد الأمريكي على تجاوز الأزمة، وتسوية الديون. فما بالنا نحن في مصر؟ نحن المديونون الذين لا يعلمون مقدار ديونهم (ديون مصر العسكرية غير معلنة)

---

(١) كان نشر هذا الكلام، منتصف العام ٢٠٠٩ بمثابة إنذارٍ مبكر.. ولكن لم يهتم أحدٌ به.

(٢) الإشارة إلى الأزمة التي بدأت بسوق العقارات ثم تفاقمت، عام ٢٠٠٩ وكادت تودي بعدة دول وكيانات اقتصادية كبرى.

ولا يعرفون طريقًا لسداد الدَّيْن (مفرد ديون) إلا الدِّين (مفرد أديان) عسى أن يكون لهم في الآخرة ملاذ أخير.

وللذلك، لم أندهش حين رأيتُ في التقرير أن أقلَّ الشعوب تدينًا، هي "إستونيا، فرنسا، اليابان، سويسرا" وهو الأمر الذي لا يرجع فقط إلى أنها شعوب غنية ومتقدمة وإنما لأنها الأقل ديونًا من بين الشعوب التي جرى عليها الاستطلاع. ومن الجهة المقابلة، جاءت البلد الثانية في درجة التدين، بعد مصر المحروسة (بنجلاديش) وهي ليست فقط دولة فقيرة متخلِّفة، وإنما هي أيضًا مديونة.

وصحيحٌ أن هناك ارتباطًا بين زيادة التخلف، وزيادة التدين (وليس الدين) ولكن هناك ارتباطًا أقوى بين التدين والاستدانة، لأن الاستدانة مهانة، والعجز عن السداد بلاء. ومع المهانة والبلاء، يكون اللجوء إلى التدين الظاهري هو المهرب الوحيد، أملًا منهم في أن يجدوا في الآخرة ما لم يحصلوا عليه في الدنيا. فدُنياهم صارت ديونًا، والآخرة لا قروض فيها ولا عجزٌ عن السداد.

وتبقى هنا إشارةٌ أخيرةٌ إلى أن تقريرًا آخر صدر العام الماضي[1]، ولم يتوقَّف أمامه أحدٌ منا. أعني التقرير الذي احتلت فيه عاصمتنا (القاهرة) قائمة أعلى مدن العالم تلوُّثاً. ولم يحظ هذا الأمر بالاهتمام، لأننا صرنا غارقين تمامًا فيما نحن فيه، فلم نعد قادرين على الانتباه للأخطار المحدقة بنا .. تُرى: مَنْ المسؤول عن هذه الحالة المتردية التي صرنا إليها ؟

---

(١) المقصود سنة ٢٠٠٨.

منظومة القيم

أشرتُ سابقاً إلى الخطر العام المتمثل في اهتراء منظومة القِيَم المصرية خلال الفترة الماضية، وإلى ضرورة الإهتمام بهذه المسألة المصيرية.. ولإيضاح المراد من ذلك، بدقةٍ، نُحدِّد فيما يلي دلالات هذه المفردات الثلاثة (قيمة، منظومة، اهتراء) ليظهر المعنى بشكلٍ أنصع:

القيمة، هي كل ما يُعتَدُّ به ويُعَدُّ من الفضائل الأساسية في حياة الناس، والقيم الكبرى المعروفة منذ القِدَم، ثلاثة: الحق، الخير، الجمال. وتتفرَّع عنها قيمٌ أصغر أو أكثر تفصيلية، قد ترتبط بشكلٍ مباشرٍ بالقيم الثلاثة الكبرى أو تتواصل معها على نحوٍ غير مباشر، لكنها لا يمكن أن تبتعد عنها بشكلٍ تام. مثلما هو الحال في قيم من مثل: الإخلاص (في العمل والحب) الإنتماء (للأسرة والوطن) الصدق (في القول والفعل).. إلخ، وقد أَفَضْتُ في بيان ذلك بإحدى مُحَاضَرَاتِ "سُنَّةُ الفلسفة والمنطق" وكانت تلك المحاضرة عن (فلسفة القِيَم). فمَن أراد معرفة تعريفات "القيمة" وما يرتبط بها من التفاصيل، يمكنه الرجوع لهذه المحاضرة الموجودة بفيديو مرفوع على اليوتيوب.

ومنظومة القيم، هي الإرتباط العضوي (الضروري) بين القيم الكبرى والفرعية. فلا يمكن مثلًا أن يكون الحق قبيحًا أو الخير ظالمًا، ولا يمكن للإخلاص أن يكون مرتبطًا بالكذب، كما لا يمكن للإنتماء أن يكون مُبْتَذَلًا. وهكذا. ويمكن القول، إجمالًا، أن منظومة القيم هي ذلك التناغم القائم بين الأسس التي تحكم حياة وسلوك الإنسان اللائق بصفة الإنسانية، والشخص

الخليق بسمةِ التحضُّر البشري. لأن المنظومة القِيَمِيَّة هي نِتَاجُ ميراثٍ طويلٍ للإنسانية جمعاء، وقد لعبت "الفلسفة" الدور الأهم في صياغة هذا "الميراث".

ويظهر اهتراء منظومة القيم من خلال ذلك التناقض الذي يقع فيه الناس أحيانًا، بين ما هو نظريّ وما هو سلوكيّ، كأن يدعون بلسانهم للمحبة أو يدَّعون أنهم خير الأمم، ثم تنضح قلوبهم بالمَقْتِ وكراهية المختلف، ويودون محو المُخَالِف. أو ما نراه في حياتنا اليومية من تفاوت وخلط في الأحكام على هذا الموظف المُرْتَشِي، لكنه شخص خيِّر! وهذه الفئة المُتَعَصِّبَة، لكنها تمتاز بطيبة القلب! وتلك الراقصة عاهرة، لكنها تُطعم الفقراء في شهر رمضان.. إذ كيف تتوافق "التكافلية" و"الطيبة" و"الخيرية" وهما من القيم الاجتماعية المهمة، مع الرشوة والتعصب والعُهر الذي هو نقيض الإحترام. والنقيضان لا يجتمعان معًا، حسبما يقول المنطق.

وإعادة بناء منظومة القيم المصرية المهترئة، يعني مراجعة ما نحن فيه وما كان منّا طيلة السنوات العجاف الماضية، التي تحوَّل فيها المجتمع المصري إلى حالةٍ مُرِيْعَةٍ من الإنهيار القِيَمِي، بدعاوى عديدة ارتبطت بفترات الحكم المديدة، التي توالت علينا على هذا الترتيب: تعميم التجربة الإشتراكية (الناصرية) مسايرة العصر والانفتاح (الساداتي) الكذبة الشنعاء التي كان يُرَوِّجُ لها نظام (مبارك) ويسميها الإصلاح.. ولهذا الكلام تبيان:

بعد حركة الضباط الأحرار (جدًا) واستيلائهم على مقاليد الحكم السياسي، وبالتحديد بعد العام ١٩٥٤، كان لابد لهم من إيجاد حلول عاجلة لمشكلات الفقر الداخلي والعُزْلَة الخارجية، وكسب مشاعر الجمهور العريض

من البسطاء. فكان الحل "الأسهل" أمام النظام الناصري هو سلب أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء، تحت شعار: تعميم التجربة الإشتراكية. وقد تَطَلَّبَ منهم ذلك، تشويه الزمن السابق على عام ١٩٥٢ والحط من قيمة رموزه ابتداءً من الملك فاروق الذي تمَّ شجبه وفضحه هو وأجداده في أعمالٍ فنيةٍ وأدبيةٍ، منها رواية "فساد الأمكنة" وأفلام طُغمة من المخرجين. وانتهاءً بطبقة البشوات، الذين أشبعتهم سينما الستينيات تجريحًا. وفي المقابل من ذلك، فشت في المجتمع المصري قيمٌ جديدةٌ ما أنزل الله بها من سلطان، مثل: النقاء الثوري، مواجهة الإمبريالية، الفهلوة، الهمبكة .. وغير ذلك من التوجُّهات التي أدَّت إلى خلخلة منظومة القيم السائدة أو التى كانت سائدة في الزمن الملكي السابق.

وفي الزمن الساداتي شهدت مصر آثار (الإنفتاح) أو بالأحرى (الإندياح) التام في الأنشطة الإقتصادية التكميلية، وطفر في المجتمع أثرياء جُدُد كان كثيرٌ منهم من سفلة الناس، وحرامية البحر، وتُجَّار العملة والشنطة.. وقد انعكست أخلاقيات هؤلاء الأغنياء على المجتمع بأجمعه، وتجلَّت في انتشار الفنون الهابطة وشيوع السبهللة والإنتهازية، وهو ما أدى بدوره إلى مزيدٍ من الخلخلة في المنظومة القِيَمِيَّةِ السائدة.

وخلال الثلاثين عامًا المباركية، وخصوصًا في النصف الثاني منها، بلغت البدايات الإنفتاحية أَوَجَّ فُجُورِهَا. نهبًا لثروات البلاد، وصلفًا سلطويًا مقيتًا، وانهيارًا لمفاهيم المعرفة والبحث العلمي، وسخريةً من المتعمقين.. إلى آخر ما عرفناه في الزمن المباركي الأخير، الذي شهد اهتراءًا تامًا في المنظومة القيمية العامة، ولم تفلح الإتجاهات الدينية في إرساء منظومة قيم بديلة، لأن هذه

الإتجاهات كانت تخضع لأهواء أصحابها في المقام الأول، ولم تهتم بالجوانب الفكرية والثقافية وإنما وجَّهَت جُلَّ اهتمامها لاجتذاب الأتباع.

وخلال هذه الأعوام الستين، ظلت منظومة القيم المصرية تتأرجح وتتساقط على النحو الذي عبَّر عنه كبار الفنانين في أعمالهم، وصرخ به الشعراءُ في قصائدهم، ونزف به الأُدَبَاءُ في نصوصهم القصَصِيَّةِ والرِوَائِيَّة. ناهيك عن الجَهْدِ الكبير الذي بذلته الطبقة الوسطى (المتآكلة) للحفاظ على التوازن الأخلاقي في المجتمع. غير أن ذلك سمه، أو بالأحرى معظم ذلك، ذهب سُدى.

ولما اهتاجت البلاد في السنوات الأخيرة، بالثورات، انفجر كل ما كان مكبوتًا تحت السطح. وظهر الإهتراء القِيَمِيّ واضحًا في سلوك كثير من المصريين؛ فمنهم من أهمل عمله ودوره الإجتماعي، بدعوى أنه ناشط سياسي، ومنهم من تفرَّغ لانتقاد القاصي والداني، رفيع القدر والوضيع، الظاهر في المشهد العام والمستتر؛ بدعوى أن الثورة لا بد لها أن تكتمل (كأن الثورة كانت سبيلًا للتفريج عن العُقد النفسية المُزْمِنَة) وهناك أمثلة لا حصر لها، تدل بشكلٍ مُبَاشِر على درجة الإنهيار القِيَمِيّ الذي وصل إليه كثيرٌ من الناسِ في مصر في الفِتْرَةِ الأخيرة. علمًا بأن انهيار القيم لا يعني فقدان غالبية الناس لها، إذ يكفي أن تتخلى نسبة صغيرة من المصريين عن المنظومة القِيَمِيَّةِ، كي يهترئ الحال العام.. ولسوف نحدِّد المسألة أكثر، بتلك النقاط التالية:

الصدق

أعتقد أن الناس في بلادنا قد ملَّتْ تمامًا من هذه الكلمة، ومشتقاتها، بسبب ابتذال معناها مع كثرة استعمالها، ومع دوام المخايلة بها. ولعلهم في ذلك معذورون. ففي سنوات مبارك الثلاثين، والسنوات التالية عليها، استعمل المخادعون مفردات "الصدق" ومَثَّلوا أحواله، حتى صار صدقُ هؤلاء مرادفًا للكذب.. أذكرُ أن شخصًا عرفته طيلة عشر سنوات، كان لا يَكُفُّ دومًا عن ترديد عبارة: "مهما كانت عيوبي، لكنني لا أكذب أبدًا". وكان لا يتوانى كل حين عن الإستشهاد بعبارة إبراهام لينكولن الشهيرة: يمكنك أن تخدع الناس كلهم بعض الوقت، أو بعضهم كل الوقت، لكنك لن تستطيع أن تكذب على الناس كلهم، كل الوقت.. ولما دارَ الزمانُ دورته وانكشف المستور بعد الهزَّات الشديدة التي أعقبت ثورة يناير ٢٠١١ ظهر للجميع أن هذا الرجل، وغيره كثيرون ممن كُنَّا نُحسِنُ الظَنَّ بهم، هو مجرد قشرة من الكذب تُغَطِّي كياناً كاذبًا (أشرًا) ليس فيه إلا الزيف المُغَلَّف بالزيف.

ولا يمكننا أن نستوفي الكلام عن منظومة القِيَم، إلا بالوقوف طويلًا عند "الصدق". ليس فقط لأنه يمثل قيمة مُختَارَة ومدعومة بالموروث الإنساني الطويل، العقلاني والديني. وإنما أيضًا، لأن الصدق هو القيمة المؤكِّدة لبقية القِيَم؛ فابتداءً من القِيَمِ الثلاث الكبرى أو ما نسميها القِيَمِ العليا: "الحق، الخير، الجمال" ومرورًا بسُلَّمِ القِيَمِ الفرعية المُشْتَقَّة منها والمُتَدَاخِلَةِ معها، لا يمكن أن تصحَ أي قيمةٍ إلا بالصدق. وإلا، كيف سيكون الحقُّ حقًا لو كان

مشوبًا بالكذب! بل إن "الحق" هو نقيض "الكذب" الذي هو نقيض "الصدق" يعني أن الحق والصدق، تقريبًا، هما عملة واحدةٌ لها وجهان مختلفان.

وكذلك الحال في القيمة العُلْيَا الثانية "الخير" فهي الأُخرَى لن تقوم ولن تَصِحَّ، إلا إذا زيَّنها الصدقُ. انظرْ إلى تعاسة المسعى، عند هذا الشخص الذي يفعل الخير رياءًا أو بحثًا عن المديح أو ذرًّا للرماد في العيون، كيلا ترى الناس معايبه. كيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يكون خَيِّرًا، وأيُّ خيرٍ ذاك الذي يمازجه الكذب؟

وللصدق جمالٌ هو أيضًا شرط من شروطه، فلا يكون الجميل جميلًا وهو كاذب. ولن أزيد في بيان هذا الأمر، لوضوحه، وكيلا تغضب العجائز من "الفنَّانات" اللواتي صرن يُسرِفْنَ في تزييف جمالهنَّ، وصرنا نَرَاهُنَّ على الشاشاتِ مُنْتَفِخَاتِ الخدود والإستدرات، ومُلَطَّخاتٍ بقواقعِ الألوان.. وذِكر "الشاشات" يقودنا إلى نقطة مُهِمَّة، هي: الصدق الإعلامي.

انتشر مُؤَخَّرًا تعبير "الإعلام الفاسد" وهو صيغة دعائية استخدمها الإسلاميون الذين كانوا يحكمون، أو يتحكمون بُحكم قُربهم من الحاكمين (الإخوان) لإدانة القنوات التلفزيونية المُعَارِضَةِ لهم. وكانوا في الوقت ذاته، يروِّجون لإعلامهم الديني (أو بالأدق إعلامهم الكذَّاب باسم الدين) ويشجِّعون القنوات المروجّة للأشد إفسادًا، كالمطالبة بزواج البنات ما دامت الطفلة تطيق النكاح.. وبالمناسبة، هذه الفتوى البائسةُ مضحكةٌ من حيث فصيح اللغة، لأن "تُطِيْقُ" تعني "لا تقدر" وهو عكس المعنى الذي يريده صاحب الفتوى. وبعيدًا عن هذا اللَّغَطِ الديني والسياسي، واستكمالًا للكلام عن قيمة الصدق، أقول

ببساطة إن الإعلام اليوم معظمه كاذب. ولهذا القول تفصيلٌ وتوضيحٌ، نُلَخِّصُهُ في السطور التالية.

للإعلام في بلادنا أنواعٌ ووسائلُ أهمها ثلاث: التلفزيون، الصحف، المواقع الإلكترونية.. وهناك بالطبع وسائل أقل مما سبق تأثيرًا، مثل الإذاعة المسموعة والمنشورات الدعائية محدودة العدد وإعلانات الشوارع.. وهذه كلها وسائل "إعلام" لكن الثلاثة الأُوَل هي الأكثر تأثيرًا وانتشارًا، ولذلك سيكون كلامنا التالي عنها تحديدًا، وعن حالها الحالي.

هناك إعلامٌ حُكُومِيّ (تلفزيوني وصحافي) وإعلامٌ خاصٌّ يملكه ويتحكم فيه أشخاصٌ هم أصحاب الجرائد والقنوات، والقائمون بتمويلها والإنفاق عليها. وخلال ستين عامًا من التوجيه السلطوي للإعلام الحكومي (الإرشاد) ثم ثلاثين عامًا من الكذب المُرِيْع، ثم بضعة أعوام من الفضيحة. صار الإعلام الحكومي بلا قيمةٍ تُذكَر، ولا تأثير له إلا في أضيق الحدود، وهو ما يظهر في قول الناس في بلادنا، ساخرين: هذا كلام جرائد! وإذا سألت أحد المصريين اليوم: هل تتابع قنوات التلفزيون الحكومية؟.. فسوف يضحك من سؤالك، وقد يشك في قُوَاكَ العقلية.

أما الإعلام الخاص، فهو عينُ الكذب! ولعله في كذبه معذورٌ. ليس فقط لأنه مُمَوَّلٌ من شخصٍ أو جِهَةٍ أو دولةٍ، أو دُوَيْلَةٍ، وبالتالي فهو بوقٌ لأصحابه وصامتٌ دومًا عن مخازيهم، ولكن أيضًا لأن معظم العاملين فيه، وليس كلهم بالطبع، هم أشخاصٌ تَرَبَّوا وترعرعوا واشتهروا في هذه السياقات الكاذبة، أصلًا.. ومعلومٌ أن معظم القنوات التلفزيونية والجرائد الخاصة، تخسر ماليًا،

وتسعى لتقليل خسارتها بالإعلانات التي هي الهَمُّ "الثاني" لهذه الوسائل الإعلامية (الهَمُّ الأول، هو أغراضُ المالك) فإذا اقترن هذا الهَمُّ وذاك، ازداد التلاعب بالمشاهدين الذين لا يدركون كمية التلاعب الإعلامي بالعقول، ابتداءً من الصيغ التي تُنشر بها الأخبار، وانتهاءً بالإغراق في التفاهة حتى تصير سمة عامة لمجتمع يلاحق التوافه والتافهين وينفِرُ شيئًا فشيئًا، من العمق والصدق والجدية، و"يُطِيْقُ" القِيَم.. يُطِيْقُ، بالمعنى الفصيح للكلمة!

وكل كلامٍ يُقَالُ حاليًا عن "إصلاح" المنظومة الإعلامية والإرتقاءِ بها إلى "الصدق" والموضوعية، هو مجرد خداع؛ لأن الإعلام الحكومي اهترأ من داخله، وداخَلَهُ من الفساد ما لا يمكن علاجه ولو على المدى البعيد. والإعلامُ الخاصُ، خاصٌ بالأهداف الخاصة لأصحابه ومُمَوِّلِيهِ. ولا يمكن أن نتوقع من هؤلاء أن يكونوا رُعَاةً للعقلِ الجَمْعِيّ ودُعَاةً للقِيَمِ المُجْتَمَعِيَّة، لأنهم في نهاية الأمر رجالُ مالٍ وسياسةٍ. والمالُ والسياسةُ لا طاقة لهما بالقِيَم، ولا احتمال عندهما للعقلانية. إلا فيما ندر.

فما الحل، إذن؟.. أعتقدُ أن الذي يحتاج إصلاحًا وإدراكًا لقيمة الصدق، ولأهمية الموضوعية، هو "الجمهور" الذي يَتَوَجَّهُ هذا الإعلامُ إليه، ويتلاعب بعقله. والإرتقاء بالجمهور هو الذي سيُجبرُ الإعلام على الإرتقاء كي يصل إلى الجمهور، أو يسقط من تلقاء نفسه.. ولا شك عندي في أن الأرتقاء بجمهور الناس هو مَهَمَّةٌ عَسِرَةٌ، لكنها السبيلُ الوحيد.

الإصلاح

"المعيار" الذي يتم به تحديد ما هو "قيمة" معيارٌ بسيطٌ واضحٌ كشمس النهار في الصحراوات، فالقيمةُ هي الشيء الذي يجعل الفرد المستمسك به موصوفًا بالفضيلة، وإذا تخلى عنه أو ابتعد صار موصوفًا بالرذيلة. وكذلك الحال في شأن الجماعات والمجتمعات. والبونُ شَاسِعٌ بين الفضائل الواضحة والرذائل الفاضحة، وفقًا لما أشار إليه المؤلف المصري القديم، الذي عُرِفَ بلقب "الوطواط" في عنوان كتابه: غُرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة.

والقيمَةُ شأنٌ إنسانيٌّ لا ينطبق إلا على النوعِ البشريّ، تحديدًا، حتى وإن اتَّصَفَت بعض الحيوانات بخصائص واضحة قد تُسمَّى "فضائل" على سبيل المجاز، كما هو الحال في إخلاص "الكلاب" لأصحابها. فذلك لا يعني كون الكلب صاحب "فضيلة" أو مستمسك بقيمة، وإنما هو في واقع الأمر صاحب "طَبْعٍ" خاص، فهو يُخْلِصُ بالطبع لا بالإختيار وليس بمقدوره الإستمساك بهذا الإخلاص، أو التخلّي عنه، مثلما هو الحال في الإنسان الذي قد يحافظ على إخلاصه فيصير فاضلًا، أو يخون فيتصف بالرذيلة والنقيصة الفاضحة.

وعلى ما سبق، فالقِيَمِ هي تصوُّراتٍ ذهنيةٍ وقواعدُ عقلانية، يتميز بها البشر على وجه الخصوص ولا تتوفّر في بقيَّة الكائنات الحية، بل هي ما يفترق به الإنسانُ عن أنواع الحيوان. ولذلك، طالما اهتم المُفَكِّرُونَ والفلاسفة ببيان طبيعة "القِيَم الإنسانية" وتبيان أهميتها للفرد والجماعة.. ومن أهم القِيَمِ المؤديةِ إلى الفضائلِ الإنسانية، أن يكون الشخصُ "مُصلِحًا" مهما كان من اتساع المساحة التي يُمارس فيها فعل الإصلاح. ولا تكون الجماعة الإنسانية "فاضلة"

إلا إذا كانت تُعني بالصلاح والإصلاح، وهو معنى الآية القرآنية ذات الصِبْغَةُ (الشرطِيَّةُ) التي يغفل عنها كثيرٌ من الناس { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلْنَاسِ، تَأْمُرُوْنَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ } وهي الآية التي يمكن فهم معناها بوضوح بصياغتها دون تقديم الحكم وتأخير الشرط، بحيث تكون: "إن تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، تكونوا خير أمة أُخرجت للناس".. أي أن حُكم الخيرية، تابعٌ مشروطٌ بالأمر بما هو صالح والنهي عن الفاسد.

وقد اهترأت معاني هذه القيمة "الإصلاح" وتم ابتذال لفظها ومدلولاتها، بسبب الإسراف في استعمالها ببلادنا في السنوات التي سبقت ثورة يناير ٢٠١١ مراعاةً لبعض المتغيرات الدِوَلِيَّة والإستجابات الداخلية، المُراوغة. فقد نصحت الإدارة الأمريكية نظام مبارك بعد فضائح الإنتخابات البرلمانية بمصر سنة ٢٠٠٥ بأن يُجرى تعديلاتٍ أساسية في البناء السياسي، ويُعِيْدُ توازناتَ القُوَى بما يتناسب مع رؤية ومصالح الأمريكيين، ويضمن أيضًا بقاء حليفهم مبارك. وكان نُصْحُهُم هذا يتم سِرًّا وعلانية، وتعكسه أحيانًا بيانات الإدارة الأمريكية المُصَرَّح بها على الملأ. وكانت كلها تدور حول محورٍ واحدٍ ومطلبٍ أساسيٍّ من الحكومة المصرية، هو بحسب اللفظة الإنجليزية التي استعملها الأمريكيون Re-Form وكان من الواجب علينا ترجمتها "إعادة صياغة" أو " إعادة تشكيل " لكن نظام مبارك ترجمها: الإصلاح.

وعلى الطريقة المصرية المعتادة، المعتادة على "الزَفَّة" انتشرت فجأة بعد العام ٢٠٠٥ مُفْرَدَاتُ كلمة الإصلاح بالصُحُف والمهرجانات الإعلامية، ثم تَوَّجَت الحكومة الهَرَجَ السياسيَّ بمؤتمراتِ الإصلاح التي انعقدت بمكتبة الإسكندرية، لعدة سنوات، وتم إنفاق الملايين عليها. وكان "مبارك" يفتتحها

بنفسه لتأكيد اهتمامه بالموضوع، أو بالأحرى تأكيد الحرص على تمييعه وابتذال مضمونه.

وكانت نتيجة هذا الهرج، ما رأيناه من سقوطٍ مُرَوِّعٍ لنظام مبارك ومن وقوف مصر على حافة أخطارٍ لا حصر لها، لأن الفساد ازداد تحت مِظَلَّةِ "الإصلاح" الذي كان أصلًا مُخايَلَةً ومُخاتَلَةً للداخل والخارج، ولم يشهد الناس في الواقع أيَّ فعلٍ إصلاحيّ. ومع تكرار المَرَار، صارت كلمة (الإصلاح) تُثِيرُ في نُفُوسِ الناس النقَزُّزْ، وتوصلهم إلى اليأس العام العارم الذي كان أحد أهم مثيرات الثورة التي أطاحت بمبارك وحطَّمت حلمه في توريث الحكم لابنه.

وعلى صعيدٍ آخر، أخطأ كثيرٌ من مؤرخينا الذين لا يؤرِّخون وباحثينا الذين لا يبحثون، حين وصفوا حركات الإسلام السياسي المُبَكِّرَة بتسميةٍ مُرَاوِغَةٍ، فقالوا "تيار الإصلاح الديني" قاصدين بذلك تلك الحركة السياسية التي ابتدأت مع "الأفغاني" واغتيل بسببها شاه إيران، ثم تطورت في مصر على يد "محمد رشيد رضا" الذي خرجت من عباءته جماعة الإخوان المسلمين التي أفرزت بالقرب منها "جماعات إسلامية" مُتَعَدِّدَة جعلت نفسها فقط (الإسلامية) دون بقيَّة المجتمع المصري.. ومن يومه الأول حتى يومنا هذا، لم يُقَدِّم "تيار الإصلاح الديني" أي إصلاح! ولم تتجلَّ آثاره إلا على هيئة الإغتيالات (شاه إيران، النقراشي.. إلخ) والتقافز على السلطة، والعَنَت مع المخالفين وتكفيرهم أحيانًا، ناهيك عن تفتيت البلاد سعيًا لإقامة "الخلافة" التي ستكفُلُ لهم أن يكونوا فيها، هم الخلفاء والسلاطين والأمراء والمسؤولون الكبار والمستولون على المقاليد. ومع هذه الدواهي، أضحى لفظ "الإصلاح" دينيًا أو حكوميًا، بلا دلالة، أو صارت له دلالة سلبية.

لكن هذه الألعاب السياسية والتحريفات الدلالية، لايجب أن تصرفنا عن إعادة النظر لاستعادة الدلالة الأصلية للمفردات، ومن ثمَّ معاودة تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية دون مُخَايَلَاتٍ سياسيةٍ وسُلْطَوِيَّةٍ.. لأن (الإصلاح) في حدّ ذاته، قيمةٌ أساسيةٌ لازمةٌ للحفاظ على المجتمع والإرتقاءِ به، ولا غنى عنها بحالٍ من الأحوال.

التناغُم

وردت الإشارةُ سابقًا إلى أن هناك قِيَمًا ثلاث كُبْرَى، هي القِيَمِ العُليا: الحق، الخير، الجمال. وتتصل بها وتُشتقُ منها، قيمٌ أخرى فرعيةٌ قد لا تكون في المرتبة ذاتها، والأهمية، لكنها تدخل مع القِيَمِ العُليا ومع بقيَّة القِيَمِ في منظومةٍ واحدة مُتَرَابِطَةٍ فيما بينها.

وهذه المنظومة القِيَمِيَّةِ ليست تَرَفًا نَظَرِيًّا أو مفاهيم مُجَرَّدة، ولكنها سِمَةٌ ضروريةٌ لوجود المجتمعات الإنسانية وبقائها، وهو المعنى الذي تمَّ التعبيرُ عنه بشكلٍ إجماليٍّ في البيتِ الشعريِّ الشهير: "إنما الأمَمُ الأخلاقُ ما بقيت، فإن هُمُ ذَهَبَتْ اخلَاقُهُم ذَهَبُوا".. وهو كلام يحفظه معظم الناس في بلادنا لأنه كان مُقَرَّرًا دراسيًا، لكن كثيرين منهم لا يدركون دلالته العميقة التي تجعل الأخلاق شرطًا لحياة الأمم، بل شرطًا أساسيًا ومحوريًّا، من دونها يستحيل العيش في المجتمع.

يلزم لكل مجتمعٍ إنساني، ضوابط تحكم حركة أعضائه والتفاعلات المستمرة دومًا بينهم، كإطارٍ مرجعيّ. ومن هذه الضوابط ما هو "رسميّ" كالقانون المكتوب والدستور، وما هو غير رسميّ كالأعراف والتقاليد

والأخلاقيات العامة. وهذه الأخيرة، هي الأكثر تأثيرًا وفعالية في الحياة اليومية. ومن غير الممكن أن تقتصر أدوات الضبط الإجتماعي على الجانب "الرسميّ" منها، فقط. بل يمكن القول إن غياب الضبط الرسمي، على الرُغم من أهميته، هو أمرٌ أقل خطورة من اهتراء وعدم انطباق أدوات الضبط الاجتماعي "غيرُ الرسمية".. فهذا الاهتراء وعدم الانطباق يُنذِرُ بسقوط المنظومة القِيَمِيَّةِ التي تترتّب عليها سلوكياتُ الأفراد في تفاصيل حياتهم اليومية، ويُضعِف وسائل العقاب العرفي (الإجتماعي) لهؤلاء الخارجين عن منظومة القيم، وأولئك المتحلّلين منها، وهي وسائل عقابية متعددة المستويات، منها: الإستهجان،الاجتناب، المقاطعة، التعبير، الوصم بالعار.. وهي لا تقلّ فعالية وتأثيرًا عن العقوبات القانونية والأحكام القضائية (الضبط الرسمي)، وربما تكون في بعض الأحيان أشد منها قسوةً وإيلامًا من الحبس والإعتقال والإبعاد عن المنصب والرفت والخصم من الراتب، وغير ذلك من الأحكام القضائية والقرارات الإدارية ذات الطابع "الرسميّ".

وعلى ما سبق، فإن كلامنا عن (المنظومة القِيَمِيَّةِ) هو عملٌ ضروريٌ يأتي في إطار، بل في مقدمة، السعي إلى بناء المجتمع على أُسُسٍ سليمةٍ. وقد رأينا في الفترة التي أعقبت ثورة يناير ٢٠١١ كيف احتملت مصر لعدة أشهرٍ، سقوط وسائل الضبط الرسمي "الشرطة، القضاء، اللوائح المؤسساتية" ومع ذلك لم يتعرَّض المجتمع المِصري للهزَّات الشديدة التي رؤعت البلاد والعباد بسبب اهتراء وسائل الضبط غير الرسمية وانهيار المنظومة القِيَمِيَّة. إذ سادت في المدن وقائع التحرُّش الفاحش، والإغتصاب، والسرقة بالإكراه، والعَمَالَة السياسية لصالح من يدفع للعملاء، والزعيق السياسي الكاذب، ونهيق الداعين

إلى معارك وهمية منها ضرورة تحرير المسجد الأقصى، الجريح! وهكذا قادت تلك "الخلخلة" في منظومة القيم، إلى كثيرين بأسًا في الدعوة إلى إسقاط أركان الدولة، للحفاظ على أوهام "الشرعية" القائمة على أوهام "الخلافة" القائمة على خُدَعٍ لا حصر لها. وهي خُدَع تم ترويجها في عقول بسطاء الناس استغلالًا لجهلهم وعدم قدرتهم على التكفير المنطقي والجدلي (الفلسفي) وهو الأمر الذي شهدنا آثاره المُدَمِّرَة على الدين والدنيا، معًا.. مع أن هذه "الدواهي" لم تظهر في الأشهر الأولى لثورة يناير ٢٠١١ وهي الفترة التي شهدت غيابًا شِبه تامٍّ لوسائل الضبطِ الرسميّ، وهو ما يؤكد خطورة الوسائل غير الرسمية للضبط الإجتماعيّ، وضرورة تناغم القِيَمِ في المجتمع.

وإذا كان "التناغم" شرطًا أساسيًا لكل منظومةٍ قِيَمِيَّةٍ، فإنه في حدِّ ذاته يُمثِّل قيمةً مُهِمَّةً لا غِنَىً عنها في أيِّ مجتمع. وكان فيثاغورس يقول "العالم عدد ونغم" قاصدًا بالنغم الحالة (الهارمونية) التي تربط بين أجزاء الأشياء، ولولاها ما وُجدت هذه الأشياء أصلًا. ولكانت قد بقيت في مرحلة "الكاؤس، الكيوس"وهي المرحلة المُعَبَّرُ عنها بالفوضى الأولى أو "العماء" حيث كان الإختلاطُ الفوضويُّ للمادة قبل إيجاد هذا العالم.. وفي الحديث الشريف، سُئل النبيُّ: أين كان الله قبل أن يخلق هذا الخلق؟ فقال: في عماءٍ، ما تحته هواء وما فوقه هواء.

التناغم إذن شرطٌ من شروط "الوجود" وهو أيضًا شرطٌ لازمٌ لفاعلية منظومة القيم، وهو كذلك "قيمة" في ذاته. إذ لن تصح الحياة في مجتمع لا يعرف روحَ الفريق، ويسير فيه كُلُّ فردٍ وكُلُّ جماعةٍ في اتجاه، لأن ذلك يقود بالضرورة إلى الحال المُزري الذي عَبَّرَ عنه الشاعِرُ القديم بقوله: متى يبلغ

البنيان يومًا تمامه، إذا كنت تبنى ثم آخر يَهْدِمُ.. ومَن كان لديه شكٌّ في ذلك فلينظر كم من مشروعاتٍ مصريةٍ ومبادراتِ مُبهرة وخُطَطٌ طَمُوحَة، فشلت بسبب عدم تناغم الحكومات المتتالية (مع أن المبدأ السياسي العام يقول: الحكومات المُتَعَاقِبَةُ مُتَضَامِنَة) وكم من مؤسسة انهارات لأن رئيسها الجديد أراد إثبات أنه يختلف عن سابقه (مع أنه لولا السابق ما جاء اللاحق) وكم من افكارٍ أُهمِلَت حتى انطوت وشخصياتٍ مُبَشِّرَةٍ انزوت حتى انطفأت، لأنها لم تجد بيئةً مُتَنَاغِمَةً معها وحاضنةً لها.

إن فعل الفرد في المجتمع، وفِعْلُ الجماعاتِ أيضًا، إذا انطَلق من ذاته وعاد إليها من دون مراعاةٍ لإيقاع المجتمع، أو تناغمٍ مع فعل الآخرين. فهذا نذيرٌ بالتراجع الجماعي، والتدهور، والإهتراء، وشيوع الفوضى. فينتهي هذا الحالُ إلى دفع المجتمع إلى حافة الهاوية السحيقة التي سقطت فيها دُوَلٌ كانت كبيرة، مثل العراق وليبيا وسوريا واليمن.

الحب

بعد تداعيات التمرُّد على حُكم الإخوان، ثم إزاحتهم، شاعت بأنحاء مصر حالةٌ مُرِيْعَةٌ تنوَّعت فواجعها. وكان من بينها: إلقاءُ الصبيان من فوق الأسطح، السُبابُ الرقيع على شبكة التواصل الاجتماعي (الفيسبوك) المواقع الإلكترونية الموجهة، القتلُ العشوائيُ في الشوارع، الشتائمُ المقذعة على الجدران والحوائط، انفلاتُ أَلْسنةِ الإعلاميين (على الهواء). وغير ذلك من الظواهر التي دعتني آنذاك لكتابة عدة تحذيرات كان من بينها "إشارة" على صفحتي الفيسبوكية المُحْتَشِدَةُ بالمتفاعلين، نَصُّها: مِصْرُ صارت وطنًا للكراهية

والمقت.. ولأنني أؤمن بأن أعراض الأمراض تُعالج بأضدادها، فقد فتحتُ آنذاك نافذةً جديدةً على صفحتي المُشَارُ إليها، للتعامل مع الحالة السائدة على قاعدة العلاج بالضدّ، وأسميتُ هذه النافذة "فقه الحب" ورُحْتُ من خلالها أصوغ بلاغيًا تلك المعاني والمشاعر الغائبة عن الوجدان العام، لتوجيه الأنظار إلى هذا الأفق المفقود الذي لا يمكن إذا اندثر، أن يظلّ الإنسانُ إنسانًا.

وأيامها، راسلني أحد أصدقاء صفحتي متسائلًا عن نقطةٍ دقيقةٍ وقائلًا ما مفاده أنه سمعني في إحدى ندواتي بصالون القاهرة، أقول إن الحب اختراعٌ مصريٌّ قديم. فكيف أتوغَّل في مفاوزه عبر نافذة "فقه الحب" وأُحلِّق بالقُرَّاءِ في سماواته العُلى! ولما هممتُ بالرَدِّ عليه، هناك، بدأتُ كلامي من دونِ قصدٍ بهذه العبارة: الحب قيمة كبرى.. لكن الكلام استطال، فتوقّفتُ، ورأيتُ الأنسب أن يكون الكلام مُفَصَّلًا وفي إطار حديثنا عن (منظومة القِيَم).

* * *

هل الحبُ قيمةٌ؟.. هذا سؤالُنا الأول، الذي يعود بنا بالضرورة إلى "الأصول" الأولى للحضارة، يعني إلى مصر القديمة. وصحيحٌ أن مصر القديمة لم تضع أصول الحضارة جميعها، وحدها، وإنما تزامن ذلك مع البدايات السومرية بجنوب العراق ومع البواكير الصينية والهندية بأقصى الشرق الآسيوي، ولكن البصمة المصرية في وجدان الحضارة الإنسانية كانت أوضح وأشَدُّ ظهورًا، بسبب التواصل الحضاري وانتقال مشعل الحضارة على التوالي من الزمن المصري القديم، إلى اليوناني القديم، إلى العربي الإسلامي، إلى الأوروبي الحديث والمعاصر.. وفي خِضَمِّ التأسيس المصري المُبَكِّر للمجتمع الإنساني

(قبل عصر الأسرات) ظهرت تصوُّرات مصرية مُبتَكَرَة، لم نجد مثيلًا لها في ذاك الزمان عند غير المصريين.

فمن ذلك "التأسيس" سماتٌ إنسانيةٌ جوهريةٌ صارت اليوم معلومة لكل البشر، وكانت مصر القديمة أول مَن اخترعها وآمن بها، مثل "الضمير" كما أوضح "هنري برستيد" في كتابه الشهير: فجر الضمير.. ومثل الحب حسبما ظهر في كتاب العلّامة سليم حسن: الأدب المصري القديم.. ومثل الإعتقاد بوجود عالم آخر يُحاسب فيه الإنسان بعد موته (لم يستعمل المصري القديم لفظ "الموت" وإنما عَبَّرَ عنه بقوله: الخروج إلى النهار) وغير ذلك من التصورات المِحْوَرِيَّةِ كالثالوث المؤلّه، والتاسوع المُقَدَّس، وطاقة الشكل الهرمي، وقداسة الأنثى، وضرورة تطهير الذَكَر بقطع جزءٍ من ذَكَره ليتأهَّل للاقتران بالمرأة التي هي صورة الربَّة المعبودة "إيست" التي صرنا اليوم نُسمّيها: إيزيس.. وهو النطق اليوناني لاسمها.

وعلى ما سبق، فقد قدّمت مصر (اخترعت) للإنسانية الحب، وجعلته أصلًا من أصول التحضُّر الإنساني والرُقِيُّ البشريّ، عبر ما لا حصر له من عملياتِ الدعم الإجتماعيّ للفكرة، والتعبير عنها بصورة أدبية تثير الخيال (ولا حب، إلا بحضور الخيال)، ولذلك كانت أول نصوصٌ عن "الحُبِّ" هي ما جاءت في الأدب المصري القديم.. وهو ما تطور بعد ذلك في الأزمنة التالية، وتفنّن فيه الفنّانون وأبدع الشعراءُ، واستهوى الراقية مشاعرهم من بني البشر في كل مكانٍ وزمان .

ولأن مصر هي التي قَدَّمَت للإنسانيةِ هذا المفهوم لأول مرة، فقد رأيتُ أنه من الواجب على المصريين أن يتوغَلوا في "فقه الحب" ليتواصلوا مع ذاتهم الغائبة عن وعيهم، وليعصموا أنفسهم من متاهات الكراهية والمقت الذي تعود بالناس إلى الحالة البدائية الأولى، العنيفة، التي سادت طويلًا قبل وضع أُصُولِ وأُسسِ الحضارة. وبالمناسبة، لا تزيد فترة الحضارة الإنسانية على هذه الأرض، عن عشرة آلاف سنة (أو سبعة، في قولٍ آخر) بينما يعيش النوع البشري على هذا الكوكب المسمّى الأرض، منذ قُرابة مليون سنة.. فتأمّلوا .

هل للحبِّ قيمةٌ؟.. لا نريد التطويل في إجابة هذا السؤال الآخر، إذ يكفي أن نُوْرِدُ إشاراتٍ سريعةٍ إلى اعتقادِ فلاسفة اليونان القدماء، وقولهم بأن المبدأ الذي يتحكّم في العدم والوجود أو يُفَرِّقُ بين المعدومِ والموجود، هو: الحب والكراهية.. فبالحب تجتمع الأشياء (الذرات) وتتشكّل الموجودات فتخرج من العدم، وبالكراهية تفترق عناصر الأشياء وينتفي وجودها فتعود إلى العدم.

ولتأكيد قيمة الحب، تكفي الإشارة إلى المفهوم المسيحي (الله محبة) وإلى أولى مواعظ السيد "المسيح" المسماة موعظة الجبل، وهي التي كان موضوعها "المحبة".. وقد تكفي الإشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم من تأكيد "الحب" بين العبد وربه (الله يحب أولًا، بنَصّ الآية: يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وهو ما تبحَّر فيه الصوفية ابتداءً من رابعة العدوية، وانتهاءً بكبار الأولياء الذين قالوا بوضوحٍ تام: المحبةُ آخرُ درجةٍ من درجات العلم، وأولُ طورٍ من أطوار المعرفة.. ومن هنا يمكن القول بأن التراث الإنساني عمومًا، يدعم بنسب متفاوتة مفهوم "الحب" ويؤكِّده، بما لا يدع مجالًا للشكّ في قيمة الحب

بأطواره المختلفة، التصاعدية: الإعجاب، الشغف، الحب، العشق، الصبابة، الوَجد.. وتجلياته المختلفة، المتماسّة أحيانًا والمُتَدَاخِلَة مع الرغبات البشرية والغرائز الفطرية: الأمومة، روح الأبوة، شغف النوع بالنوع الآخر، الإرتواء الحسّي.

وهكذا صار الإختراعُ المصري القديم (وقد نُخفّف وقع الكلمات، فنقول: الإبتكار المصري القديم) قيمةً إنسانيةً لا غِنَى عنها في أيِّ مجتمع. ومن لديه اليوم شكٌّ في قيمة الحب، فهو على أحسن تقدير: لا يعرف معنى الإنسانية.. وعلى أسوأ تقدير، هو لا يستحق وصف "إنسان" [1].

المعرفة

من خصائص "القيمة" أنها تستمد أهميتها من ذاتها، وليس من شيء خارج عنها. وبصرف النظر عن نتائجها. فالحق قيمةٌ كبرى، حتى لو أدى قوله في بلاط سلطانٍ جائر، إلى التنكيل بقائله. ومن هنا، فإن سطوة وإفراط البطّالين الباطشين لا تجعل من الباطل حقًا، ولا من الشر الذي يفعلونه خيرًا، ولا من قُبح أعمالهم جمالًا. وكما قال قدماؤنا: الحقُّ حقٌّ في نفسه لا لقول الناس له (العبارة لابن النفيس). وقالوا: لا تعرف الحق بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله (العبارة منسوبة للإمام عليّ). وقالوا: الحق مطلوبٌ لذاته (عبارة ابن الهيثم).

---

(١) صدر كتاب "فقة الحب" عن دار الرواق .. أواخر سنة ٢٠١٥.

القيمة إذن، هي كل ما يكون مطلوبًا لذاته بصرف النظر عن تجلياته ونتائجه، وبالتالي فإن القيمة "مُفارقة" للواقع بالضرورة، وهو ما يعني أن أهميتها لا تتوقف على التطبيقات. وهي بالضرورة أيضًا "مُطلقة" بمعنى أنها ليست مرهونة بنتائجها، على النحو الذي قرَّره فلاسفة البراجماتية.. وبالمناسبة، فإن المعنى الفعلي للبراجماتية يظلمه كثيرون ممن لا يعرفون معناه، فيظنون أنه يُرَادِفُ "المصلحة" بالمعنى السطحي للكلمة. لكن هذا الأمر يحتاج توضيحًا، ليس هنا موضعه.

وبخصوص قيمة "المعرفة" لابد لنا من التفرقة بين العلم والمعرفة، والإنتباه إلى أن الفارق بينهما هو بالدرجة لا بالنوع، فالإدراكُ الإنساني إذا تَعَمَّق صار علمًا، والعلمُ إذا تم التوغُّل فيه صار فقهًا ومعرفةً. فالمعرفة معنى أعمق وأعَمُّ من العلم، وأشمل، ومن العجيب أن حكوماتنا في الزمن الملكي كانت من بينها وزارة "المعارف" التي انقلب اسمها في زمن الضباط الأحرار جدًّا، إلى وزارة "التربية والتعليم" فلما غاب عن أذهاننا أن المعارف أشمل وأهم من العلوم، ضاع منا التعليمُ وتشوّهت التربية. لأن التعليم هو طريق الوصول إلى العلم، الذي هو درجةٌ أدنى من المعرفة. فلما غاب عنا ذلك "الضبط" الدلالي، ما عاد عندنا تعليم.. ولا علم.. ولا معرفة يُعتدُّ بها.

* * *

المعرفةُ قيمةٌ إنسانية أساسيةٌ، يتميز بها عموم البشر عن بقيَّة الحيوانات، وتتمايز بها الجماعاتُ الإنسانية عن بعضها البعض في المستوى والرُّقيّ. وبدلالة المُخَالَفَة، لا يمكن لجماعة إنسانية جاهلة أن تكون راقية، فالمعرفة

شرطٌ أساسيٌ لرُقِيّ أيّ مُجْتَمَعٍ إنسانيّ، وشرطٌ أساسيٌ لنجاح سعيه للإرتقاء، وإلا لما كانت ميزانيات البحث العلمي والأنشطة المعرفية هي دليلٌ على درجة التحضر في هذا البلد أو ذاك. ولذلك، كان من المُضْحِكَاتِ المُبْكِيَاتِ قُبَيْلِ ثورة يناير بشهور، أن يُبَشِّرُنَا وزير التعليم العالي والبحث العلمي في مصر، بأنه يطمح إلى زيادة ميزانية البحث العلمي لتكون واحدًا بالمائة من الميزانية العامة؛ فكان ذلك من جملة السخريات السوداء، نظرًا لأن ميزانية البحث العلمي في اليابان وأمريكا، وإسرائيل، تزيد عشرة أضعاف عن مقدار الميزانية المصرية التي يذهب معظمها أصلًا، لسداد مرتبات الموظفين الحكوميين بوزارة البحث العلمي.

ومع أن الإسلام فيه من النصوص الأُول (الآيات القرآنية) والنصوص الثواني (الأحاديث النبوية) قدرٌ كبيرٌ من الإحتفاءِ بالعلمِ والمعرفة: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ"، اطلبوا العلم ولو في الصين.. إلخ، إلا أن كثيرًا من المتدينين يغلب عليهم الجهلُ والجهالة (التعصب) ويُهْدِرُونَ قيمة المعرفةِ والعِلْمِ ظنًّا منهم بأن الدين يُغني عن الدنيا، وأن التقوى أهم من الرُقِيِّ المَعْرِفِيّ! مع أن بُنيان الدين لا يقوم إلا على الدعائم الدنيوية، والرُقِيُّ المَعْرِفِيّ شرطٌ لصدق التقوى، وإلا لما كان غالبية المهووسين دينيًا من الجهلة، ولما كان الإرهابيون في معظمهم من الجُهَّال.. وبالمناسبة، فإن الجهل هو نقيض العلم ونقيضُ الرفق أيضًا. ولذلك فإن نبيّ الإسلام نَهَر الصحابيّ الشهير "أبي ذَرٍ الغِفَاري" حين شتم المؤذن الأشهر بلال بن أبي رباح قائلًا: يا ابن السوداء.. (وقيل، بل قالها لأحد العبيد، وليس للمؤذّن بلال) فقال له النبيُّ، وقد غضب منه: يا أبا هريرة، إنك امرؤ فيك جاهلية.. ولا يفوتنا

هنا، أن أبا هريرة كان رابع الأربعة الأوائل الذين دخلوا الإسلام. وهو ما يعني أن "الجاهلية" ليس المقصود بها هو الوثنية أو أنها نقيض "الإيمان" بالدين الإسلامي، مثلما يظن كثيرٌ من الناس ومثلما أخطأ في فهمها صاحبُ كتاب: جاهلية القرن العشرين. وإنما هي فترة زمنية تميَّز أهلها بالحدّة والشدّة والعنف والتعصّب.

لن أطيل أكثر من ذلك في تبيان معنى العلم والمعرفة، وفي تأكيد أنهما من القِيَمِ الأساسية للإنسان. فهذا أمرٌ لا مِرَاءَ فيه. والأهمُّ من ذلك الآن، هو بيان أهمية التكامل في المنظومة العامة للقِيَم، وضرورة تناغمها فيما بينها. إذ أن غياب الإتجاه العلمي العام، والنزعة المعرفية عمومًا، من شأنه خلخلةُ منظومة القِيَم ثم اهتراؤها المُنْذِرُ بسُقُوطِهَا. إذ لا يمكن بغير العلم والمعرفة، إدراك القِيَمِ الكُبْرَى (الحق، الخير، الجمال) والقِيَمِ الفرعية المتصلة بها.

إن الجاهل، والجاهلي (المتعصب، العنيف) ليس بمقدوره أن يرى الحق حقًا فيطلب اتّباعه، وعلى سبيل المثال، فإن ما فعله جهلة "داعش" وأمثالهم، على اختلاف مُسَمَيَاتِهِم، هو شاهدٌ يؤكد ذلك ودليلٌ واضحٌ عليه. وفي التاريخ أمثلةٌ أُخَرَى كثيرة، في الزمانين المسيحيّ والإسلاميّ؛ فهؤلاء، لأنهم جُهَّال وجاهليون، يبدأون بتدمير آثار الأولين لطمس أصول المعرفة الإنسانية وتاريخ الحضارات، ثم فما بعد ذلك يأتون بالشنائع والويلات، ظنًا منهم أن الدين يقضي بالضرورة على الدنيا، وأن الفقه يُغني عن العلم والمعرفة والجاهل والجاهلي، لن يفعل "الخير" لأنه لا يعلمه ولا يعرفه، ولن يدرك "الجمال" أو يتذوقه، لأن ذلك يحتاج تربيةً وتعليمًا ومعرفةً بالأحكام الجمالية في الطبيعة وفي الفنون "الجميلة".

فإذا كانت المعرفة مطلوبةً لذاتها، وبالتالي فهي قيمة في ذاتها، فإنها أيضًا لازمةٌ للإقرار بالقِيَمِ الكبرى (الأساسية) وبالقِيَمِ الفرعية أيضًا.. ولا سبيل إليها إلا بالعلم، الذي لا سبيل له إلا بالتعليم، الذي لا سبيل له إلا بإقرارنا بقيمة المعرفة.

الحرية

عندما اندلعت الأمور في نهاية يناير ٢٠١١ رفع المصريون شعارات ثورية لم يُدَقِّقُوا في معاني مفرداتها، وساروا وراءها كأنها نشيد المجد الثوري. ثم ظهر أنها نشيجٌ دالٌّ على انعدام الوعي. وكان من أشهر تلك الشعارات اثنان، أحدهما فصيح والآخر عاميٌّ قريبٌ من الألفاظ الفصيحة. كان الشعار الأول هو "الشعب يريد إسقاط النظام" وقد أفضتُ في الكلامِ عن المخاطر التي أحدقت بنا، بسبب عدم وعينا بدلالة كلمة "النظام" وكيف أنها تشتمل على الحكم والمعارضة، معًا. ويمكن مراجعة تفاصيل ذلك في كتابي: فقه الثورة.

وكان الشعار الآخر، الأخطر، هو "عيش، حرية، عدالة إجتماعية" ولن أتحدث هنا عن "العيش" الذي هو مطلب للجائعين والشحاذين، لا الثوار ! ولن أتوقف عند المفهوم المطاط للعدالة الإجتماعية، وهو مفهوم طالما تم استعماله سياسيًا لخداع الفقراء من الناس، مع أنه نظريًا من المفاهيم الإجتماعية النبيلة.. وإنما سنتوقف فقط، عند الكلمة الوسطى: الحرية.

لا يعرف الحرية إلا الإنسان، لأن بقيَّة الكائنات تعمل وِفق طبيعتها الأساسية ذات الطابع الجبري، حسبما قال الشاعر: فلا النسر يمشي، ولا البشريُّ يطير! فمن حيث الجانب الحيواني، يلتزم كُلُّ كائنٍ بما يكمن فيه من

برنامج داخليٍّ لازمٌ لِكُلِّ أفرادِهِ؛ فلا الغُرَابُ يمكنه أن يكون رشيقًا ولا البغاوات تستطيع أن تصير سخيفة. لن يكون الأسد رقيقًا، ولن يُمسِي الغزالُ شَرِسًا. أما الإنسان فلأنّ له عقلًا وفيه خيالٌ، فإنه يختار، والإختيارُ هو اختبارُ الحُرِّيَة، ومظهرها الأول ودليلها الوحيد. ولطالما انخدع الناسُ في مصر، بمن خادعوهم بمفرداتٍ مشتقة من "الحرية" التي هي واحدة من أهم السمات الإنسانية، فراجت من غير مراجعة تعبيرات مثل: الشعب الحُر، حرية الشعوب، حركات التحرر، ميدان التحرير.. إلخ. ولأن الأشياء تُعرف بأضدادها، ولا يمكن في كثيرٍ من الأحيان إدراكُ شيءٍ إلا بإدراكِ نقيضِهِ، فإنه يَصِيْرُ من العَسِيْرِ تعريف (الحُرِّيَةِ) لأن عكسها غير مُحَدَّد! هل هو "القهر" أم "الحبس" أم "الإلتزام" أم "التحكم" أم "الجبرية" أم ماذا بالضبط.. إن صعوبة تحديد المُضَاد والمُقَابِل الدلالي للحرية، يجعل من العسير تعريفها. وبالتالي ينفتح المجالُ واسعًا، أمام ما لا حصر له من المعاني المُرَادَةُ من لفظ "حرية".

وقد بلغ الخلطُ والاضطراب الدلالي لكلمة "الحرية" مبلغًا مُبالغًا فيه، مما سمح باستغلالها على نحوٍ رخيص، وبَشِع. فعلى سبيل المثال، في الوقت الذي كانت "الناصرية" ترفع شعارات الحرية والتحرر والتحرير وغير ذلك من مشتقات هذه الكلمة النبيلة، كان معظم المعارضين للحكومة في المعتقلات. وكان ضبطهم وحبسهم يجري بلا تمييز، لدرجة أن أمر الإعتقال آنذاك كان يصدر بصيغة: يُعْتَقَل "فلان" ومن يلوذ به.. ومن هنا صودرت الحريات جميعها: السياسية (لأنه لا يوجد أحزاب) والإقتصادية (لأن الثروات للشعب) والفكرية (لأنه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة) والفنية (لأن الإلتزام بقضايا النضال ضرورة) والسلطوية (لأنه لا مرشح رئاسي إلا الرئيس).

ولأن الخداع لذيذٌ، وكثيرٌ من الناس يحبونه، ثم بعد ذلك يبكون! فقد استعمل لفظ "الحرية" أغلبُ الناس الذين يُخَادِعُونَ الآخرين، فرأيناهم في الزمن الناصري يتحدثون كثيرًا عن: الحُرِّيَةِ في الإسلام، حُرِّيَةِ المرأة في الإسلام، دعوة الإسلام لتحرير العبيد، حرية الإعتقادِ في الإسلام! واستدلوا على كذبهم بالآية الكريمة: { فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ}.

وفي حقيقة الأمر، وبعيدًا عن المخادعات، فإن الدين الإسلامي لأنه في نهاية المطاف "دينٌ" فهو لا يعرف الحُرِّيَةِ، إطلاقًا، وإنما يدعو مثل كل دين إلى عكسها "العبودية". عبودية الفرد لله، ولِظِلِّ اللهِ في الأرض (الحاكم) والآية التي يستشهد بها المُخَادِعُونَ، مُنْتَزَعَةٌ بقسوةٍ من سياقها. فقبلها مباشرة قوله تعالى { وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ } وبعدها مباشرة { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ } .. فأين الحرية، مع هذا التهديد وذاك الوعيد !

وبوعيٍ أو بدونِ وعي، رفع المصريون "الحرية" شعارًا لثورتهم من دون ضبطٍ لدلالة هذه الكلمة، القَيِّمَةِ، وبيان ارتباطها ببقية القِيَمِ التي يجب أن تتناغم في "منظومةٍ" واحدة. فكانت النتيجة حالة فوضى عارمة، وخَبَلٍ عام، وتصرفاتٍ ليست مسؤولة. ليس فقط على مستوى الجماعات السياسية غير المنضبطة مثل (حازمون) و(٦ أبريل) الذين زحفوا نحو وزارتي الداخلية والدفاع، لإسقاطهما، على اعتبار أنهما أدوات قهرٍ وقمع للحرية. فكان الموتُ من نصيبهم، والفجيعة على الشباب من نصيبنا.. وليس فقط على مستوى الشباب الجامعي الذي ترك الدراسة وراح يزعق بحريةٍ تامة في "الحرم" الجامعي بعبارات جوفاء، كانوا أيضًا يُشَوِّهُونَ بها الجُدْرَانَ، منها تلك القولة السفيهة التي

رأيتها أيامها تُلَطِّخُ الجدران الداخلية لكثيرٍ من الكليات: عايز حقي يا بلد.. وليس فقط على مستوى أهل السبهللة الذين ظلوا يصخبون ليل نهار، بالمفردات الثورية والعبارات الطنّانة من مثل "ثورة حتى النصر" من دون تحديدٍ دقيقٍ للمقصود بالنصر (هل هو هدم جهاز الشرطة، مثلًا) أو تحديد المراد أصلًا بالمعركة التي يسعون فيها للانتصار! ومع ذلك يصفون أنفسهم بالأحرار .

وقد تعدَّى اضطراب مفهوم (الحرية) كل ما سبق، حتى صار سلوكًا فرديًا يستهدف الحالات الفردية فانتشرت الشتائم في كلام الناس مع بعضهم البعض، وصار النَيْلُ من سُمْعَةِ الأشخاصِ ولو بالكذب والزورِ، مَظْهَرًا لحرية الصحافة والإعلام .. وهذا بؤسٌ فادِح .

وهناك كثيرٌ من تلك الأمثلة التي تدل على عدم إدراك الشباب لمفهوم الحرية، وهو الأمر الذي أدَّى بهم إلى واحدٍ من أخطرِ نقائِضِ الحرية وأضدادها، وهو التعدي على الآخرين ومصادرة حريتهم الشخصية، دون أدنى شعور بذنبٍ أو حَرَجٍ. وإذا كانت المعاني تُعرف بأضدادها وتتحدّد، فإن: التعدي، القهر، الإعتقال، الحبس، الإلتزام، الضبط.. كُلّها معانٍ مضادة للحرية، ولذلك فإن معنى الحرية واسع ومتعدِّد المستويات، ومن هنا كانت له "مُضاداتٌ" كثيرة . ولابد لنا ونحن بصدد "إعادة بناء منظومة القِيَم" أن نحدِّد بدقة ما نقصده في أيامنا هذه (المفصلية) من كلمة الحرية، حتى نلتزم بمفهومٍ مُحَدَّدٍ لها، يسمح بتناغمها مع بقيَّة القِيَمِ السائدة في المجتمع. وإلا، بلغت حرية المتحررين المدى، وصار كُلُّ فَرْدٍ يفعلُ ما يرى أنه حَقٌّ له.. فتصير مصر مثل: ليبيا (الحرة) وسوريا (الحرة) والعراق (الحر).

أثر الفراشة

في مطلع العام ٢٠١٤ دعاني القائمون على مؤسسة شومان الثقافية لإلقاء محاضرة عامة في العاصمة الأردنية عمان، واقترحوا لها عنوانًا نمطيًا هو: علاقة المثقف والسُلْطَة .. وقد رأيتُ أن العنوان المقترح هو تكرار لتلك الصيغة المستهلكة التي لا أحب الخوض في مثلها، للأسباب الآتي ذكرها، فقمتُ بتغيير عنوان المحاضرة إلى: أثرُ الفراشة.

وقد رأيت الحديث عن (المثقف والسُلْطَة) مستهلكًا، ولا أقول ممجوجًا، نظرًا لهذا التدفق الوفير والطرح المتوالي لهذا الموضوع خلال العقود الأخيرة من زماننا العربي الحزين. ربما بتأثير العلاقة الجدلية الدرامية بين المثقفين في مصر والسُلْطَة السياسية في زمن الرئيس جمال عبد الناصر، الذي ورث عنه الحكم الرئيسُ السادات، الذي أورثه بدوره إلى الرئيس مبارك. الذي أراد أن يورِّث الحكم لابنه، متناسيًا ما جرت عليه تقاليد توريث السُلْطَة العسكرية وحكم الضباط، وأول هذه التقاليد قاعدة: الضابط لايعقبه فى العادة مدني.

ونظرًا لكثرة الهزائم وانعدام الغنائم،كان من الطبيعي أن تثور الخلافات بين المثقفين الناطقين بلسان الناس، والسُلْطَة السياسية معدومة الإنجازات، الرابضة على قلب هذه (الدول) بالتوارث غير الشرعي. سواءً كان هؤلاء المثقفون من ذوي النزعة اليسارية.كالماركسيين والاشتراكيين والراديكاليين (المطالبين بالتغيير الجذري لطبيعة المجتمع) وأمثال هؤلاء من الحالمين بالعدل

الاجتماعي التام. أو كانوا من المثقفين ذوي الاتجاهات اليمينية، كالإسلاميين على اختلاف مفهومهم عن الإسلام الملعوب به في الميدان السياسي، والمتوسَّل به للوصول إلى سُدَّة الحكم.

ومعروفٌ أن الفترتين الناصرية والساداتية قد شهدتا بطشًا عتيدًا بكثيرٍ من المثقفين المصريين، وهو ما امتدَّ بقدرٍ أقلَّ احتدامًا في فترة "مبارك" المستدبم على كرسيّه، المستهين بمعارضيه على قاعدة عبارته الشهيرة عن المعارضين: خلّيهم يتسلّوا.. وهو الأمر الذي انتهى إلى جعله هو تسليةً للعوام والخواص في مصر والعالم، عبر حلقاتٍ متتالية رديئة الإخراج شاهدناها مندهشين وشهدنا عليها ونحن غير مشاركين. أعني الحلقات الهزلية التي حملت عناوين: عزل الرئيس أو تنحّيه، التعصُّب ضده والتعصُّب له، ابتعاده عن الأنظار في شرم الشيخ، خضوعه للمحاكمة، إلحاق معاونيه به في سجن طره، التهويل في مقدار أموالهم المهربّة، أبناء مبارك، أحفاد مبارك صخب المحاكمات، مهرجان البراءات.. إلى آخر هذه المهازل والمباكي الذي آن لها اليوم أن تنتهي، لكنها لن تنتهي.

أما في البلاد العربية المحيطة بمصر، فقد اتخذت العلاقة بين المثقفين والسُلْطَة السياسة خلال العقود الأخيرة، شكلًا أكثر حدَّةً تمت صياغته غير الرسمية، وغير المعلنة، على نحوٍ بسيطٍ لا تعقيد فيه: إما أن يوافق المثقف على ما يراه الحاكم ويوافق هواه، أو يفكر فيعارض فيرحل عن البلاد، أو يعترض فيُعتقل ويُقتل فعليًا ومعنويًّا. وهكذا انتهت هذه الأوطان المقموعة إلى الحال المُزري الذي ظهرت اليوم آثاره المدمّرة على المجتمعات العربية

التي ثارت تباعًا: مصر، تونس، ليبيا، سوريا، اليمن.(لاحِظ أنها جميعًا كانت تُدار قبل ثوراتها، برؤساء ذوي خلفية عسكرية أوشُرَطِيَّة).

بينما حفلت البلاد المحكومة بنظم ملكية أو أميرية أو مشيخية قبائلية، بقدر من التوتر لم يكن كافيًا لإشعال فتائل الثورة. فلما رأى أهل تلك البلاد نتائج الثورات في البلدان التي اندلعت بها، كرهوا كلمة "ثورة" وكل مشتقاتها.

• • •

ولما سبق، كان من الطبيعي أن تُطرح جدلية العلاقة المثقف والسُلْطَة على قاعدة الانحياز للمثقف (المظلوم، بريء المقصد، الحالم) ضد الحاكم المستبد الغشوم الطاغي. على اختلاف الحكام، في درجة الاستبداد وعُتُوّ الاستعباد. ومن هنا انهمكت المحافلُ والنشراتُ الثقافية العربية خلال الخمسين سنة الأخيرة، في التلميح والتصريح والزعيق العالي، لنعي مصائر (المثقف) الممتلئ استنارةً وإبداعًا وألَقًا، على يد (الحاكم) القوي المرتجف من شدو الأغنيات. وأدبيًا، تم التعبير عن المثقف بالمعادلات الرمزية من مثل: ملح الأرض، أصحاب القلم، زرقاء اليمامة (وهي الصبية العربية التي حذَّرت قومها من هجوم آتٍ، فاستخفوا بها، فدفعوا الثمن الباهظ) وبدا الأمر واضحًا للعيان غيرَ محتاجٍ لمزيدٍ من الطرح، لكن هواة الكلام أمعنوا في التوغُّل بمفاوز هذه الصيغة الجذابة المسماة "العلاقة بين المثقف والسُلْطَة " بل راح مثقفونا المعاصرون يقرأون حاضرهم في تراثنا القديم، ويبحثون في علاقة مثقفينا القدامى من الأدباء والفقهاء والمفكرين، بمن كانوا يحكمون آنذاك.. وبالطبع، انتصرت جميع الآراء للمثقف الذي اكتوى دومًا بنار السلطان، ودفع حياته أحيانًا ثمنًا للمعارضة السياسية أو للخلاف الفكري ذي البُعد السياسي. ومن هنا صرنا اليوم نبكي كثيرًا، ونتباكى، على مصائر رجال عظماء من أمثال هؤلاء

المثقفين المقتولين: عماد الدين النسيمي، الجعد بن درهم، معبد الجهَني، غيلان الدمشقي، الحلاج، عين القضاة الهمذاني، السهروردي الإشراقي.. وغيرهم كثيرون .

وفي المقابل من هؤلاء، نعى الناظرون في تراثنا وواقعنا المعاصر وهاجموا مَنْ أسموهم "فقهاء السلطان" أو بعبارة معاصرة: المثقف الخانع للحاكم. ومن هنا توالى الهجوم على شخصيات من أمثال الإمام أبي حامد الغزالي، المتوفى ٥٠٥ هجرية، لأنه عاش في كنف العباسيين وانتصر لهم. والعَلَّامَة نصير الدين الطوسي، المتوفى ٦٧٢ هجرية، الذي تعامل عن قرب مع هولاكو وعمل مستشارًا له. والشيخ الصوفي عبد الوهاب الشعراني، المتوفى ٩٧٣ هجرية، الذي انفرد عن بقية الأولياء بكثرة دخوله على حكام المماليك.. وغير هؤلاء من العلماء والمفكرين الذين هادنوا السُلْطَة السياسية في زمانهم.

وهكذا، أدى النظر في علاقة المثقف بالسُلْطَة إلى تلك الصيغة اليقينية، التي أقرّت في الأذهان أنه لكي يكون المفكر والفقيه والأديب (المثقف) عظيمًا، فلا بد له أن يعارض الحاكم ويختلف معه. ولا بأس لو قُتِل على يديه، فيصير شهيدًا يتغنَّى ببطولاته عوام الناس وجمهور المتابعين. الذين لا يستشهدون.. وهذه الإشكالية تحتاج فيما أرى إعادة النظر فيها، وفي المسائل الفرعية المتعلِّقة بها. فمثلًا، هؤلاء المتّهمون بأنهم فقهاء السلطان ممن ذكرناهم قبل قليل، كان موقفهم أكثر تعقيدًا مما يبدو من الظاهر. فالإمام الغزالي مثلًا، هو واحد من أشهر الذين هجروا الدنيا وزخرفها، واستغنى عن السُلْطَة وهو في أوج مجده وتألقه الفكري. فترك التدريس بأشهر جامعات زمانه "المدرسة النظامية ببغداد" واعتكف في منارة الجامع الأموي بدمشق مع فقراء الصوفية، ثم عاد إلى موطنه الأصلي (بلدة طوس الفارسية) ورفض التدريس هناك أيضًا، وعاش خامل الذكر متفرّغًا للعبادة حتى وفاته في السنة

المذكورة سابقًا.. وطبعاً، من السهل اتهام الإمام الغزالى بموالاة السلطة، والاستدلال على ذلك بأنه هاجم الشيعة الباطنية ، أعداء الدولة العباسية. ولكن من الصعب قبول مثل هذا الاتهام على علاّته وعلله الكثيرة ، فمن الوارد أن يكون الإمام الغزالى قد عبَّر عن قناعاته هو، التى وافقت هوى الحكام . ومن غير الوارد أن الواهد فى متاع الدنيا ، والمعتكف بعيداً عن الناس أجمعين فى خاتمة المطاف ، أن يكون مرتمياً فى أحضان سلطة سياسية ليس لديها ما تعطيه له من مشاعر أو غايات يسعى إليها الزهاد .. وقد يقال إن الإمام ارتضى فى فترة من حياته بأن يكون فقيهاً للسلطان ، ثم تاب ! وهذا قولٌ باردٌ يزعم الكشف عن نوايا النفوس ، الخفية ، ولا يصمد كثيراً أمام النقد.

أما العلامة نصير الدين الطوسي، فاعتقد أنه لم يكن أمامه إلا اختيارٌ وحيدٌ، هو صحبة "هولاكو" الذي أطلقه من سجن قلعة "ألموت" التي كان الشيعة الإسماعيلية الذين اشتهروا باسم (الحشّاشين) يمسكونه فيها. ولما وجد الطوسي أن هولاكو يؤمن بالطالع والتنجيم، استغل ذلك وجعله ينفق بسخاء على بناء أكبر مرصد فلكى (علمى) في الزمن الوسيط، وهو مرصد مراغة الذي جمع فيه الطوسى كبار علماء الفلك والرياضيات في عصره وأنقذهم بذلك من أهوال الزحف المغولي على العالم الإسلامي.. ولو كان "الطوسى" أصلًا ممن يتناغمون مع أصحاب السلطان، لكان أولى به اللجوء إلى سلاطين زمانه المسلمين بدلًا من بقائه في سجونهم.

أما الشيخ عبد الوهاب الشعراني، فقد كفانا مؤونة البحث عن حقيقة موقفه، حين اعتذر لأولئك الذين عتبوا عليه تردُّده الدائم على الأمراء، بأن أحوال أهل مصر في زمانه قد بلغت غاية السوء، وبأنه يدخل على أُولي الأمر لقضاء حوائج الناس المساكين، ولم يطلب لنفسه شيئًا.

ويتصل بما سبق، أن المثقف ليس دائمًا الطرف الأضعف في المعادلة، فالحاكم يستعمل عادةً قواه المباشرة "الشرطة، العسس، الأعوان، السجانين، الجلادين" وهذا كله أقل قوةً وأضعف أثرًا من سلاح المثقف. الكلمة ..

ومن البديهي أن الكلمة أعمق أثرًا وأبقى تأثيرًا من كل وسائل الحكام لتأكيد الهيبة، للترغيب والترهيب.. وهو ما يفسر خوف الطغاة من الأغنيات، بحسب قول الشاعر في قصيدته على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

ولا يعني ذلك بطبيعة الحال، إنكار أن فريقًا من الفقهاء والعلماء والمفكرين السابقين، كانو يوالون حكام زمانهم ويسخّرون أقلامهم لخدمة هؤلاء الحكام؛ فهذه حقيقة لا سبيل لإنكارها، لكنها لم تكن دومًا هي قاعدة التعامل بين المثقف والسُلْطَة ، بل ويمكن القول إنها كانت الاستثناء من القاعدة. بدليل أن الذين عارضوا السُلْطَة السياسية من هؤلاء المثقفين (بالمعنى العام للكلمة) كانوا أكثر عددًا بكثير من أولئك الذين ناصروهم وخدموا أغراضهم .

ولا يفوتنا هنا تفاوت الحكام في كل زمان ومكان، فليس كل الحاكمين سواء. فيهم العاقل والمستبد، وفي المستبدين محتالون وأصحاب بطشٍ عتيد، وفي الباطشين متحكمون فيما يفعلون وتاركون لحبل بطشهم على الغارب.. وهذه الاختلافات، بلا شك، تؤثر بشكل مباشر في علاقة المثقفين (الذين هم متعددو الأطياف ومختلفون فيما بينهم) بالحكام متعددي الأطياف، المختلفين فيما بينهم.

* * *

نأتي بعد ذلك إلى صيغة "أثر الفراشة" في عملية التفاعل بين المثقف والسُلْطَة .. وهنا لابد لنا من التوقف أولًا عند نقطتين أساسيتين. الأولى أن

عنوان هذه الصيغة يشير إلى تلك النظرية الفيزيائية الطريفة التي ظهرت منذ خمسين سنة، واشتهرت كثيرًا بعد ظهورها. وملخصها أن ذاك الكون وهذا العالم الذي نعيش فيه، مترابطٌ على نحوٍ عجيب في" بنيةٍ" واحدة تؤثّر عناصرها في بعضها البعض. وقد تم التعبير عن هذه النظرية ،أو بالأحرى: النظرة، بعبارةٍ رنّانة الإيقاع بديعة المعنى تقول: إذا رفّت فراشةٌ بأجنحتها في الصين، فقد يُحدث ذلك إعصارًا في أمريكا.. والنقطة الأخرى هي قول الشاعر محمود درويش في قصيدته (ديوانه) المعروف "أثر الفراشة" ما نصُّه:

أثرُ الفراشةِ لا يُرى

أثرُ الفراشة لا يزولُ.

هو جاذبيةُ غامضٍ يستدرجُ المعنى ويرحل،

حين يتضح السبيلُ.

هو خفّةُ الأبديّ في اليوميّ،

وأشواقٌ إلى الأعلى،

وإشراقٌ جميل.

* * *

وقد قرأتُ هذه الأسطر الشعرية، كأن الشاعر كان يعبّر فيها رمزيًا بسطوره الشعرية هذه، عن دور "المثقف" في كل مجتمع، ويشير إلى المعاني المرتبطة بمفهوم الفعل الثقافي. وفي هذا السياق لابد لنا من تعريف (المثقف)

وتحديد دلالة هذه الكلمة التي طفرتْ في واقعنا العربي المعاصر، فجأةً في بدايات القرن العشرين.. وفي ذلك نقول:

خلال تاريخنا الطويل، لم تُستعمل كلمة "مثقف" إلا بمعناها اللغوي الأصلي الذي حدَّده العلامة ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم، المتوفى سنة ٦٣٠ هجرية) بقوله في قاموسه الشهير "لسان العرب"ما نصُّه: ثقف الشيء يعني حذقه، ورجلٌ ثَقِفٌ يعني حاذقُ الفهم، ويقال ثَقَفَ الشيء أي تعلَّمه بسرعة فصار ثابت المعرفة وصاحب فطنة وذكاء، وثُقف الرجل يعني ظُفر به. يقال "ثقفنا فلانًا" في موضع أي أخذناه منه.

أما كلمة "الثقافة" ذاتها في فصيح اللغة العربية، فهي تعني ضمن ما تعني: إعمال السيف ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ والثِّقافُ هو الخصامُ والمجالدة. والثقَّافة أيضًا: خشبةٌ تسوَّى بها الرماح..

ولم تستعمل كلمة "مثقف" في تراثنا إلا بمعنى مجازي هو: رشيق القوام. وهو معنى كنتُ أجهله حين قمتُ في العشرينيات من عمري بتحقيق أشعار عفيف الدين التلمساني، ولذلك أدهشني قوله في مطلع قصيدةٍ بديعةٍ تذوب رقةً، قال فيها:

لا تُخدعنَّ بِرِقَّةٍ في خَدِّهِ — فالسيفُ قتالٌ برقَّة حَدِّهِ

ودَعِ الجفونَ فإنما وَسْنانها — أضحى سِنَانًا في مثقف قَدِّهِ

أما الموصوف اليومَ بالمثقف، فهو الذي كان طيلة تاريخنا يسمى الأديب. وهو الوصف الذي ينطبق على الشعراء والكُتّاب والمفكرين والفلاسفة، وغيرهم ممن ذكرهم ياقوت الحموي في كتابه الموسوعي الشهير "معجم الأدباء". وفي أوروبا، ظهر مصطلح (الثقافة) وانتشر في القرن التاسع عشر، بمعنى "التحضر والرقي". وقيل في بيان هذا المعنى، إن الثقافة هي الجانب اللامادي من الحضارة، ثم وضع عالم الاجتماع الشهير "تايلور" في بدايات القرن العشرين، تعريفه الذي حظي بقبولٍ واسعٍ في أنحاء العالم، بقوله: الثقافة بمعناها العام هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعتقدات والمعارف والفنون والأعراف والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسانُ باعتباره عضوًا في مجتمع.

وهكذا صارت "الثقافة" معادلةً للوعي بطبيعة ماهو سائد في المجتمع ومطابقةً لمقدار الإحاطة بهذا "الكل المركب". فيكون الموصوف بالمثقف هو الشخص الواعي بطبيعة مجتمعه والمجتمعات الأخرى (بصرف النظر عن مقدار وعيه) مع أن كل إنسان يعيش في جماعة فهو بالضرورة مثقفٌ ولو بقدرٍ ضئيل. أما الذي يوصف تخصيصًا بالمثقف ، فهو الشخص الأكثر وعيًا وإحاطةً وانشغالًا بالأفكار والفنون والمعارف المعبِّرة عن مجتمعه والمجتمعات الإنسانية الأخرى.. وبهذا المعنى، تمَّ انتقال لفظ ومفهوم "المثقف" في واقعنا العربي المعاصر، بعد بدايات القرن العشرين، وانتشرت المفردات المشتقة منه.

وللمثقف في مجتمعه أدوارٌ متعددة، منها دوره في نقد وتجديد مفردات الثقافة ومكوناتها مثل اللغة التي يقوم المثقف بتطويرها عن طريق الكتابة والتأليف، ومثل التراث الذي يسعى المثقف لمعرفته وإعادة النظر فيه

بشكلٍ متوالٍ، ومثل الدين الذي يُسهم المثقف في تجديد التصورات المرتبطة به مما يؤدي إلى تطور الفكر الديني وأنماط التدين.. وهكذا وبعبارةٍ جامعة: المثقف ينفخ في شعلة الفكر العام بمجتمعه، كي تتقد.

ومن أدوار المثقف في مجتمعه، ما يعبر عنه رمزًا بأنه "زرقاء اليمامة" وهي تلك الفتاة العربية (اليمنية) حادة النظر التى كانت تحذر قومها لإذا رأت خطراً يقترب. ولها قصة مشهورة في التراث العربي القديم. وقد اصطنع المثقفون لأنفسهم هذا الدور تصريحًا، كما هو الحال فى عنوان ديوان "أمل دنقل" الشهير :البكاء بين يدى زرقاء اليمامة .. وتلميحًا، كما هو الحال في استشراف الكُتَّاب والمفكرين للآفاق المستقبلية وتحذير المجتمع من آثار الذوبان في ثقافة الآخرين، أو طمس التنوع الثقافي، أو تحديث الأفكار والرؤى لتأهيل الفكر المجتمعي العام للتعامل مع ما هو جارٍ بالعالم من رؤى متطورة وأفكار وفلسفات.

ومن أدوار المثقف، ما يقوم به لتأكيد أو تطوير أو تعديل منظومة القيم السائدة في المجتمع.. ولن أطيل هنا في بيان تلك النقطة الدقيقة ، لأنني افردتُ لها فصلًا مستقلًا في هذا الكتاب الذي بين أيدينا.فنكتفى هنا بالإشارة إلى أن منظومة القيم وإن كانت فى الأساس مسؤولية أفراد المجتمع كلهم، إلا أن للمثقف دوراً حيوياً فى القيام بهذه المسؤولية.

وبشكل عام، فإن ما يقوم به المثقف في مجتمعه هو أقرب ما يكون إلى "أثر الفراشة" بمعنى أنه يتوسَّل بالكلمات والتعبيرات الأدبية، أو بأنواع الفنون، أو بالبحث المتعمق. ولأن أدوات "المثقف" بالغة الرهافة، فهي خليقة بصفة "رفيق أجنحة الفراشة" لأنها تظهر في خاتمة المطاف في شكل: قصيدة، لوحة، موسيقى، إبداع فكري.. وغير ذلك من أنواع "الإنتاج الثقافي".

فماذا عن "الحاكم" وطبيعة الدور الذي يقوم به في المجتمع؟ الحاكمُ شخصٌ استجاب لنداء الاستعلاء على الناس، وأحبَّ أن يُدير أمورهم حسبما يرى هو. وهو يسعى دومًا لضبط حركة المجتمع لضمان استقرار حكمه.. وأدوات الحاكم كلها حِسِّيَّة ومباشرة، ابتداءً من قوة الشخصية (الكاريزما) المرتبطة بصفات جسمية معينة، ومرورًا بالعطايا المادية، وانتهاءً بأدوات القمع المُلْتَجَئ إليها عند اللزوم: السجن، الشرطة، بطش الأعوان، العَسَس (جهاز الأمن السري) وهو ما يُعَبَّرُ عنه اختصارًا بقولهم: ذهب المعز وسيفه.. في إشارة إلى ما جرى بين أعيان مصر والمعز لدين الله الفاطمي، يوم وَفَدَ إلى مصر فسألوه عن حسبه ونسبه، فأخرج من جراب سيفه بعضه وقال: هذا حسبي. ونثر عليهم كيس دنانير وقال: هذا نسبي.. وهو الأمر الذي يعبَّر عنه أيضًا بقولهم: العصا والجزرة.

ونظرًا لاختلاف الوسائل والغايات بين الحاكم والمثقف، القاهر والمحلِّق؛ فقد وقع الخلافُ في كثيرٍ من الأحيان بينهما، وهو ما أوحى لأهل زماننا بأن المثقف لابد أن يكون مُعَارِضًا سياسيًا. وهذه في واقع الأمر "أغلوطة" يجب الانتباه إليها، ما دمنا بصدد إعادة بناء مجتمعاتنا التي اهتزت. إن وقوع الخلاف واشتجار الاختلاف، ليس شرطًا أساسيًا لعلاقة المثقف والحاكم. وقد رأينا في تاريخنا الطويل، مالا حصر له من أمثلة دالة على تناغم هذا الدور مع ذاك، سعيًا للارتقاء العام بحياة الجماعة. ولطالما حرص كثيرٌ من الحكام النابهين على إذابة الجليد بينهم وبين مثقفي زمانهم، والأمثلة على ذلك لا تكاد تقع تحت الحصر.

ومن أشهرها "مجالس" الفكر والأدب والعلم في قصور الأمراء والخلفاء السلاطين، التي كان أصحاب السُلْطَة يحرصون على الارتفاع بمستواها

واستجلاب المتميزين إليها. ولم يكن حضور تلك المجالس يعني بالضرورة أن الحاضرين مُوَالِيْنَ لهذا الحاكم أو مستأجرين له، وإلا فقد خرجت من تلك المجالس معارضات قوية لمن كانوا يعقدونها، وما قصيدة المتنبي البديعة في عتاب سيف الدولة "واحرّ قلباه" إلا نموذج واحد من تلك المعارضات.. علمًا بأنَّ كثيرًا من المفكرين والفقهاء والفلاسفة كانوا يبتعدون أصلًا عن تلك المجالس، وعن كل ما يتعلق بالحكام. ولهم في ذلك أقوال كثيرة ومؤلفات معروفة، منها كتاب "عليّ بن سلطان القاري" الذي يُفْصِحُ عنوانه عن محتواه: تحذير العلماء عن الوقوف بأبواب الكبراء والظلماء.

ويحدثنا تراثنا عن كثير من المثقفين الذين عارضوا الحكام أو نصحوهم أو قوَّموا مواقفهم، من دون حدوث أي صدام. لكن اشتهار المآسي التي وقعت لبعض هؤلاء المثقفين على يد الحكام في زمانهم، جعل كثيرين منا يتوهَّمون أن المثقف لا بد له أن يكون معارضًا للحاكم، لا ناصحًا، وكأنه لابد أن يكون مختلفًا معه، ومكتويًا بناره وليس متفاعلًا معه على نحوٍ يجمع الجهود للارتقاء بواقع الناس.. وربما كان الاستبداد الطويل الذي عاشته مجتمعاتنا العربية في الأزمنة القديمة والفترات الأخيرة، كان السبب وراء اشتهار هذه "الأغلوطة" التي لن نجد لها مصداقية في مجتمعاتٍ راقية كالمجتمع الفرنسي المعاصر، مثلًا.

وبالطبع، فهذه ليست دعوة لمهادنة المثقفين للحكام. بل بالعكس من ذلك، هي دعوةٌ للتناغم فيما بينهما مادام ذلك في صالح الجماعة، وهي إشارةٌ إلى ضرورة قيام كُلّ منهما بدوره الاجتماعي العام، بالسلم إن أمكن وبالمعاداة إن لزم.. فإذا انحرف الحاكم قام المثقف بتقويمه، وإذا استبدَّ قاومه بأثر الفراشة الذي قد يُحدِث الأعاصير التي تقتلع العروش.

رموز معاصرة

يضم هذا الفصل، مَجْمُوعَةِ من المَقَالاتِ التي نُشِرَت بجريدة الأهرام عام ٢٠١٤ أيام صار الناس في بلادنا تحت وطأة التسريبات وحملات التشويه، يشكون في قيمة الشخصيات المؤثرة في الواقع المصري، ويرددون ببلاهة عبارة جوفاء، تقول : مشكلة مصر في النخبة.. فأردتُ، على سبيل السباحة ضد التيار، أن أكشف للقرّاءِ جانبًا من الشخصيات الرموز، الذين عرفتهم ورأيت منهم ما يستوجب التقدير والتذكير به.

سامي خشبة

قبل بضعة أعوام وبالتحديد يوم الأربعاء الموافق ٢٥ يونيو سنة ٢٠٠٨ توفى فجأة الأستاذ سامي خشبة الذي يعرف الكثيرون أنه كان رئيس هيئة المسرح (البيت الفني للمسرح) نائب رئيس تحرير الأهرام، المترجم، الناقد، المثقف. ولكنني عرفتُ فيه خلال عشرين عامًا، بالإضافة إلى كل ماسبق: الإنسان.. ولهذا رأيتُ من المناسب أن أشير إلى هذا الجانب الإنساني في حياة "سامي خشبة" باعتباره أحد الرموز الفكرية والثقافية التي أثرَت حياتنا العربية المُعاصرة. ثم رأيتُ أن أتلو ذلك بالإشارة إلى آخرين ممن عرفتهم شخصيًا، وهما: محمد يسري سلامة، نصر حامد أبو زيد، حسن حنفي، مصطفى محمود، أبو الوفا التفتازاني.. علمًا بأنني لن أذكر هنا (معلوماتٍ) عنهم او أُقَدِّمُ عَرْضًا لأعمالهم، فهذا مما يمكن الوصول إليه بسهولة في حالة القيام بالبحث عن أيّ واحدٍ منهم في مُحَرِّكاتِ البحثِ الشهيرة، مثل"جوجل" أو غيره. لا سِيَّمَا أن لهم إسهامات معروفة، ومؤلفات منشورة، ومشاركاتٍ كثيرةٍ في

صياغة واقعنا المُعَاصِر. وإنما مقصدي هو الكلام عن الجانب الإنساني في حيواتهم، حسبما رأيته بنفسي عن قرب حين أسعدني الزمانُ الشحيحُ بصحبتهم والإقتراب منهم. ومن هنا فإنني فيما يلي سوف أَقُصُّ من الوقائعِ ماكنتُ شاهدًا عليه، وما كان منها دالًا على عُمْقِ الجانِبِ الإنسانيُ المُسْتَتِر عادةً في حياة هؤلاء الرموز المشهورين، أو هو على الأقل مجهولٌ بالنسبة لكثيرين..

* * *

عرفتُ سامي خشبة أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، وقد تعمقت الصلة بيننا منذ بداية التسعينيات. وخلال العشرين عامًا التالية، صار بالنسبة لي أقرب الأصدقاء أو كان في الواقع "الأخ الأكبر" والمرآة الفكرية التي تنعكس عليها ذاتي بِنُصُوعٍ تام، وهو آخر شخصٍ تحدثتُ معه لغتي التي أفكّر بها، من دون احتياجٍ لشرح المفاهيم أو بيان معنى المفردات.. بعبارة أخرى: كان يمكنني الحوار معه بيُسرٍ، والتعلُّم منه أيضًا .

وليس من اليسير معرفة الجوانب الإنسانية من حياة سامي خشبة، لأنه نادرًا ما كان يتحدث عن نفسه، وكان لا يميل إلى حكاية وقائع حياته وتفاصيل صلته بالكبار الذين نشأ بينهم: الدريني خشبة (أبيه، مُتَرْجِمُ الإلياذة) محمد مندور (أستاذه) لويس عوض (أستاذه وخِصْمَهُ الفِكْرِيّ) ناهيك عن زملائه في زمن الإعتقال السياسي الناصري الذين هم تقريبًا، كل مثقفي مصر وأدبائهم ومفكريهم.

ولأن سامي خشبة كان صموتًا دومًا وقليل الكلام عما يَخُصُّه، فكثيرًا ما كانت وقائع حياته تُدْهِشُنِي إذا جاءت مناسبةٌ، فحكى عن شيءٍ بسببها. مثلًا، استشهدتُ مراتٍ في حديثي معه بكتابات "كولن ويلسون" فلم يُعَقِّب بشيءٍ

واستكمل الكلام كأن الأمر لا يَخُصُّهُ، حتى قلت له يومًا أنني قرأتُ في المرحلة الإعدادية كل أعمال "كولن ويلسون" المترجمة، فسألني: هل تتذكر اسم المترجم؟ فقلت: لا، كنتُ صغيرًا ولم أهتم بذلك! فضحك، ففهمتُ أن في الأمر شيئًا فقد كان هو، حسبما أخبرني يومها، الذي ترجم هذه الأعمال كلها، لأنه كان أيامها بصدد زواجه من السيدة الجليلة "خيرية البشلاوي" وكان يعاني شيئًا من شَظَفِ العَيْشِ. والمُكَافَأة التي كان يحصل عليها نظير الترجمة هي مائتا جنيهٍ مصري، فكان يُتَرْجِمُ كِتَابًا ليشتري بمكافأته أثاث غرفة الطعام (السفرة) ثم كتابًا تاليًا ليشتري غرفة النوم، وثالثًا لشراء غرفة الجلوس، ورابعًا لإصلاح شقة والده التي تزوَّج فيها وعاش طيلة عمره.. ضحك يومها ضحكته الطيبة وهو يشير لأنحاء بيته في "منيل الروضة" الذي كان بيتُ أبيهِ من قبله، ويقول بسُخْرِيَةٍ ما معناه: أثاث هذا البيت من خيرات كولن ويلسون.. سألته: كأنك نادِمٌ على قيامك بهذه الترجمات، فما سِرُّ هذا الندم؟ قال: لستُ نادمًا، فهو كاتبٌ مُهِمّ، ولكن لو كان الأمر باختياري وليس بطلب الناشرين، لَقُمْتُ أيامها بترجماتٍ أُخرَى لفلاسفةٍ أكثر منه عُمْقًا.

قبل وفاته بفترة كنتُ معه في مكتبته المنزلية، ومكتبة أبيه من قبل، وكان أيامها يُرَاجِعُ "بروفات" كتابه: مصطلحات فكرية. وفي لحظةٍ، نظرتُ في أرفف الكتب المُتَرَاصَّة من الأرض إلىٰ السقف بعرض الحوائط كلها، وقلت له: من العسير الحصول على مثل هذه الطبعات الآن، ويجب عليك إهداؤها لنا في مكتبة الإسكندرية. قال بالعامية وهو يبتسم: أول ما أموت تعالى وخدها كلها.. ومات، ولم أذهب لأن زوجته الفاضلة أرسلت مكتبته كإهداءٍ لمكتبة الإسكندرية، فكانت أكثر من خمسة آلافِ كِتَاب من الطبعات القديمة النادرة، وهي اليوم بين يدي القراء المترددين على المكتبة في قاعة الكتب النادرة والمجموعات الخاصة.

وكان سامي خشبة في شبابه المُبَكِّر ماركسيًا، وقد اعتُقِلَ سِيَاسِيًّا وهو دون العشرين من عمره مع بقيَّة اليساريين المصريين، في زمن "بطل العروبة" أعني القائد الذي أسكت كل الأصوات كَي لا يرتفع صوتٌ فوق صوتِ المعركة، ثم انهزم في كُلِّ المعارِكِ. ولا أدري، لماذا حَدَّثَنِي سامي خشبة عن زمن اعتقاله يوم وفاة أخته الوحيدة "سامية".. يومها، فوجئتُ به يتصل تليفونيًا ليقول لي إنه في طريقه إليَّ، من القاهرة إلى الإسكندرية، فأدركتُ في نبرة صوته أن أمرًا قد وقع. قال وكُنَّا آونة المساء، أنه يريد أن يجلس على حافة البحر في أيِّ مكان، فذهبنا إلى "بحري" وأمام الموج بكى كمن يرثي نفسه، ثم قال مُسْتَغْرِبًا: كل الكائنات تحيا وتموت من دون اهتمامٍ بلحظة غيابها عن الحياة، إلا الإنسان "دايمًا بسبب الموت عامل دوشة"! ثم استدعى ذكريات اعتقاله المُبَكِّر فجأة، وحكى لي وقائع تجلب الحسرات على حال هذا الوطن. ثم قال: في الإعتقال عرفتُ أن اليقين التام لا يوجد في جانبٍ واحد، سواءً كان الماركسية أو غيرها. وكما أدركتُ في فترة اعتقالي أن ظني القديم بأن قوانين المادية الجدلية والمادية التاريخية تكفي وحدها لتفسير الماضي والحاضر، كان ظنًا أقرب إلى الوهم منه إلى الحقيقة.

وخلال سنواتِ طِوال من المعرفة الوثيقة بسامي خشبة، لم يقع بيننا في أيِّ يومٍ أيُّ خلافٍ، ولم أرَ منه ما يستوجب الخجل أو الإعتذار، ولم أرَه يومًا مُتَكَالِبًا على جمع المال مثل كثيرٍ من أقرانه السابقين (اليساريين) ولم أجده في أيِّ وقتٍ مُتَسَاخِفًا، من أجل الحصول على نفعٍ ماديٍّ أو منصبٍ. مع أنه كان يعيش حياةً بسيطة الحال، وإن شئت الدقة قلت إنه كان أقرب للزهد في المتاع الدنيوي وفي المناصب. كما كان مُسْتَقِيمًا في سلوكه العام، ليس بحكم الوازع الديني وإنما الخُلُقِيّ (والبَوْنُ بينهما شاسع) أو لأنه، حسبما كان يقول وهو يضحك: أصل أنا من برج الميزان .. كنتُ أترَدَّدُ عليه كثيرًا في أثناء رئاسته

لهيئة المسرح، وفي يوم دَخَلَت عليه إحدى المُدِيْرَاتِ من مُرْتَدِيَاتِ الحِجَاب (كانوا ينادونها: الحاجة) لتحصل على توقيعه على بعض الأوراق فقال لها: ليس الآن. عادت "الحاجّة".. بعد ساعة بالأوراق نفسها فقال لها مثلما قال أول مرة، فتذمَّرت بلطفٍ وهي تقول: يا أستاذ سامي دي مكافآت لجان "الدفاع المدني والحريق" لك ولنا! قال لها: عارف، وعارف كمان إن اللجنة لم تجتمع. قالت: عادي يعني، طول عمرنا بناخد المكافآت دي. قال ما معناه: لن أوقِّع، وأنا لست متدينًا مثلك يا حاجة.. لكنني لن أستحلّ هذا المال، ولا أعرف كيف يمكنك أن تأخذي أجرًا على عمل لم تقومي به.

يومها، خرجت السيدة "الحاجّة" غاضبةً، وبعدها بسنواتٍ قليلة خرج "سامي خشبة" من دنيانا راضيًا، بعدما قدَّم الكثير من الإسهامات الفكرية والثقافية التي لم يكن يهتم بالحديث عنها، ولم يتحدّث عنها من بعده أحدٌ.. رحل عنا سامي خشبة، وبقيتُ من بعده أتذكره كثيرًا، فأُردِّد في سرّي قول أمل دنقل:

كل الأحبّة يرتحلون،

فترحل عن العين شيئًا فشيئًا،

ألفةُ هذا الوطن.

مصطفى محمود

ارتبط اسم الدكتور "مصطفى محمود" في أذهان المصريين والعرب، بالبرنامج التلفزيوني الشهير الذي كان يقدِّمه تحت عنوان: العلم والإيمان. كما ارتبط في أذهان قرَّائه الكثيرين بحالة التحوُّل الفكري من الإلحاد (والشيوعية)

إلى الإيمان المتماس مع حدود التصوف والنزعة الروحية. ومع ذلك، فإن تجربة "مصطفى محمود " كما عايشتها ورأيتها عن قربٍ، كانت أكثر ثراءً بكثير من تلك الصورة العمومية عنه في أذهان الناس.

وقد نال الدكتور مصطفى محمود شهرةً واسعة بين معاصريه ومعاصرينا، فكان اسمه مِلءُ الأسماعِ حتى حين توقَّف برنامجه التلفزيوني (أو بالأحرى: أُوقِفَ) للسبب الذي سنعرفه بعد قليل. ولكن، وعلى الرُغْمِ من هذه الشهرة وذاك الإنتشار، عاش الرجل العشرين سنة الأخيرة من حياته وحيدًا، مُنْفرِدًا، مُتَفَرِّدًا في مسلكه الخاص الذي غلب عليه التقشفُ والزهدُ والإنزواءُ في مسكنه المتواضع الشبيه بصوامع النُسَّاك.

فوق مسجد مصطفى محمود بالمهندسين، بالقاهرة، وهو المسجد الذي أراد أن يُحْيِيْ به ذِكْرَى والده فأسماه "مسجد محمود" إلا أن الناس في بلادنا أصَرُّوا على نسبة المسجد إليه هو، فصار يُعرف بمسجد مصطفى محمود.. فوق سطح هذا المسجد الكبير، المُطِلُّ على شريطٍ أخضر يفصله عن شارع جامعة الدول العربية، عاش مصطفى محمود في شقةٍ لا تُطِلُّ على أيِّ شيء، لانزوائها فوق الطرف السطحي الأبعد عن الشارع الواسع. وكان مسكنه هذا، أضيق من تلك الشقق المُسَمَّاة "مساكن شعبية" فليس فيه إلا مطبخٌ بائس على يسار الداخل، وحجرةٌ إلى جهة اليمين تحوي (بصعوبة) سريرًا وخزانة ملابس، كلاهما صغير الحجم. سألته مرة: لماذا لا تسكن في مكانٍ واسع؟ فابتسم ابتسامته الساخرة المشهورة، وهو يقول: هنا أرتاح أكثر.

لا أدري من أين جاءني هذا الخاطر، الذي تعرَّفت بسببه على الدكتور مصطفى محمود، في بداية التسعينيات. كنتُ أعرف أنه أقام فوق سطح المسجد، قاعة مُحَاضَرَات ومكتبة (ومَرْصَد فلكي) وكان قد صدر لي كتابٌ في

التصوف، فأردتُ إهداء نسخة منه لهذه المكتبة. ويوم تسلمتُ من الناشر النسخ الخمس المُهْدَاةُ للمؤلف، مررت على المسجد لأترك هناك نسخةً منها (كان عنوان الكتاب: الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي) وفي المدخل الجانبي الواقع بين المسجد والمستشفى، قال لي الرجل الجالس هناك بعد اتصال تليفوني أجراه، أن بإمكاني الصعود إلى سكن الدكتور وإعطائه الكتاب بنفسي؛ لأنه يريد أن يراني. صَعَدْتُ إليه، فوجدته في جلبابه المتواضع الذي بقيت أراه مرتديًا إياه، أو شبيهًا له، طيلة السنوات الطوال التالية. وفي نهاية تلك الجلسة الأولى التي امتدّت قرابة ساعة قام د.مصطفى محمود لتوديعي عند باب الشقة، الباب القريب من كل ما فيها، ودعاني ساعتها باللقب الذي ظلّ يناديني به حتى وفاته: مولانا. كنتُ آنذاك في الثلاثين من عمري، وكان هو في حدود السبعين. قلت له مرة: لماذا تناديني بذلك؟ قال: الذين آمنوا بعضهم أولياء بعض! وضحك.. وفي مرة زارني في منزلي بالإسكندرية، وفي وقت الغداء نظر إلى الأسماك الموضوعة على "السفرة" وقال إنه لو أكل من هذه المائدة الشهية فسوف يمرض، لأن لديه مشكلة في معدته. قلتُ: كُلْ، ولا تَخَف! أعجبه الطعام فأكل كثيرًا ثم نزل من عندي قاصدًا القاهرة. وفي المساء اتصلتُ به لأطمئن على وصوله، وعلى حال معدته، فوجدتُ صَوْتَهُ مُبْتَهِجًا وهو يقول مازحًا ما نَصُّهُ: أنت مولانا صاحب الكرامات، طلع كلامك صحّ، أكلت كتير ولم أشعر بأيّ تَعب.. وعلى هذا النحو، كان الرجل دومًا تلقائيًا وبسيطًا في الأمور الحياتية، مع أنه كان عميقًا في الأمور الفكرية والتصوفية.

ذات يوم سألته إن كان في مرحلة (اليسار) من عمره، يشعر بالمعاني الروحية التي عرفها بعد تحوُّله الروحي؟ فقال ما نَصُّهُ: مفيش حد محروم، لكن ساعات الناس بتكون في غفلة، لحدّ ما يفوقوا.. أيامها كانت (هوجة) التبرع بالأعضاء بعد الوفاة، قد بلغت ذروتها، وجعلتها الجرائد ووسائل الإعلام

موضوع الساعة. ولما سألته عن موقفه منها قال: والله يا مولانا كل واحد حُرّ، إنما أنا شايف الجسم ده أمانة من الله، والأفضل أن أرد له الأمانة بعد الموت كما هي عليه، إزاى اتبرَّع بغير مِلكي.

وطيلة السنوات التي عرفت فيها د. مصطفى محمود لم أره يومًا يشكو من أيِّ شيءٍ دُنْيَوِيّ. حتى حين كانت السفارة الإسرائيلية تُنَاصِبه العداء، سخافةً، وترسل شكواها الكثيرة من مقالاته بالأهرام إلى وزارة الخارجية ورئاسة الجمهورية. وكان يؤكد لي، أن اليهود هم السبب الأساسي في منع برنامجه: العلم والإيمان. وحين كان اليساريون يضايقونه بشتى أنواع الحِيَل، كان يحكي لي عما يجري معه من مُضَايَقاتٍ، بأنفاسٍ هادئةٍ وبلا انفعال، مُتَعَجِّبًا من هؤلاء الذين (حسبما كان يصفهم وهو يضحك) يتشبَّهون بالقرود.

وعندما تعرّضتُ لمؤامرة خسيسة في منتصف العام ١٩٩٧ إذ تحالف في العتمة جماعةٌ من شرار الخلْق لإيذائي والإضرارِ بي، في تلك السِنّ المُبَكِّرَة، انفضّ مِن حولي معظم الناس، فلم أجد منهم وليًّا مُوَاسِيًا ولا نصيرًا. أيامها لم يؤازرني في المحنة إلا ثلاثة (فقط) من الأخيار، ليس بينهم أيُّ صِلَةٍ أو توافقٍ في شيء، إلا أنهم رموزٌ مصرية: د. حسن حنفي، وسامي خشبة.. ود.مصطفى محمود الذي كان يناقشني في تفاصيل هذه المؤامرة، ويلفت نظري بإصرارٍ إلى أن مُحَرِّك هذه المؤامرة، ليسوا هم هؤلاء الأشخاص الظاهرين الذين أظنهم، وإنما "مافيا المخطوطات" لأنني على حدّ قوله: قطعت رزقهم الحرام حين قمت بفهرسة المخطوطات ووجّهت الأنظار إلى عمليات النهب المُنَظَّمَة لنوادر المخطوطات، فكان لابد أن يثأروا منّي!.. أيامها كنت في الثلاثينيات من عمري، وأيامها كتب د. مصطفى محمود مقالته في الأهرام التي جعلها بعنوان

(عاشق المخطوطات) واختتمها بقوله المُوَاسِي: لن نعرف أبدًا قيمة يوسف زيدان، ولن يعرفها إلا رَبٌّ كريمٌ يعلم قيمة الإخلاص..

وفي الفترة الأخيرة من حياته، كان الدكتور مصطفى محمود قد اقترب عمره من التسعين (وُلِد سنة ١٩٢١ وتوفى عام ٢٠٠٩) فلازم الفراش حينًا في شقته المُتَقَشِّفَة، ثم نقله أولاده إلى منزلٍ آخر حديث، يقع في الجهة المقابلة من مسجده ومستشفاه (الذي كان يُعَالِجُ فيه الفُقَرَاءُ بالمجَّان، أو بأقَلِّ تكلفة) ولما زرته في منزله الجديد، لم أرَه. فقد كان شارد الذهن في حضرة الغياب، إذ كان يستعد أيامها لرحيلة الأخير الذي جاء وديعًا كصاحبه، فقد نام بهدوء.. ساكنًا.. ولم يستفق قط من نومه.

حسن حنفي

في أواخر العام ١٩٨٧ كنتُ جالسًا في الإسكندرية، مع جماعةٍ من الزملاء الذين يدرسون الفلسفة، حين دخل علينا أحدُ الأصدقاء وقال بالعامية وهو مبتهجٌ: حسن حنفي رجع مصر، وناوي يعيد جلسات الجمعية الفلسفية المصرية، كل شهر، في جامعة القاهرة.

كنت أعرف اسم "د. حسن حنفي" من بعض كتاباته، وأود أن أعرفه شخصيًا. وكنتُ أشكو لنفسي من أنني لا أجد أحدًا أُحَادِثُهُ في المسائل الفلسفية، بسبب هجاج الأساتذة إلى جامعات الخليج لجمع الأموال وللإبتعاد عن المخاطر السياسية. وهكذا ذهبت إلى القاهرة يوم ندوة الجمعية الفلسفية، ثم واظبتُ على حضور الندوات الشهرية. فرأيتُ حماس "حسن حنفي" لإحياء الفكر الفلسفي في مصر، وحرصه على إنجاح الأنشطة المتعدّدة للجمعية

الفلسفية: الندوة الشهرية، المؤتمر السنوي، إصدار مجلة فلسفية.. والأهم من ذلك كله، تشجيع جيل الشباب على الدخول في المُعْتَرَكِ الفلسفيّ.

لماذا ترك هذا الفيلسوف مصر، هذه الفترة؟ سألتُ أيامها فعرفتُ الآتي: كان حسن حنفي من المعارضين لحكم السادات، فتمَّ البطشُ به كما يجري في بلادنا عادةً، حتى إنهم نقلوه وهو الأستاذ الجامع (الحاصل على درجة دكتوراة الفلسفة من السربون، وحاصل على درجة الأستاذية) إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ليعمل مُوَظَّفًا هناك. وبالطبع لم يعمل. نصحه مديره في العمل بأن يجلس في بيته "ويَكْفِ خَيْرَهُ شَرَّه" ولا يأتي إلى المقر العِقَابِي/الوظيفي، إلا لاستلام راتبه الشهريّ. كما أخبره بأنه لن يتقاضى شهريًا إلا المرتب الأساسي (الحكومي) من دون أية إضافات. يعني دراهم معدودة. فما كان أمام د. حسن حنفي إلا الخروج من مصر، مع جُمْلَةِ الخارجين من الأساتذة المغضوب عليهم.. وكأنه أراد الذهاب إلى أبعد مكانٍ ممكن، ذهب مُعَارًا لتدريس الفلسفة في اليابان!

ظل د.حسن حنفي في اليابان عدة سنوات، ثم عاد بعد مصرع "السادات" مُصَدِّقًا وعود "مبارك" في سنوات حكمه الأولى، بالعدالة واحترام القانون.. وكان مبارك يردِّد أيامها بشكلٍ دائم، في معظم خُطبه الرئاسية، تعبير: دولة القانون. لكن ذلك لم ينفع "حسن حنفي" بعد رجوعه لمصر واستقراره فيها، لاسيَّمَا حين دُعي مع المُثَقَّفِيْنَ إلى لقاء الرئيس مبارك في افتتاح معرض الكتاب بالقاهرة، وكان اللقاء منقولًا على الهواء مباشرةً (وكانت تلك هي قمة التكنولوجيا التلفزيونية) فإذا بالدكتور حسن حنفي، يُحرِجِ الرئيس مبارك ويقول له على الملأ: لا تنسَ أنك رئيس مصر، وأنك الآن في مكان أحمس ورمسيس

الثاني وعبد الناصر! فامتعض الرئيس مبارك وقال لحسن حنفي، مُتَسَاخِفًا: والسادات لأ..

كان "حسن حنفي" وأظنه مايزال، أطال الله عمره، يستخف بالحكام ولا يخضع لسُخف السُلْطَة. سواءً كان في مصر أو خارجها. حتى إنه كان ذات يومٍ .. يُلْقِي بحثه في مؤتمرٍ كبيرٍ بالمغرب، وجرى هَرَجٌ كبير وتوقفت أعمال المؤتمر لأن الملك الحسن الثاني قرَّر حضور الجلسات، وجاء فعلًا تسبقه الحاشية المُتَصَايِحَةِ بقولهم: عاش أمير المؤمنين.. فما كان من "د. حسن حنفي" وقد أحزنه اضطراب المؤتمر، إلا أن قال على الملأ بعدما عاد إليه الميكرفون: إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون.

فطردوه من المغرب، بلطف.

ولأن حسن حنفي كان شديد الحرص على إنجاح الجمعية الفلسفية المصرية، ولأنه كان يعلم أنه لا يطير أو يتطاير على أهواء الحُكَّام، ولا يميل للرئاسة الشكلية؛ فقد قام بإحياء الجمعية الفلسفية المصرية دون أن يتولى رئاستها، مُكْتَفِيًا بدورٍ كنا نراه لا يناسبه وكان يراه الأنسب، وهو سكرتير الجمعية. فكان الرئيس الأول للجمعية بعد إحيائها على يد حسن حنفي، هو أستاذي الفاضل د. أبو الوفا التفتازاني (نائب رئيس جامعة القاهرة، شيخ مشايخ الطرق الصوفية) ومن بعده صار رئيس الجمعية هو الدكتور الفاضل محمود حمدي زقزوق (أستاذ الفلسفة، وزير الأوقاف) وظلَّ حسن حنفي، دومًا، السكرتير.

ومع دوام الأنشطة بالجمعية الفلسفية، تعلمتُ من حسن حنفي وتعلّم غيري آنذاك، ما صار عندي لاحقًا كالمبادئ العامة والبديهيات. كان دومًا يقول لنا: لا يمكن أن تكون الحقيقة في جانبٍ واحد فقط، المعرفة تتولّد باحتكاك النفوس (قول أفلاطون) لا يصح حين تحس بحركة ثعبان في طيّاتِ ملابسك، أن تسأل نفسك هل هذا الثعبان ذكر أم أنثى، وإنما عليك أن تبادر إلى إخراجه أولًا، ثم انظر في ذكورته أو أنوثته ثم فكّر فيما أدخله إلى ملابسك (قول أبي حامد الغزالي) لا يصح أن تعطي الأولوية للنَّص على الواقع، فلا يولد النص مُعَلَّقًا في الفراغ (قولٌ مُستفادٌ من فلسفة كارل ماركس) لابد من التفرقة بين علوم الوسائل وعلوم الغايات (قول فقهاء أصول الدين).. وكان يقول لنا، دومًا: الفلسفة هي الرأي والرأي الآخر. وهي العبارة التي ابتذلتها لاحقًا قناة "الجزيرة" وجعلتها بابًا لإثارة الفتن، لكنها كانت تعني عند "حسن حنفي" معنىً أساسيًا هو ضرورة التفاعل الفكري، ولذلك كانت ندوات الجمعية الفلسفية المصرية تُقَامُ على شكلٍ مُحَدَّد: مُتَحَدِّثٌ أساسيٌّ غالبًا ما يكون من كبارِ الأسماء مثل د. زكي نجيب محمود، ومُتَحَدِّث مُعَقِّبْ، يكون عادة من جيل الشباب وشداة الباحثين في الفلسفة.

وذات يومٍ، قال لي "حسن حنفي" إنه يُرِيْدُنِي أن أُلْقِيَ المُحَاضَرَةَ الشهرية للجمعية الفلسفية، فاضطرب قلبي وقلت له إنني لم أحصل بعد على درجة الدكتوراة، فردَّ: لا يهم الدرجة الجامعية، المهم الأفكار. قلتُ له إنني أسكن بالإسكندرية، قال مُداعبًا: أعرف، وأعرف أنك من أهل الخطوة. قُلْتُ في أيِّ شيءٍ سأُحَدِّثُ أساتذة الفلسفة، قال: حدِّد أنت الموضوع.. وفي اليوم المُحَدَّد. ألقيتُ المُحاضَرَةَ في موضوعِ "الجمال بين الصوفية والفلاسفة المثاليين" وبعد ساعة ونصف ختمت كلامي، مُتَوَقِّعًا هُجُومًا من بعض أقراني (وهو ما حدث لاحقًا) غير أن د. حسن حنفي بدأ المناقشات بأن أعطي الكلمة للدكتورة أميرة

حلمي مطر، وكانت حقًا كالأميرات، فإذا بها تُشيع البهجة في القاعة بقولها، بالعامية، ما نصه: إنت يا ولد جبت الشطارة دي منين، غريبة إن يطلع من إسكندرية حد شاطر كده.. وسرعان ما تلقف "د. حسن حنفي" خيط الحوار، وقال وهو الأستاذ الكبير وأنا الناشئ الصغير، تلك العبارة التي ظلت لسنواتٍ تَرِنُّ في أذني وتُحَفِّزني على العمل الدؤوب، قال بالنَّص: يوسف زيدان ظاهرة ثقافية في مصر.

وقد ذكرتُ هنا هذه الواقعة، بعد مرور ربع قرن، ليعلم المندهشون من حرصي على تشجيع الشباب، واهتمامي بالحوار الدائم معهم في الندوات وعلى صفحات الفيسبوك وعبر الرسائل المُطَوَّلَة، أن ذلك من وحي "حسن حنفي" ومن فضله المُبَكِّر عليَّ، ومما تعلَّمته منه في زمن البدايات.

ولابد من الإعتراف بالفضل لهذا الرجل الفيلسوف، في الربط بين أساتذة الفلسفة السابقين عليه، وجيل الفلاسفة الناشئ الذي لم يدَّخر "حسن حنفي" جَهْدًا في رعايته وتقوية الصلة بين هذين الجيلين اللذين كانا مُنْفَصِلَيْنِ تمامًا يوم عاد من اليابان وأحيا الجمعية الفلسفية. كنا نسمع عن "محمود أمين العالم" وعن "د. زكي نجيب محمود" وعن "د. محمد عبد الهادي أبو ريدة" وغيرهم من كبار الفلاسفة، ونقرأ لهم، لكننا لم نرَهم أو نتفاعل فكريًا معهم إلا بعد إحياء الجمعية الفلسفية المصرية، وبفضل الجهد الذي بذله حسن حنفي.

وعلى عكس الأساتذة الذين حصلوا مثل حسن حنفي على الدكتوراة من أوروبا، وكنا نسميهم "المُتَأَفِّفُونَ" كان حسن حنفي استثناءً في حرصه على التقريب بين الأجيال، بوضع أسمائنا الصغيرة مع أسماء هؤلاء الكبار في جلسات الجمعية الفلسفية، ومؤتمراتها.. أيامها كنتُ أقولُ له: يا دكتور حسن، كيف سيتكلم المبتدئون في حضرة كبار الفلاسفة؟ فيقول: الصغير يكبر مع

الأيام.. أقول: ألم تلحظ أن مستوى بعض بحوث المؤتمر، دون المستوى؟ فينظر إلى بَعِيْدٍ ويقول كأنه يُحَدِّثُ نفسه، وهو يُخَاطِبُنِي بما نَصَّهُ: ها نعمل إيه يا أبو حجاج، مادام ده هوَّ مستوى الفلسفة في مصر، يبقى لازم ندعمه ونقوِّي الضعيف وننحاز له.

ولم تكن الصلة أو بالأحرى الوصلة، التي حرص حسن حنفي على تقويتها بين الجيلين السابق واللاحق، تقتصر على التفاعل الفكري في قاعات المحاضرات وعند إقامة المؤتمرات. وإنما كان يحرص على تخصيص بعض الجلسات التي يسميها "نشاط اجتماعي" في الأمسيات التالية على الجلسات الأخيرة للمؤتمرات الفلسفية، مع أن عينيه كانتا من شدة الإجهاد تنغلقان رُغْمًا عنه لثوانٍ معدودات. وإذا قيل له: لا داعي لجلسة المساء! يقول: هذا مُهِمٌ حتى تتقارب الأجيال.. ولم أكن في ابتداء الحال مُقْتَنِعًا بوجهة نظره هذه، ثم عرفت مع الأيام أهمية تلك الجلسات المسائية حين رأيت الأساتذة يسردون علينا أحيانًا بعضًا من تجاربهم الحياتية التي تبدو للوهلة الأولى خبرات شخصية، لكنها في واقع الأمر رصيدٌ إنسانيٌّ عظيم. ففي مرةٍ نسمع من "محمود أمين العالم" ذكرياته في المعتقل، وكيف كانوا يُعَذِّبُوْنَهُ مع رفقانه من اليسار المصري ويُطْلِقُوْنَ عليهم الكلاب المسعورة (حدث هذا في مصر، وليس في جُوَّنتنامو) ثم يبتسم عقب حكايته هذه الأهوال، وهو يقول إن سَّجانًا كان ينظر إليه باحترام ولا يناديه إلا بالأستاذ. ومن هذا السَّجان، حسبما سمعتُ منه، كان محمود أمين العالم (المحمود الأمين العالم) يستمد القوة.. هكذا قال لي، وسط جمع، يوم كنت في الثلاثين من عمري وكان هو قد تجاوز هو السبعين. سألته، مُنْدَهِشًا، كيف استطاع أن يعبر هذه الخبرات المؤلمة ويحتفظ بهذه الإبتسامة التي لا تفارقه. فقال: طبعًا نبتسم، لأننا ننسى الإساءة من البلد الذي نحبه.

وكان مَنْ يرعاهم حسن حنفي من الصغار آنذاك، كثيرون. منهم: علي مبروك، رمضان بسطاويسي، يحيى ذكرى (صاروا لاحقًا أساتذة) وكاتب هذه السطور. فلما أصدر د. حسن حنفي كتابه الشهير "الاستغراب" الذي يؤسّس فيه لاتجاهٍ فكريٍّ جديد، يواجه به اتجاه "الاستشراق" الأوروبي، أقيمت بآداب القاهرة جِلْسَةٌ لمناقشة الكتاب، وانهمكنا في نقده والرد على التفاصيل والتفاريع الصغيرة التي ينشغل بها الصغار. ظل حسن حنفي يسمعنا باهتمامٍ حتى انتهينا من صَخَبِ الإعتراض، ثم قال بهدوءٍ رائق: يعني هذا كلام مهم، ويمكنكم اعتباري "بلدوزر" تحتاج بعض مفاصله إلى ربط، وأنتم تفعلون ذلك.

هكذا تحدَّث معنا حسن حنفي ونحن صغار، فلما كبرنا تحيرَّنا فيه: هل كان حقًا "بلدوز" أم نسرٌ يحلِّق بنا في سماوات الفكر!

وعندما بدأت القِطَّةُ الأمريكيةُ في التهام صغارها "القاعدة، طالبان" عقب نجاح هؤلاء في إزاحة الروس عن أفغانستان، بدأ الإعلامُ الغربي في رسم صورة ذهنية تجعل الإرهاب مُرْتَبِطًا بالضرورة بالإسلام، كأن أصحاب الديانات الأخرى ملائكةً هبطوا من السماء ليمشوا هَوْنًا على الأرض بأجنحتهم، والمسلمون وحدهم هم الإرهابيون. وراجت أيامها صورة "أسامة بن لادن" وإلى جواره دومًا البندقية الآلية، كأنها الرمز الدال على المسلمين. وفي تلك الفترة التي دامت لسنوات (وكانت مُقَدِّمَةً لما نشهده الآن من اهتراءٍ لبلادنا) كانت الحكومات العربية والإسلامية غافلةً تمامًا عن هذا التمهيد الدعائي، وغير مُكْتَرِثَةٌ بالصورة التي يرسمها للإسلام والمسلمين. وكأن "حسن حنفي" وحده، كان المسؤول عن تصحيح هذه الصورة الذهنية، بإظهار العمق الإنساني للإسلام. فظلّ طيلة هذه السنوات يجوب أنحاء الأرض (دون أن يدعمه أحد) مُتَحَدِّثًا في المؤتمرات الدُوَلِيَّة والندوات الحاشدة، عن الصورة الأخرى (الناصعة) للإسلام

والمسلمين، في وقتٍ كان المتأسلمون في بلادنا يتهمونه بالعداء للإسلام! وقد رأيته أيامها مُنهكًا من السفر المتوالي، حتى إنه في مرة ذهب لإلقاء محاضرة عن "الإسلام" في جنوب أفريقيا، وطار من هناك ليُلقي مُحاضرة أخرى في السويد الواقعة بشمال العالم. وكان أحيانًا، يُشارِكُ في الشهرِ الواحِدِ بعشرة مُلْتَقَيَاتٍ فِكْرِيَّة أو أكثر (بأنحاءِ مُتَعَدِّدَة من العالم) دون أن يُخِلَّ بواجبه تجاه عمله كأستاذ للفلسفة بآداب القاهرة، وكمُحَرِّك أساسي للواقع الفلسفي في مصر.. كان يخبرني بأنه أمضى ليلة واحدة في بلدٍ ما؛ وسافر في الصباح التالي إلى بلدٍ غيره لإلقاء محاضرة أخرى، وعاد في اليوم الثالث إلى مصر ليلحق بهذه الندوة. أقولُ له، وكان قد تخطَّى الستين من عمره، أن هذا الجهد الجهيد كثيرٌ وغيرٌ مأمونِ العواقب. فيقولّ بالحرف: نعمل إيه، مفيش حد تاني بيقوم بالدور ده، وصورتنا في العالم سيئة جدًا.

وهناك المزيد من ملامح الثراء الإنساني في شخصية حسن حنفي، حسبما رأيتها وحسبما حكى لنا عن وقائعها العديدة، لكن المقام هنا يضيق عن سردها. فمن ذلك: رحلته على دراجة (عقب حصوله على الثانوية العامة) وزيارته لكل القُرَى المصرية .. تَفَاعُلَهُ العميق مع أساتذته في السربون، أعني المستشرقين العِظَام من أمثال: لوى ماسينيون، هنري كوربان، لاووست، جال فالَ، جون فييت، بول ريكور.. وغيرهم من الذين تعلَّم منهم، قبل أن نتعلَّم منه.

ولن يتسع المجال هنا لسرد ما رأيته وسمعته، خلال ربع قرن، من حسن حنفي الذي طالما اتهمه الجهلاء في دينه. وهو الذي يقول: الدين مظلوم مع السلطة التي تتخذه شعارًا.. وهو الذي كثيرًا ما هاتفته في منزله، فوصلني صَوْتُ الشيخِ "عبد الباسط عبد الصمد" وتلاوته البديعة للقرآن، وحين أسأله عن ذلك

يقول: طبعًا طيلة عمري أسمعه، فهو قيثارة السماء، وفي صوته فَنٌّ .. وروحانيةٌ .. وفلسفة.

هكذا يتحدث حسن حنفي.

التفتازاني

لكل قاعدة استثناء. وهذا الإستثناءُ لا ينفي القاعدة، وإنما يؤكّدها، لأنه يثبت بالنُدْرَةِ حُكم الشيوع. والشائعُ في حياة الناس، قديمًا وحديثًا، هو أن الشخص الذي يشتهر شأنه في أي مجال، له لا محالة أعداءٌ ينتقصون من قدره ولو بالزور والكذب، تنفيسًا عن غِلٍّ نفوسهم. ومثلما يحظى مثل هذا الشخص بمن يمدحه، يُبتلى ببعض الكارهين الذين يتعقبونه بالقدح ويجتهدون في التقليل منه، أو في تدميره بالكامل إذا استطاعوا. ومن هنا، يدل مقدار اختلاف الناس حول شخصٍ، على قدر هذا الشخص وأهميته.. ولكن، كان الإستثناء الوحيد الذي رأيته لهذه "القاعدة" في حياتنا المعاصرة، هو الدكتور " أبو الوفا التفتازاني" الذي قابلتُ كثيرين يحبونه، وقليلين محايدين تجاهه (لأنهم لا يعرفونه جيدًا) ولم أجد أحدًا يقدح فيه أو يجرؤ على الانتقاص من قدره. فكأنه حظى بنصيبٍ من المعنى الوارد في الآية القرآنية { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي} وفي الحديث النبوى الذي يقول ملخّصه: "إن الله إذا أحب عبدًا من عباده.. يُوضع له القبول في الأرض" . وهذا الحل ينطبق فقط على عددٍ محدودٍ من الناس الذين سطعت نجومهم قديمًا أو حديثًا، ولا أتذكّر منهم الآن إلا اثنين فقط: الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني، المتوفي سنة ٥٦١ هجرية. وشيخ مشايخ الطرق الصوفية، أستاذ الفلسفة والتصوف، نائب رئيس جامعة القاهرة

"د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني" المتوفي قبل عشرين عامًا، وبالتحديد سنة ١٩٩٤ .

نشأ الدكتور "أبو الوفا" يتيمًا، إذ توفى أبوه (شيخ الطريقة الغنيمية) وهو لم يزل طفلًا في السادسة من عمره، لكن صديق والده "د. محمد مصطفى حلمي" الأستاذ الجامعي، صاحب الكتاب البديع (ابن الفارض) تعهّد الطفل برعايته العلمية، وألحقه بقسم الفلسفة بكلية الآداب/جامعة فؤاد الأول، جامعة القاهرة حاليًا. ثم أشرف على رسالته للدكتوراة التي نشرها د.التفتازاني لاحقًا، في كتابٍ صار مرجعًا عنوانه: ابن سبعين وفلسفته الصوفية.. وهو الكتاب الذي يُعَد من دون مبالغة، هو أهمُّ ما كُتِبَ عن هذا الصوفي الأندلسي البديع، الغامض في مفرداته، العارم في رؤاه وتجربته الروحية.

وقد تولَّى د. أبو الوفا مشيخة الطريقة الصوفية التي كان أبوه شيخًا لها، ثم صار لاحقًا شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر. وفي مسارٍ مُوَازٍ ترقَّى في وظائفه الجامعية، حتى صار نائبًا لرئيس جامعة القاهرة للدراسات العليا والبحوث. وقد عرفته وهو في هذا المكان وتلك المكانة، بالطريقة التي سأحكي طرفًا منها فيما يلي، لأنها تدل على قيمة هذا الرجل، وعلى تواضُعه الجَمّ، وتكشف عن جزءٍ مُهِمٍّ من الجانب الإنساني في شخصيته.

في العام ١٩٨٤ جاءت فتاةٌ فاضلةٌ لتدرس معنا في الإسكندرية بالمرحلة التمهيدية للماجستير، وعرفنا أنها من أقارب الدكتور أبو الوفا التفتازاني. وبعد تردُّدٍ، قلت لها يومًا إنني أريد منها إيصال رسالةٍ خاصةٍ له، فيها بعض النقاط المُتَعَلِّقَة بكتابه "ابن سبعين" فوافقت الفتاة على تسليم الرسالة. كنتُ بحكم السن المُبَكِّرِ مُنْدَفِعًا، فكتبت أربع صفحات فيها اعتراضات على ما أورده "د. أبو الوفا" في كتابه، وقَدَّمْتُ تفسيرات خاصة لمعنى ودلالة العنوان الغريب الذي

اختاره "ابن سبعين" لأهم كتبه وأكثرها اشتهارًا: بُدُّ العارف، وحقيقة المُحقِّق المُقرَّب الكاشف.

في الأسبوع التالي، تلهفتُ قبل موعد المحاضرة على معرفة رأي "د. أبو الوفا" فيما أرسلته له، مع شيءٍ من الشك في أنها لم تصل أو وصلت ولم يهتم بها.. فانتظرتُ الفتاة عند مدخل كلية الآداب بالشاطبي وهممتُ إليها حين رأيتها، سائلًا إياها عمّا إذا كان قد استلم الرسالة. فقالت: هوَّ عاوز يشوفك. لم أستطع صبرًا، وفي الصباح التالي ذهبت إلى القاهرة وتحت قبة جامعتها التقيتُ بالشيخ، الأستاذ، الذي أخبرته "السكرتيرة" بوجودي فخرج بنفسه ليستقبلني، فاندهشتُ من تواضعه. واندهشتُ أكثر من اهتمامه، حين أخرج من درج مكتبه رسالتي وراح يناقشني فيما ورد فيها. امتدّ لقاؤنا الأول هذا، أكثر من ساعةٍ عُدْتُ بعدها إلى الإسكندرية فَرِحًا، ومُفْعَمًا بمشاعر قوية لم تَغِب عن خاطري طيلة هذه السنوات الطِوَال، حتى بعدما توثقت صلتي بالدكتور "أبو الوفا" وتكرّرت زياراتي له.

وصار الدكتور التفتازاني أستاذًا مباشرًا لي، حين ناقشني في الرسالتين اللتين حصلت بهما على درجتي الماجستير والدكتوراة، فكان في كلتا المناقشتين يفيض برفقٍ بالمعرفة العميقة في مجال التصوف والصوفية، ويُضفي على المكان من رحيق روحه المُحَلِّقة عاليًا بأجنحة المحبة. وكان رحمه الله، هو الذي أوصى بنشر كتابي "عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية" فنُشر الكتاب في سلسلة "أعلام العرب" التي كانت تُصْدِرُهَا هيئةُ الكتاب، وكان يكتب فيها كبار الأسماء عن كبار الأسماء. وكنتُ آنذاك في الخامسة والعشرين من عمري.

ومع أن الدكتور التفتازاني كان متخصّصًا في دراسة الفلسفة الصوفية، العميقة، ولغة "ابن سبعين" المُوْغِلَة في الرمزية والاستغلاق. إلا أنه كان حريصًا على تبسيط المفاهيم الصوفية بأبسطِ العبارات، وكثير الإستشهاد بكلمات ابن عطاء الله السكندري (حكيم الصوفية، صاحب كتاب الحكم العطائية) وهو الذي نصحني بعبارته الذهبية التي التزمتُ بها في سنوات الإبتداء. قال: ادفن وجودك في أرض الخُمُول، فما نبت مما لم يصلح دفنُه، لا يتمُّ نتاجه.

ومعنى عبارة ابن عطاء الله، للقارئ غير المتخصّص، هو أن المبتدئ يكون كالبذرة. ولذلك يتعين عليه التواري بقدر ما يستطيع ولا يسعى لجذب الأنظار إليه أو استجلاب الشهرة، لأنه يحتاج الكُمُونَ اللازِمَ للنضج. والبذرةُ التي لا تُدفن جيدًا، قد تورّقُ مؤقتًا لكن ثمارها لن تأتي، لأن نبتها لن يكتمل، لأن جذورها لم تمتد. وهذه واحدة من قواعد التربية الصوفية، وهي في الغالب تكون لأهل البدايات (المريدين) أما الدكتور التفتازاني فقد التزم بها حتى وهو "شيخ مشايخ الصوفية" فكان لا يسعى للشهرة والصخب، أو قليلًا ما كان يُلبّي دعوات الظهور التلفزيوني. مع أن أيامه حفلت بالحفاوة الإعلامية بهؤلاء السطحيين الذين اشتهروا باسم "الدعاة" ولم تُعجبهم التسمية الفعلية لهم (الوعّاظ) وكانوا يملأون أسماع الناس بكل غَثٍّ وسمين، حسبما بدا له لعلمهم الشحيح. وفي الوقت ذاته، كان الدكتور التفتازاني يتوارى عن الصخب العام، وينأى بنفسه عن المعتركات الإعلامية الجوفاء، وعن اللهاث وراء المناصب السياسة على النحو البائس الذي رأيناه في بعض "المشايخ" الذين ينسبون أنفسهم إلى التصوف لكسب رضا الناس عنهم.

وبعيدًا عن هذا المسلك العام، ولسنواتٍ طِوَالٍ امتدت قُرابة عشر حُجج، رأيتُ من "د. أبو الوفا التفتازاني" ورأيتُ فيه، كل ماهو فاضلٌ وراقٍ. وقد كثُرَت

لقاءاتي به، بعدما صار رئيسًا للجمعية الفلسفية المصرية، التي كان يدعم عملية إحيائها على يد د. حسن حنفي، وكان -رحمه الله- كثير التبرُّع لها من ماله الخاص.. وعلينا هنا أن نلاحظ أمرًا دقيقًا، هو أن الاختلاف الفكري والمنهجي بين د.أبو الوفا التفتازاني (المتصوِّف، الهادئ) والدكتور حسن حنفي (اليساري، المُتَدَفِّق) لم يكن عائقًا يحول دون التعاون المعرفي والأكاديمي، ولم يَسْعَ أحدهما لإملاء توجهاته الخاصة على الجمعية الفلسفية المصرية، التي خَفَتَ حُضُورُهَا بسبب وفاة الأول وشيخوخة الآخر ومرضه.

وخلال السنين التي عَرِفْتُ فيها د.التفتازاني، وجدتُ فيه التَجَلِّي الأتم لما يجب أن يكون عليه المُتَصَوِّف. فهو هادئٌ دومًا، عميقُ النظرة والفكرة، مستغنٍ عمّا في يده، وغير ساعٍ لما ليس بيده، وصابرٌ على صروف الزمان. حتى حين أُصيبَ في أواخر عمره بنوعٍ من الفالج (الشلل النصفى) الخفيف فاختلف نصف وجهه بسبب المرض، ظَلَّت عيناه باقيتين على حال الصفاء الأول، تفيضان بالسكينة التي طالما رأيتها تنعكس على صفحة عينيه الصافيتين. وفي اللحظة التي نَشَرَت الصحف خبر وفاته، بعد حياةٍ حافلة بالروحانيات الصوفية وبالعمل الأكاديمي الراقي وبالسيرة الشخصية العَطِرَة، تذكرتُ من فوري المعنى الذي ورد في الحديث: إن الله لا ينتزع العلم من الأرض انتزاعًا، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء.

أبو العِزّ

عندما شرعتُ في الكتابة عن الرموز المصرية الوهَّاجة، لتكون إطلالاتٌ متواليةٌ على الشخصيات حيث "الجانب الإنساني" المنسي في أيامنا هذه، عساها تصير نوافذ لرؤية هذه الشخصيات (الرموز) على نحوٍ أكثر نُصُوعًا

وإسهامًا في إثراء معرفتنا بهم، ومن ثمَّ استفادتنا منهم. كان المبتغى أن أعود القهقري من أيامنا الحالية إلى بدايات النهضة، الحديثة لمصر، ولكن بدا لي أن الكلام عن المعاصرين لنا، أجدى وأكثر فائدة. فرأيتُ أن أستكمل الكلام في هذا الفصل، عمن عاصرتهم من الرموز المصرية ورأيت في حيواتهم جوانب إنسانية مُسْتَتِرَة، ودالَّةً في الوقت ذاته، مُتَأَسِّيًا في ذلك بما فعله ابن حجر العسقلاني في كتابه الشهير، الذي يدل عنوانه البليغ على محتواه: إنباءُ الغُمر بأبناء العُمر.. ثم أُخَصِّصُ الفصل التالي على هذا، الكلام عن رائد النهضة "رفاعة الطهطاوي" .. وسوف يكون الكلام فيما يلي عن مُنَاضِلٍ مِصريّ عرفتُهُ عن قُرب، ورأيتُ منه ما يستوجب الإظهار، على أمل أن تكون سيرته نِبْرَاسًا نهتدي بضوئه في غمرة الظلام المحيط والإحباط المستولي على كثيرٍ منا، في أيامنا الباهتة هذه.

سمعت اسم "أبو العز الحريري" أول مرةٍ حين كنتُ تلميذًا في المرحلة الإعدادية، وكنتُ كعادة الصبيان في ذلك الزمان، ألتقي بأقراني والأصحاب في الأمسيات. ليس في (كافيه) لأن الكافيهات لم تكن بعد موجودة، وليس في (مقهى) لأن المقاهي كانت لمن هم أكبر مِنَّا سنًا، وليس في (نادي) لأن المنطقة الشعبية السكندرية التي نشأتُ فيها، لم يكن بها أيُّ نوادٍ.. ولذلك كنا، كأمثالنا، نقف في الأُمْسِيَاتِ على النواصي وتقاطعات الشوارع (لم أكن أعرف أن اسمها الفصيح: العَرَصات).

وفي ليلةٍ رائقةٍ كنا واقفين على آخر ناصية بشارع "راغب باشا" الواقع عند التقاء الأحياء الثلاثة الشهيرة: مُحَرَّم بك، غيط العنب، كرموز. ومرَّ علينا اثنان من المخبرين (كان المخبر معروفًا بهيئته النمطية: البالطو، البدانة، المسدس البادي من تحت ملابسه) واقترب المُخْبِرَانِ، وعلى غير العادة ابتسما

وهما يقولان لنا، بالعامية طبعًا: شفتم ياولاد المُصِيْبَة، فيه واحد شيوعي اسمه أبو العز نازل انتخابات مجلس الشعب، والناس الطيبة مش عارفين إن الشيوعيين دول بيناموا مع اخواتهم البنات بالليل، قولوا لأهاليكم الكلام ده علشان ياخدوا بالهم من الواد الشيوعي اللي عايز يترشح، هو اسمه أبو العز الحريري..

كان "أبو العز" الذي يعمل آنذاك بوظيفة مُتَوَاضِعَة بشركة الغزل والنسيج، قد ترشَّح فعلًا ليكون نائبًا للشعب في البرلمان عن فئة العمال، في الدائرة المُرَشَّح فيها رئيس الوزراء ممدوح سالم. وقد رأت الحكومة أيامها أنه شخصٌ غيرُ مرغوبٍ فيه، لجرأته، أو بحسب التعبير الحكومي القديم: لجراته على أسياده. بينما كان "أبو العز" يرى أنهم فاسدون، وليسوا أسيادًا إلا بالمعنى "العفاريتي" الواجبة مقاومته.. وبعد مرور عدة أيام على الدَعَايَةِ السوداء التي سمعتُها من المخبرين، رأيتُ "أبو العز" في صلاة الجمعة بمسجد "السمَّاك" بغيط العنب يُصَلِّي مع الناس، ومعه شعار حملته الإنتخابية: فوطة وقطعة صابون وشبشب (لزوم الإعتقال الوارد حدوثه في أيّ لحظة).

وبعد مرور عدة أيام على الصلاة الجامعة، رأينا أبو العز الحرير فجأةً واقفًا بقامته الطويلة إلى جوارنا على الناصية، في بداية المساء، وهو يبتسم قائلًا لنا ونحن الصغار: مساء الخير يا رجالة.. فسألته من فوري، دون تريث: إنت عندك إخوات بنات! فابتسم ولم يرد، ولم يفهم بالطبع سرَّ هذا السؤال من صَبِيّ في الرابعة عشرة من عمره.. وكان يقف معنا صَبِيٌّ من أقراننا، أعرج (اسمه: عادل الطبُّاخ) وكان قد هجر الدراسة لتوّه ليعمل في مطعم ابيه. فسأله: إلا يا أبو العز، انت فعلًا شيوعي؟ رد عليه بلطف: لأ يا حبيبي، أنا بس بدافع عن الفُقرا والمظلومين.

والتهبتِ الحملة الإنتخابية، فصارت شعواء شعثاء، حتى جاء يوم الإدلا، بالأصوات.. وعلى الطريقة السكندرية المعروفة بالمعارضة العتية، وقف الفقرا، والمظلومون مع "أبو العز" فلم تستطع الحكومة في "عِزّ" أيام تزوير الإنتخابات، أن تُسقطه أو تتلاعب في الصناديق.. لماذا؟ لأن ثلاثة وعشرين الف عامل وموظف في شركة الغزل والنسيج، ذهبوا زُرافاتٍ وأعطوا أصواتهم الكاملة للمُناضِل الذي يعرفونه عن قُرب.

صار "أبو العز" فور إعلان النتيجة نائبًا بالبرلمان، لكنه لم يفرح بلحظة فوزه ولا فرح أحد ممن يحبونه؛ ففي غمرة احتفاله بالفوز وسط الناس، دَسّ عليه (جزارٌ) معروفٌ في المنطقة ومشهور بصلته الوثيقة بالحكومة، جماعةً من صبيانه المتشردين الذين هاجموا "أبو العز" بسكاكين طويلة، وأرادوا ذبحه فلم يتيسَّر ذلك لهم. لكنهم يومها أصابوه في وجهه بهذا الجرح الطولي الغائر. الذي ظَلَّ واضحًا حتى يوم وفاته، على الرُغم من مرور قرابة أربعين عامًا.. ولم يرتدع أبو العز، وظلّ طيلة هذه السنوات الأربعين، مُناضِلًا سياسيًا عتيًا لا يهاب التهديد ولا يميل لمن أراد شراءه، مُكتَفِيًا برزقه المحدود من محل لبيع الأدوات المكتبية، يُدِيرُهَ هو وزوجته، بشارع الترام بمنطقة محرم بك.

وبعد مرور سنواتٍ طِوَالٍ، جمعتني الصداقةُ مع "أبو العز" أو بالأحرى جمع بيننا الهمُّ العام والإنتماءُ لمنطقةٍ سكندريةٍ واحدة.. ولما اندلعت في بداية التسعينيات حوادثُ الإرهاب المُتَأسلِم ضد المسيحيين، في عموم النواحي المصرية، فكادت تقع الفتن التي لا آخر لها. قمنا بتشكيل "لجنة الوحدة الوطنية" وكان معنا نخبة من الشخصيات السكندرية اللامعة، المعروفة بالنزعة الوطنية، كان منهم: د.محمد رفيق خليل، د. هشام صادق، المستشار وليم فلتاؤس، د. كميل صديق، أحمد رفيق الغرياني.. ثم انضم إلينا من القاهرة: د. ميلاد حنا، أسامة أنور عكاشة، أحمد حمروش. وقامت "اللجنة" أيامها بما لا

حصر له من فعاليات جماهيرية وأنشطة تنويرية (لقاءات مع الناس في الأحياء الشعبية، محاضرات عامة، لافتات بعرض الشوارع الرئيسة بالإسكندرية، موائد إفطار رمضاني تجمع المسلمين والمسيحيين، زيارات للكنائس في المناسبات.. وغير ذلك) وبطبيعة الحال، وحسب المُعتاد في بلادنا،لم تدعم الحكومة آنذاك أيَّ عملٍ من أعمال اللجنة. ولم نكن ننتظر دعمًا حكوميًا، أصلًا، وإنما كُنا نقوم بتمويل هذه الفعاليات من حُرِّ مالنا، وكنا نُعاني الأَمَرَّيْنِ في الحصول على الموافقات "الأمنية" على إقامة الفعاليات. وكان أبوالعز حسبما كنا نسميه آنذاك هو "دينامو" هذه اللجنة، مع أنه أيامها كان مُبعدًا من عضوية مجلس الشعب، لكنه كان يُحِبُ أن يدعو نفسه ويدعوه الناس بصفة: نائب الشعب. ولطالما توالت مُضَايَقَات "أصحاب" الشعب ومالكيه، لنائب الشعب، ومع ذلك لم يكن "أبو العز" يشكو مما يتعرَّض له، وكان دومًا يبتسم في وجه الناس.[1]

ما بين كتابتي هذه المقالة والسابقة عليها، نعيتُ "أبو العز" على صفحتي بالفيسبوك فور إذاعة خبر وفاته بمستشفاه يوم الأربعاء الماضي، بقولي بلسانِ الحال : "وداعًا أبو العز الحريري، الروح الحريرية البيضاء.." إذ كانت روح هذا الرجل، حقًا وصدقًا، حريريةً لا شوائب تلوثها بالضغائن والغِلِّ، وبيضاءَ لا تُكَدِّرُهَا السخائمُ.

---

(١) نُشرت هذه الصفحات في مقالة، يوم ١٠ سبتمبر بجريدة الأهرام، وختمتها بالآتي:

قطعٌ لازمٌ: ما كدتُ أنتهي من كتابة العبارة السابقة، يوم الأربعاء الماضي، حتى اتصل بي أحدُ الأحبة ليُبْلِغَنِي بوفاة "أبو العز الحريري" في مستشفاه ..رحمه الله.. فلنستكمل الكلام عنه في مقالة الأربعاء المُقْبِل.

وقد رويتُ فيما سبق، كيف ارتبط بزوغ نجم "أبو العز" سياسيًا وجماهيريًا، بواقعة الإعتداء عليه بسكين يوم فوزه في انتخابات البرلمان، وشَقّ وجهه على يد بعض المُتَشَرِّدِين الماجورين. ولم يقف أبو العزّ طويلًا عند ذاك الإعتداء، ولا عرفنا عنه يومًا أنه تَعَقَّبَ المُعتَدِينَ عليه، مع أنه كان يقدر على النيل منهم بأقلّ مجهود نظرًا لمكانته في نفوس الناس بمنطقة (كرموز، راغب، غيط العنب، محرم بك) ولمكانه في مجلس الشعب آنذاك، كراهية الناس للمعتدي (الذي لم يُعاقب طبعًا) وصبيانه.

كان المُعْتَدِي معروفًا بشخصه، وكان يمكن الثأر منه وسِقَايَتِه من الكأس ذاته. لا سِيَّمَا أن "الحكومة" تَخَلَّت عن هذا الرجل (الجزار) بعد سنواتٍ قليلة من فعلته الغشوم، التي شَوَّهت وجه "أبو العزّ". وقد تخلّت الحكومة آنذاك عن ذاك الجزّار، لأن ابنه تمادى في الظُلْمِ الموروثِ عن والده، وأهان عميد الكلية المرموقة التي التحق بها هذا الابنُ المُدَلَّل، بمجموعٍ هزيل (أظنه كان خمسين بالمائة) على اعتبارٍ مكذوبٍ، هو أن الولد ليبيٌّ وليس مِصْريّ. ومن ثَمَّ، يجوز له الإلتحاق بالكلية كالوافدين دون الوقوف عند مسألة المجموع! والعجيب في هذا الأمر، أن والده "الجزار المأجور" كان هو الأداة التي استعملتها الحكومة أيام الخلاف بين السادات والقذافي، للنكاية من النظام الليبي. إذ أرسل الجزارُ صبيانه وبعض المأجورين، فهاجموا قنصلية ليبيا في منطقة الشلالات (أمام باب الإستاد) وأحرقوها بعدما نهبوها. وقالت حكومتنا أيامها إنها: حركة غضب شعبي، لم تتمكّن قوات الأمن من السيطرة عليها.. فلما تجاوز الولدُ قدره وقدر أبيه، واعتدى على العميد الذي كان هو الآخر شخصًا حُكُومِيًّا مرموقًا، أكلت القطةُ أطفالها. ولهذا، كان بإمكان "أبو العزّ" أن يثأر لنفسه من الذين ظلموُه واعتدوا عليه، لكنه لم يفعل. سألته بعد سنواتٍ من الواقعة الأولى، عن سبب

تسامُحه في هذا الأمر فقال ما نَصّهُ: يا راجل إنسى اللى فات، خلّينا في دلوقتِ، البلد وأحوالها أهم.

ومثلما بدأ أبو العز مساره السياسي باعتداءٍ غَشُومٍ عليه، انتهى هذا المسار باعتداءٍ أعتى وأشدُّ بطشًا؛ ففي السنة الحزينة التي حكم فيها الإخوان مصر، عربد أتباعهم في النواحي المصرية فأثاروا حفيظة الناس ضدهم. وفي يومٍ بائسٍ، احتدم الحال بين ما كان يُسَمَى "شباب الإخوان" من جهة و"شباب الثُوَّار" من الجهة المقابلة. جرى ذلك في منطقة سموحة. وهناك أحاط الإخوانيون بمجموعة كبيرة من غير الإخوانيين، وحبسوهم في شارعٍ مُغلَق بجوار نادي سموحة ولم تستطع قوات الشرطة التصرف، فما كان من مدير أمن الإسكندرية إلا أن اتصل بأبو العزّ "الحريري" للإستعانة به في فَضّ الإشتباك وفكّ الإحتباس. كان أبو العز يقود سيارته المُتَوَاضِعَة متجهًا لمنزله، ومعه السيدة زوجته، فلما أتاه الإتصال التليفوني انعطف عن طريقه وذهب إلى منطقة سموحة المُلْتَهِبَة، عساه يساعد في تدارك الأمر، فلا يقع مزيدٌ من الضحايا. وما كاد "الإخوان" يرونه، حتى قاموا بفعلةٍ خسيسةٍ: سمحوا لسيارته بعبور خَطّ الهجوم الخلفِيّ، وقبل وصوله إلى خَطّ الهجوم الأماميّ، تكالب عليه الخطّان الإخوانيان وحَطّمُوا سيّارَتَهُ واعتدوا على زوجتِهِ وكسروا عظامه وملأوا وجهه دمًا مُتَدَفِّقًا من جُرُوحٍ كثيرة.

في المساء نشرت المواقع الإلكترونية وصفحات الفيسبوك صورة أبو العز مُضَرَّجًا بدمائه، فاتصلتُ به للإطمئنان عليه وكنتُ أظن أن أحدًا غيره سوف يرد على التليفون، لكنه ردَّ بنفسه وحكى لي ما وقع له. كان ليلتها يحكي بِحِيَادٍ ما جرى معه، كأنه يَقُصُّ واقعةً جرت مع غيره. لم أسمعه يَشْتم أحدًا، أو يحتدّ، وإنما حكى ما جرى من واقعة الإعتداء عليه، بحيادٍ لا يستطيعه إلا الأقوياء حقًا.

كان الإخوان يكرهون "أبو العز" لأنه ترشّح في الإنتخابات الرئاسية التي فاز بها لاحقًا "د. محمد مرسي" وكان أبو العزّ يعلم أنه لن يفوز في تلك الإنتخابات، لكنه وجدها فرصةً لإيصال آرائه السياسية التي أعلنها صراحةً في أكثر من برنامجٍ تلفزيونيٍّ أثناء الحملة الإنتخابية، فقال في قنوات التلفزيون (على الملأ) قُبل حسم الإنتخابات بفترةٍ، بالحرف الواحد: "هناك صفقة شيطانية بين المجلس العسكري والإخوان المسلمين، وسوف تضيع مصر إذا تمت هذه الصفقة".

وربما كان أبو العز مُخْطِئًا في رأيه هذا، وربما كان مُصِيبًا، على الأرجح. غير أن المصريين، على كُلّ حال، لم يسمحوا لبلادهم أن تضيع. وأعلنوا أن يوم ٢٠١٣/٦/٣٠ سيكون نهاية لحكم الإخوان في مصر! أيامها قُلْتُ في قنوات التلفزيون (على الملأ أيضًا) إن الإسكندرية لن تصبر حتى يوم ٦/٣٠ وبالفعل، وقبل الموعد بأيامٍ ثار السكندرِيّونَ ثورة عارمة، فلما جاء يوم الثلاثين من يونيو لم يعد بالمدينة "الحُرَّةِ" أي مقرٍّ أو مكتبٍ لجماعة الإخوان، أو لحزبهم المسمَّى: الحرية والعدالة.. إذ أحرق السكندرِيّونَ المَقَارَّ جميعها، عَلَنًا، ولكنهم لم يعتدوا على أيِّ شخصٍ إخوانيّ. وحتى حين أراد بعض الشباب السكندريّ الثأر لأبو العز الحريريّ، وأحاطوا بالإخوانيّ المعروف صبحي منصور وضربوه وكادوا يُلْقُونَ به تحت عجلات قطار "أبو قير" جاءهم من قلب المدينة رَجُلٌ يسعى، وصاح فيهم: كده حرام، كده مفيش فرق بينكم وبين الإخوان.. فتركه الشبابُ للناس، فذهبوا به للعلاج في مستشفاه الذي صَرَّح فيه بعبارته الشهيرة، التعيسة: أموت على الإخوان، أموتُ على الإخوان.

• • •

رأيتُ أبو العز الحريرى، آخر مرة، صباح يوم ٦/٣٠ أمام جامع القائد إبراهيم (ربيب محمد على وقائد جيوشه) فوجدته يسير مُتَوَكِّئًا على عُكَّازٍ لم اعهده من قبل، ويُحَرِّكُ ساقيه بصعوبة. كان بعض الشباب يُحِيْطُ بي، فأخذني أبو العزّ من بينهم وهو يقول لي إن أساتذة الجامعة مُجْتَمِعِيْنَ مع الثُوَّار في الشاطبي، أمام مقر جامعة الإسكندرية، وعلينا الذهاب إليهم لنقول للناس شيئًا. قلتُ له إن مخاطبة الجماهير في الشوارع ليست دوري، فقال: معلش، النهارده يوم استثنائي.. قُلتُ له مُدَاعِبًا: إنتَ مالك عَجُزت كده فجأة؟ قال: لا والله مش العَجَز، دي آثار "العَلْقَة" بتاعت الإخوان.

قال ذلك وهو يبتسم ساخِرًا. وحين وصلنا حيث يحتشد الجمع وجدنا واحدًا من أفضل وأجمل الرجال في الإسكندرية (بالمعنى العميق للفضيلة والجمال) وهو الدكتور محمد رفيق خليل "الشاعر، الجرّاح، نقيب الأطباء" يقف شامخًا، مُمْسِكًا بالميكروفون الذي يُخاطِبُ من خلاله الجماهير. بعد دقائق دفعني أبو العز إلى المنصة وأعطاني الميكروفون، فقلت للثائرين: "انتبهوا، فنحن لم نخرج اليوم للقضاء على شباب الإخوان أو أتباعهم والمتعاطفين معهم، خروجنا اليوم له هدفٌ واحد هو إزاحة رئيس فاشل، فلا تنسوا هذا الهدف وتنحرفوا إلى غيره".. قلتُ ذلك، وأعطيتُ الميكروفون إلى أبو العز، فصاح رحمه الله بهتافٍ كان آخرُ ما سمعته منه: تحيا مصر، تحيا مصر، تحيا مصر.

نصر أبوزيد

في مطلع التسعينيات عرفتُ الدكتور نصر حامد أبو زيد، المفكر المصري اللامع الذي كان في صِغَرِهِ طِفْلًا (درويشًا) يعيش في منطقة "قُحَافَة"

اللصيقة بمدينة طنطا التى فيها مقام السيد أحمد البدوي، الصُوفيُّ الكبير. حيث كان يُعرف في بلدته أيام طفولته وشبابه المُبَكِّر باسم: الشيخ نصر ولذلك، لم يُصَدِّق أهله الأولين أيَّ شيءٍ مما أُثِيرَ بعد سنواتٍ طِوَال، من اتهامات بالإلحاد والعداء للإسلام، لاسيَّمَا تلك التهمة التي راجت أيام أزمته الشهيرة وتداولتها ألسنة الجُهَلَاء، ونصُّها البائس: نصر حامد أبو زيد، مُلْحِد، يَدَّعِي أن القُرْآنَ نَصّ!

أيامها، قال لي أحد الأساتذة (الجُهلاء) كأنه يُصَرِّحُ بسرٍّ مهول: نصر أبوزيد له كتاب بعنوان "مفهوم النص" يقول فيه إن القرآن الكريم نَصّ. قلتُ له، وكنا آنذاك في ندوة حاشدة: طبعًا، القرآن الكريم نَصٌّ، والحديث الشريف نَصٌّ، ونحن نقول "القرآن ينصُّ على كذا كذا" ونقول "لا اجتهاد فيما ورد فيه نَصّ" فأين المُشْكِلَة؟ قال مُحَدِّثِي: أستغفر الله، مفيش فايدة فيكم.

* * *

عرَّفني بالدكتور نصر أبو زيد أستاذنا المشترك د. حسن حنفي، بعد عودتهما من سنوات الإعارة باليابان، هروبًا من عَنَتِ الرئيس السادات مع أساتذة الجامعة المستنيرين. وكان "نصر" يوم زرته في بيته أول مرة، يسكن في شقةٍ شديدة التواضع بأطراف القاهرة، لا تزيد مساحتها عن مساحة حجرات الطلاب في المدن الجامعية. قلت له، بعد أن قامت زوجته الطيبة لإعداد الشاي: أنت عائد من إعارة، فلماذا لا تنتقل إلى شقة أوسع؟ فقال: سأفعل، لأن الكتب هنا تُزَاحِمُنِي ولا تترك مكانًا للحركة كما ترى.. وبالفعل، انتقل "نصر" بعد فترة إلى شقة (معقولة) في الجيزة، فكان أول ما فعله فيها هو تجهيز مكتبةٍ بعرض الحوائط، من خَشَبٍ غيرِ مدهون. قلت له يوم زرته هناك: لماذا لاتطلي الخشب؟ قال: لأنه يتنفس مثلنا، والطلاء يكتم أنفاسه.

في تلك الأيامُ التي خَلَت، وصارت اليوم هي وأهلها كالأحلام، كُنَّا نتزاورُ كثيرًا. وكان "نصر" يأتي إلى الإسكندرية، ويُقِيْمُ في بنسيون في محطة الرمل سعر غرفته في اليوم والليلة ثمانية عشر جنيهًا، يضيف: وبالإفطار كمان. أقول له: ما هذه العيشة الفقيرة؟ يقول: أنا من جيل فقير، لا يخجل من الفقر. اقول: لماذا لم تذهبْ إلى الخليج في إعارة؟ يقول: ولماذا لم تذهب أنت.. ثم يُضِيف، ما نَصُّهُ بالحرفِ الواحد: ياعم يوسف عندنا هَمّ كبير هنا، وشُغل كثير لازم يتعمل، العقل الجَمعي في خَطَر، ومفيش حد واخد باله، علشان كده ما ينفعش أسيب مصر تانى، كفاية السنين اللى ضاعت منى في اليابان.

هكذا تحدَّثَ، معى، نصر حامد أبو زيد. الذي كتب بعد ذلك بسنواتِ طوال كتابًا بعُنوَان: هكذا تحدث ابنُ عربيّ. واضطرَّ بعد سنواتِ إلى الإبتعادِ عن مِصْرَ، ولم يتمكَّن من العودة إليها حسبما كُنا نأمل، وحسبما سيأتى بيانه.

وفي ذاك الزمان، كنا نُمْضِي الساعات الطوال في مناقشة القضايا المُتَعَلِّقَة بالإتجاه العقلاني عند المُعْتَزِلَة (كان نصر أبوزيد، يَوَدُّ إحياء الفِكْرِ المُعْتَزِلِيّ) وطبيعة التجربة الصوفية التي أراها رحلة روحية شديدة الخصوصية، وكان يراها خبرة دينية محكومة بإطارها الزمنيّ. أقول له: الرؤية الصوفية لوحةٌ فنِّيَةٌ تحتاج التَذَوُّق.. فيقول: هذا كلامٌ غيرُ علمِيّ، كلامُ دراويش!

كان ابنى "علاء" آنذاك في السابعة من عمره (هو اليوم في السابعة والعشرين) وكان يجلس بقُربِنا يُحَدِّق فينا ويلتفتُ كالسُّنور الصغير إلى كُلّ مِنَّا حين يتكلم. أُشفِقُ عليه فاقول: يا علاء، روح أقعد جوَّه مع ماما ومرات عمو نصر. فيقول: أنا مستنى تخلَّصوا علشان نروح نشرب سوبيا. في بحرى .. وعندئذٍ، يهبُّ "نصر" واقفًا وهو يقول مازحًا: هيا بنا إلى السوبيا.

كان هو وطفلي الصغير يعشقان مشروب السوبيا (طحين الأرز ممزوجًا باللبن والفانيليا) من عند المحل الشهير بمنطقة بحري "طلعت" وطيلة الطريق. كان نصر وعلاء يتحدثان كأصدقاء يحترِمُ كُلٌّ منهما الآخر، ويُحِبّه. حتى أن "نصر" كان كثيرًا ما يتصل بي هاتفيًا (قبل ظهور الموبايل) فيرد عليه علاء، ولا يُخبرني باتصاله. وإذا سألته، يقول باقتناعِ طِفْلٍ لم يبلُغ العاشرة: عمو نصر صاحبي، هوَّه اتصل واتكلمنا مع بعض، وخلاص، هوَّه لازم أقول لحضرتك يعني! أقول ذلك للدكتور نصر أبوزيد، فَيَرُدُّ عليَّ مُبْتَسِمًا : طبعًا يا أخي احنا صحاب، إنت مالك. ثم يضحك كطفلٍ صغير. كان "نصر" طفلًا كبيرًا، وعالِمًا كبيرًا، وإنسانًا كبيرًا عصفت به بلادنا وظلمته ظُلْمًا كبيرًا.. وقد انقلبت حياته رأسًا على عقب، عقب تطليقه لزوجته الأولى الفيَّاضة بالطيبة، وبلغ به الإضطراب غايته عقب صدور حُكْمٍ قضائي بتطليقه "شرعًا" من زوجته الثانية، الزميلة د. ابتهال يونس. وهذا حديثٌ ذو شجون وتفاصيل، سوف نُلْقِي عليه الضوء فيما يلي، لنرى ما فعله الزمان بالإنسان.

* * *

كان الدكتور "نصر " في بداياته، قد تأخُر في الدراسة الأكاديمية نظرًا لفقر أسرته واضطراره للعمل مبكرًا، لكنه عاد للدراسة بعد حصوله على "دبلوم التجارة" والعمل به، فانتظم في الدراسةالثانوية "العامة" آملًا في تحقيق رغبته الإلتحاق بالجامعة. وقد التحق فعلًا، بعد سنواتٍ من المُعَانَاةِ والصبر والدأب، بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة واجتهد في الدراسة حتى حصل على الليسانس بتقدير يؤهِّله للعمل مُعِيدًا بالكلية. لكنهم استبعدوه ظُلْمًا وطُغْيَانًا مثلما يحدث أحيانًا في جامعاتنا، فلم يرضخ لهذا الظلم وذهب إلى مكتب رئيس جامعة القاهرة وقال للسكرتيرة: "أخبريه بأنني مُتَظَلِّمٌ بالباب" .. وبالطبع،

لم تتفهم السكرتيرة موقفه ولم تفهم كلامه فتجاهلته لرثاثة ملابسه، فَظَلَّ جالسًا عند باب رئيس الجامعة حتى حاولوا طرده من هناك، فقاومهم وهو يصيح بصوتٍ كالصراخ: مُتَظَلِّم بالباب.

كان "نصر" في أواخرِ حياتِه يذكُرُ هذه الواقعة دومًا وهو يبتسم، ويسوقها لتأكيد أن الثقافة الشعبية المصرية مغروسة فيه. ففي أيام الظلم العُثْمَانِيّ، كان الشخص المظلوم يعكف على باب الأمير أو الوالي أو المُتَوَلِّي، فَيُسَمَّى في تلك الحالة: مُتَظَلِّمٌ بالباب.

يومها، سمع رئيس الجامعة الصخب خارج مكتبه فخرج يستطلع ما يجري، فوجد الحرس يدفعون "نصر" وهو يتصايح بالعبارة المذكورة: مُتظلِّمٌ بالباب. فناداه رئيس الجامعة وكفَّ عنه الحرس وسأله عن الخبر، فقال: أنا مُتَظَلِّمٌ بالباب، لأنهم استبعدوني من التعيين في وظيفة مُعِيْد، وهذه الأوراق والشهادات تؤكد حَقِّي في الوظيفة. أدخله رئيس الجامعة إلى مكتبه، وبحث الأمر، فانتهى الحالُ إلى إصدارِ قرارِ تعيين الخِرِّيج "نصر حامد أبو زيد" مُعِيْدًا بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة .

ومرَّت الأيام، وتخطَّى "نصر" سن الخمسين أو اقترب منه، وهو لم يحصل بعد على درجة الأستاذية (وهي مسألة مُهِمَّة جِدًّا عند الذين يعملون بالتدريس الجامعي) ولَمَّا تَقَدَّم بأعماله العلمية للحصول على الدرجة، رفضت اللجنة ترقيته وقال تقرير أحد أعضاء لجنة الترقية، إن مقالات "نصر" فيها ما يُشبِهُ الكُفر!. وكان الذي كتب ذلك في تقريره، هو الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين. وهو الشخص نفسه الذي اهتاج عليه المُتَعَصِّبُونَ لاحقًا، حين نشر كِتَابًا بعُنوان (أبي آدم) واكتوى بالنار ذاتها، إذ استعمل هؤلاء المُتَعَصِّبُونَ ضِدَّهُ العبارة نفسها التي سبق أن استعملها هو، وقالوا إن كتابه: فيه ما يشبه الكُفْر.

وتَسَرَّبَ تقرير عدم ترقية "نصر" إلى الصُحُف فاهتاج اليسار المصري، أو بالأحرى: تَصَنَّع الإهتياج، وتحرَّك لنُصرَةِ "نصر" في وجه ما كان يُسَمَّى آنذاك "القُوَى الظلامية".. وتحوَّلت المسألة إلى (زَفَّة) إعلامية انتهت بتقديم الدكتور "نصر حامد أبو زيد" إلى المُحَاكَمَة، وفقًا لقانون (الحِسْبَة) وصدر ضِدَّهُ حكمٌ بالتفريق، أي بتطليق زوجته منه، لأنها مسلمة وهو مُرتَدٌّ عن الإسلام! لأنه بحسب التعبير الفقهي والقانوني الشهير: أنكر معلومًا من الدينِ بالضرورة.

عبارتان عجيبتان طالما كانتا سيفًا مُسَلَّطًا على رِقَابِ مُفَكِّرِينَا المُعَاصِرِين "إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة /كلام يُشبِه الكُفر". والعبارة الأولى منهما وضعها الرئيس السادات في صُلبِ القانونِ المعمول به في مصر لترضية الجماعاتِ الإسلامية، فظَلَّت من يومها حُجَّةً على الجميع. مع أن أحدًا لم يُحَدِّد لنا، أصلًا، ماهو ذلك "المعلوم من الدين بالضرورة" وما الفارق بين المعلوم بالضرورة من الدين، والمعلوم بالضرورة من المذهب، والمعلوم بالضرورة من قواعد المُلَاعَبَةِ والمُهَارَشَةِ والمُغَازَلَةِ بين القُوى السياسية والجماعات الدينية.. أما العبارة الأخرى، فلم يشرح أحدٌ لنا أصلًا ماهو "الكُفْر" حتى نعرف ما هو الذي يُشْبِهُهُ! وبالمُنَاسَبَة، فالكُفرُ في اللُّغة وفي النَصِّ القُرآنيّ معناهُ "الإخفاء" ومنه سُمِّيَ المُزَارِعُونَ وأهلُ الفِلَاحَةِ كُفَارًا، لأنهم يُخْفُونَ البُذُورَ تحت سطح التُرْبَةِ المَحْرُوثَة.. قال تعالى { يُعْجِبُ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ } أي الزُّراع.

المهم، اضْطَرَبَت أحوالُ "نصر" بعد أزمة الترقية وصُدُورِ الحُكْمِ بالتفريقِ "الشرعِيّ والقانُوْنِيّ" بينه وبين زوجته، وانتهى الأمرُ المُرِيْعُ بهِجْرَتِهِ الإضطرارية من مِصْرَ. فذهب إلى هولندا حيث عَمِلَ أُسْتَاذًا هُنَاك، وأنْجَزَ مع مَجْمُوعَةِ مُسْتَشْرِقِيْنَ عَمَلًا هامًا على المستوى الأكاديمي، هو: موسوعة علوم القرآن (باللغة الإنجليزية) .

* * *

في سنة ٢٠٠٧ قُلتُ لنصر أبو زيد، تليفونيًا: إلى متى ستظل بأوروبا، تعالَ إلى الإسكندرية واقضِ معنا شهرًا، كضيفٍ في برنامج "الباحث المُقِيم".. وهو البرنامج الأكاديمي الذي كُنتُ أقومُ به، أيام كنت مديرًا لمركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، واستضفت فيه كبار الباحثين في العالم، إحياءً للتقليد السكندريِّ القديم. ردَّ عليَّ "نصر" بما نَصَّهُ، بالحرفِ الواحد: إيه يا عم يوسف، إنت عايزني أموت عندك ولا إيه؟ قلت: وماله يا نصر، نموت في بلدنا أحسن من الموت في بلاد الغُرْبَة، وبعدين موضوعك كان أصلًا فُقَّاعَة إعلامية، ودلوقت الحال اختلف.

وافقني نصر، وجاء إلى الإسكندرية في العَلَنِ وأعطى مُحَاضَرَاتَهُ للجمهور، وحضر هذه المحاضرات جميع الناس على اختلاف توجُّهَاتِهِم: السلفيون والعلمانيون والمُتَعَلِّمُونَ، وكانت أيامًا بديعة لم يتخللها ما يُعكِّرُ صفوها. وقد توليتُ بنفسي إدارة الجلسات البحثية، وجعلتها عَقِبَ انتهائِهَا مُتَاحَةً على عدة "سيديهات" تُبَاعُ للناسِ بسعر التكلفة. وكان تلميذي وزميلي في العمل بالمكتبة آنذاك، المرحوم د. محمد يسري سلامة، هو الذي يقوم بالتسنيق اللازم لمشاركة السلفيين في محاضرات هذه الدورة من برنامج "الباحث المقيم" التي لم يحدث خلالها أية مُنَازَعَات. مع أن د . نصر أبو زيد تحدَّثَ خلالها في موضوعاتٍ دقيقة: علوم القرآن، مفهوم النص، المذهب المُعْتَزِلِيّ والأشعَرِيّ.. ثم صار "نصر" يُشَارِكُ في المؤتمرات السنوية التي نعقدها في المكتبة، وصار عُضْوِ مَجْلِسِ إدارة لمركز المخطوطات، وكاد يصير مُسْتَشَارًا مُقِيْمًا بالمركز ويسكن بالإسكندرية.. أقول: كاد!

كان آخر عهدي بالصديق الدكتور "نصر" أيام كُنَّا نُرَتِّبُ لمشاركته في المؤتمر السنوي لمركز المخطوطات(صيف العام ٢٠١٠) ونتراسل عبر البريد

الإلكتروني. ولما استقر بنا الرأيُ على موضوعٍ بحثِهِ، أرسل لي رسالة تقول ما نَصَّه: هل يُنَاسِبُ الناس عِنْدَكَ هذا الموضوعُ الدقيق؟ رددتُ: نعم يا نصر. يُنَاسِب، نلتقي على خيرٍ في المؤتمر.. ردَّ عليَّ، قائلًا في آخر رسالة وصلتني منه: نلتقي في سِدْرَةِ المُنْتَهَى!

ولم أرَه بعدها.

كان "نصر" قد ذهب إلى "أندونيسيا" ليقوم بالتدريس هناك لبضعة أسابيع، وأثناء وجوده هناك (حسبما قيل) أصابه "فيروس" عجيب أفقده النُطْق والإدراك التام. فحملوه سِرًّا إلى مصر، ولم يعلم بذلك أحد. وقد عَلِمْتُ بالأمر من اتصالٍ مسائيٍّ جاءني من أستاذنا الدكتور "حسن حنفي" الذي قال لي، قبل أن يجهش: نصر في العناية المُرَكَّزَة بالمستشفى، منذ أيام، ولا أحد منّا يعلم بذلك، وقد زرته قبل قليل فلم يعرفني. ثم أجهش بالبكاء وهو يقول ما نَصُّهُ: نصر بيموت يا ابو حجّاج، نصر بيموت ومفيش حد هناك واخد باله منّه.. وبعدها بساعات، وتحديدًا في اليوم الخامس من الشهر السابع عام ٢٠١٠ انتهت حياةُ الدكتور نصر حامد أبو زيد، فجأة.

السلفيُّ الضَحُوك

في منتصف التسعينيات، طلب منّي صديقي د. يسري سلامة (أستاذ اللغة العربية) أن أجلس ساعةً مع ابنه الوحيد "محمد" الطالب في المرحلة الثانوية. فتعجَّبْتُ من الطلب واستفهمتُ عن سببه، فقال رحمه الله إن ابنه "غاوي تُرَاث قَدِيم" ويتمنى مُجَالَستِي. كُنْتُ أيامها مُنْهَمِكًا في مشروعي التُرَاثِيّ (الإنتحاريّ) الذي استغرق أكثر من عشرة أعوام، أعني تحقيق كتاب الشامل في الصناعة

الطبية (صدر لاحقًا في ثلاثين جزءًا) ومع ذلك، أردتُ أن أرى هذا الشابَّ الصغير "غاوي التُرَاثِ القَدِيم".

عصرًا، زارني بمنزلي هذا اليافِعُ البديع: محمد يسري سلامة، وامتد لقاؤنا ساعاتٍ مُفْعَمَةٍ بالعُمْقِ، وبالبهجَةِ التي أثارها في نفسي هذا "الولد" النابه، غزير المعرفة، عميق الفهم. يومها لفت نظري إعجابه الخاص بشيخ الإسلام، تقيِّ الدينِ بن تَيْمِيَة، ولفت نظره أنني أُقَدِّرُ هذا الرجل وجهاده واجتهاده وأتفقه موقفه المشهور من بعض المُتَصَوِّفَة. ولما أخبرني محمد يسري سلامة بأنه شرع بالفعل في تحقيق بعض مؤلفات ابن تيمية، لنشرها على أفضل صورة، قلتُ له اترك ذلك الآن، وانته من "الثانوية العامة" أولًا، ثم سيأتي من بعد ذلك زمانك الذي لن أراه. فالتَقَطَ الإشارة، وابتسم، فصارت له ملامحُ طِفْلٍ.

كان الزمان يسخر كعادته، منّي ومنه، فقد شاءت الأيام أن أرى ابتداء زمانه وانتهاءه.. مرت عشرُ سنين، خلالها توفي "د. يسري سلامة" وانقطعت عنّي أخبار ابنه، وفي يومٍ جاءتني الشاعرة السكندرية المعروفة: عزيزة كاطو (أم محمد يسري سلامة) لتخبرني بأن ابنها الذي صار "طبيب أسنان" يريد أن يعمل معي في مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية (أيامها كان هناك مركز مخطوطات، وكانت هناك مكتبة الإسكندرية) وفي اليوم التالي جاءني "محمد يسري سلامة" فوجدته قد استطال وأطال لحيته، فاشترطت عليه إزالة لحيته ليعمل معي. فامتعض وقال إنها "سُنَّةٌ" فقلتُ له لو كان النبيُّ قد انفرد بها، تكون سُنَّةً واجِبَةَ الإتِّبَاع، لكن هذه كانت سمة ذاك العصر الجامعة بين المؤمنين والكُفَّار. قال: هي اليوم تُمَيِّزُ المسلمين! قلتُ: هي تُمَيِّزُ السلفيين عن المسلمين، فكأنهم ليسوا منهم، وهي تجعلك شبيهًا بكارل ماركس. قال: امهِلْنِي لِأُفَكِّرَ في الأمر. قلتُ: أمامك حتى صباح الغد.. (كنتُ أريد أن أختبر صدق رغبته في العمل معي).

في اليوم التالي، جاء "د. محمد يسري سلامة" حليق اللحية مشرق القَسَمَاتِ، فامتدت بيننا سنواتٌ طِوَالٌ مليئةٌ بالمحبة والمعرفة والعمل التُرَاثِيِّ الجادِّ، العميق. ثم اندلعت ثورة يناير، فانقلبت الأحوالُ كُلُّهَا. فقد هجر محمد يسري سلامة البحث التُرَاثِيّ، ورابط في اعتصامات الثائرين وخرج في مُقَدِّمَة المُتَظَاهِرِينَ، وترك العمل في المخطوط الذي كلَّفته بتحقيقه (كتاب شاناق في السُمُوْمِ والتِرْيَاق) وانهمك في عدائه المُعْلَن للمدير العام للمكتبة باعتباره رمزًا من رموز الفساد (مات محمد يسري سلامة، فجأةً، وبقى المديرُ مُدِيْرًا إلى اليوم).. وجرت بيننا وقائع كثيرة، بالغة الخُصُوصِيَّة، لا يَصِحُّ أن أذكرها هنا. لكنها في المُجْمَلِ تؤكِّد ما رأيته في محمد يسري سلامة، خلال السنوات الطِوَال التي عملنا فيها معًا.

كان شخصًا نقيًا بعمق، مُنْدَفِعًا ببراءة، عالِمًا مُتَعَمِّقًا في الفقةِ واللُّغَةِ ويكاد يبرز في مجال تاريخ الطب، مُحِبٌّ للحياةِ والنساء، تعيسٌ في العِشْقِ وفي السياسة، عظيمُ التقديرِ لشخصية العَلَّامة د. محمد إسماعيل المقدم، وافر الذكاء والقدرة على التقاط الإشارات، خَفِيْفُ الظِلِّ.. أما أشهَرُ الصِفَات التي رأيتُهَا فيه، هو كونه: ضَحُوكًا. وهذا ما لمسته طيلة السنوات التي عمل فيها تحت إدارتي بمكتبة الإسكندرية، وكان يقول دومًا: بعد وقت العمل الرسميّ، أنت لست المدير، أنت مِثْلَ أبي أو "علشان متزعلش "أخويا الكبير.. ويضحك.

وكان يوم جاء للعمل معي، مُتَزَوِّجًا من زوجته الأولى التي كانت قد أنجبت من زواجٍ سابقٍ ولدين، كان من شِدَّةِ تَعَلُّقَهُ بِهِمَا يضع صورتهما أمامه على المكتب. ولما ثارت بينهما المُشْكِلَات التي تَثُورُ بين المُتَزَوِّجِينَ، أصلحتُ الأمر بينهما. لكن الأحوال احتدمت مُجَدَّدًا وأَطَلَّ شبحُ الطلاق، فكان يُعَانِي من التِيَاعٍ عميق. ليس بسبب انقطاع العِشْرَةِ مع زوجته، فحسب،

وإنما حسبما قال لي يومها قبل أن تنهمر دموعه حارَّةً: الولدان أُحِبُّهُمَا وكنتُ اتمنّى ان أكون أبًا لهما بقيَّة العمر.. رحم الله محمد يسري سلامة، الذي اختطفه الموت بعدما أنجب من زوجته الأخرى (التي كانت زميلةً لنا، وتركت المكتبة عقب وفاته) طفلين أحدهما رضيع.

* * *

وخلال السنوات الطِوال التي عرفتُ فيها "د. محمد يسري سلامة" عن قُرب، وقعت معنا عدةُ أمورٍ غيرُ اعتيادية. ولسوف أَقُصُّ فيما يأتي بعضًا منها، لعلها تُلقي بعض الضوء الكاشف على الجانب الإنساني من حياته القصيرة، الثرِيّة:

بعد فترةٍ من عمله معي بمركز المخطُوطَاتِ بمكتبةِ الإسكندرية، لاحظتُ الإجهاد الشديد البادي على وجه "محمد يسري سلامة" ولمّا سألته عن سبب ذلك، أجاب بأنه حين ينتهي من العمل بالمكتبة، يذهب إلى العيادة ليُمَارِسُ عمله في عيادته كطبيب أسنان، فيقضي فيها وقتًا طويلًا. مع أنه لا يحظى بمرضى كثيرين، لكنه يضطر للبقاء حتى انتهاء فترة العمل بالعيادة. ثم يقضي الليل في تحقيق مخطُوطَاتِ "ابن تيمية" التي كان يَحْلُمُ بأن ينشرها كُلّها مُحَقَّقَة، وكان قد نشر بالفعل بعضها.

اقترحتُ عليه أن يُغلق العيادة ما دامت غير مُجدية، ويُعطي الوقت لتحقيق مخطوطاتٍ في تاريخ الطِبّ، وذَكَّرتُهُ بما قاله لي يوم جاءني أول مرة في المكتبة. حينما أخبرني بأنه لا يُحِبُّ طِبَّ الأسنان، وقد التحق بهذه الكلية إرضاءً لوالديه، لكنه يريد التفرغ للعمل التُرَاثِيّ وتحقيقِ المخطوطات. فلما قلتُ له ذلك، سرح لحظةً بخواطره ثم قال: والظروف المالية؟ قلت: ستأتيك ترقيةٌ

قريبًا، وسيزداد راتِبُكَ معها ومع الزيادة السنوية للمُرَتَّبَاتِ بنسبة الخمسة عشر بالمائة، المُعْتَادَة .

أغلق العيادة، وبعد أسابيعَ قليلة وقعت له حادثةٌ مؤسفةٌ أدّت إلى بتر أصابع يده اليسرى. وعندما عاد من الإجازة المرضية، جاءني كعادته بعد وقت الدوامِ الرسميِّ لنجلس هُنَيْهَةً معًا، وأعرب لي عن استغرابه من نصحيتي له بإغلاق العيادة، في هذا التوقيت. ثم وقوع الحادثة التي تمنعه من ممارسة طب الأسنان. وابتسم لأول مرة منذ وقعت له الحادثة، وهو يقول ما نَصُّهُ: يا دكتور، ده شغل تَصَوُّف جامد!.. قلتُ له إنها مُصَادَفَة، فقال وقد عادت إليه ضحكته: يبقى شغل فلسفة، والعياذ بالله.

كان محمد يسري سلامة، كسلفيٍّ عتيدٍ، لا يُحِبُّ الصوفيَّةِ والفلاسفة، لأن ابن تيمية لم يكن يُحِبّهُما. ومع ذلك، كان لا يستطيع إخفاء إعجابه بكلام بعض الصوفية، ثم يستدرك فيقول: أستغفر الله.. ويضحك. سألته يومًا: كيف ترى عبد القادر الجيلاني؟ فقال: إمامٌ جليل، وشيخنا ابن تيمية شرح أحد كتبه. قلت: لكنه صوفيٌّ عظيم. قال: العظمة لله وحده ! قلت: لا تُرَاوِغ.. قال: والله هي حاجة تحيّر فعلًا.

وكان يحتفظ على جهاز الكمبيوتر، بكَمٍّ كبيرٍ من الكُتُبِ المحفوظةِ على هيئة ملفات، وكلما بحثنا عن معلومةٍ دقيقةٍ يُسرع إلى جهازه، فيأتي بها من بُطُونِ قبل بقيَّة زملائه الآخرين. وقد طلبتُ منه يومًا أن يُرِيَنِي هذه المِلَفَّات، فأدهشني هذا الكَمُّ الهائِلُ من الكُتُبِ، وأدهشني أكثر أنه يضع الكتب الفلسفية والصوفية تحت عنوان من عنده، هو "كُتُبٌ مَذْمُومَة".. أردتُ منه أن ينقل هذه الملفات الوفيرة إلى أجهزة زملائه، كي تَعُمَّ الفائدة، فرفض بلُطف وقال ما معناه: هذا جهدي الفردي خلال سنواتٍ طويلة، وليس لغيري حَقٌّ فيها.

قُلْتُ: مَجَّانًا أخذتم، فمَجَّانًا أعطوا! قال: هذا كلام المسيّح، وقد أكرمنا الله بدينِ الإسلام وبالأحاديثِ الشريفة.. وضحك كالطفل حتى مال ظهره للوراء، كعادته حين يبتهج.

بعد فترة لم تَطُل، دخلتُ مكتبه فوجدته قابعًا بين تلال الحزن وتكاد عيناه تدمعان. استفهمتُ منه عن حال حزنه، فلم يستطع الجواب. ردَّ عليَّ زميله المجاور له في غرفة المكتب، بأن جهاز محمد يسري سلامة أصابه "فيروس" فانمحت كل الملفات التي كانت محفوظة، بما فيها ملفات الكُتُبَ. ويومها، في اجتماع مع قسم "الأنشطة الأكاديمية" الذي كان د. محمد يسري سلامة يعمل فيه، اتفقنا على أن يشارك كُلٌّ منهم الآخرين كتبه ومعلوماته، وأن يقوم "محمد يسري" في الفترة القادمة بتحقيق مخطُوطَةِ "كتاب شاناق في السُمُومِ والتِرْيَاق".. وقد انهمك في هذا العمل شُهُورًا، ولكنه لم يُتِمَّهُ؛ لأن ثورة يناير اندلعت.

* * *

ثار محمد يسري سلامة مع الثائرين، وأطلق لاحقًا لحيته، ولَعِبَ دورًا كبيرًا في المظاهرات التي جابت أنحاء الإسكندرية. ولما أُتِيْحَ إنشاء الأحزاب السياسية أسَّس مع أوائل المؤسسين "حزب النور" وصار أول مُتَحَدِّثٍ رَسْمِيٍّ باسم الحزب. وفي يومٍ رأيته حزينًا، وباح لي بأنهم في الحزب، يريدون إشراك مُتَحَدِّث آخر معه (نادر بكار) ويكون كلاهما: متحدِّثًا رسميًا. هززتُ رأسي، وتركته عند مدخل مركز المخطوطات ومضيتُ خارجًا (كنت غير مستريح لانهماكه السياسي) فلحق بي عند الباب وسألني: بماذا تنصحني؟ قلتُ: اترك السياسة العملية، وعُد إلى العمل العلمي.

كان وقت هذه النصيحة قد تأخَّر، فلم تعد ذات فائدة. ففي تلك الفترة كان "محمد يسري سلامة" قد انهمك في العَمَلِ الثوري والسياسي، وبدأت تلوح في الأُفُقِ مُقَدِّمَاتِ ميلادِ حِزبِ الدُسْتُور الذي صار لاحقًا أحد مؤسسيه الأوائل. هذا في الدائرة الأوسع أو الحال المصري العام، وأما في الدائرة الضَيِّقَةِ الخاصَّةُ بالعمل، فقد صار محمد يسري سلامة "الثائر، المُحْبَط، الذي لم يعد ضَحُوكًا" يُعادي المدير العام للمكتبة، ويتّهمه بالفساد والإفساد وسقوط النخوة والهيبة اللازمة للإدارة. وكان يقود مظاهرات الموظفين ضد المدير العام. ثم اشتد العداءُ حتى بلغ غايته يوم قاد السلفي الضحوك / المُحِبَ، الموظفين الثائرين، واقتحموا مكتب المدير العام، فقفز الأخير من شباك الدور الخامس، محمولًا على أكتاف العساكر.. وفي اليوم التالي تركتُ المكتبة، مُسْتَقِيْلًا، ولم أرَ بعدها "محمد يسري سلامة" إلا مرةً واحدة، لمحًا.. كان يقود أمام المكتبة مظاهرة، ويهتف بأعلى صوته في الشارع: "عَلِّي وعَلِّي وعَلِّي الصوت، اللي بيهتف مش هايموت". يومها، أرسلتُ له على الموبايل رسالةً تقول ما نصَّه: "هذا لا يليق بك!".. وبعد أسابيع، قِيل لي إن صحته تتدهور بسرعة، ويفقد وزنه بشكلٍ كبيرٍ غيرُ مُطمَئِنٍ، ويشحب لونه، ويترنَّح في مشيته. وبعد أيامٍ قليلة مات، فجأةً، ولم يُعرَف السبب الحقيقي لوفاته.

وتبقى هنا إشارةٌ أخيرة: حين نَشَرْتُ ما سبق في مقالةٍ بجريدة الأهرام، راسلني بعضهم مُعْتَرِضًا على الطريقة التي تمَّ بها تعيين د.محمد يسري سلامة بمكتبة الإسكندرية ليعمل معي في التراث والمخطوطات، مع أنه خريج طب الأسنان. وقال المعترضون إن في هذا الأمر شُبهة مُجَامَلَة، لأن أباه كان بالنسبة لي أُستَاذًا وصديقًا، وأمه شاعرةٌ سكندريَّةٌ معروفة.. فرددتُ على مَن اعترض، بأن العمل التُرَاثِيُّ يحتاج تخصصاتٍ مُختلفة، لأن التُرَاثَ العربيَّ منه ما هو "تراثٌ طِبِّيّ" ولابد لمن يعمل في هذا المجال، أن يكون عارفًا بالطب. وكان

محمد يسري سلامة من قبل أن يعمل معي، قد حقّق ونشر كتابين من تُرَاثِ ابن تيمية، مما يدل على تمكُّنه من الخبرة التُرَاثِيَّة. وقد التحق بالعمل بعد سنواتٍ طِوَال من وفاة أبيه، والسيدة والدته لم تكن تربطني بها صلة قوية ولم أرها في حياتي إلا مرةً كانت تُلقِي فيها شِعرًا، ومرةً يوم نقلت لي رغبته في العمل معي بمجال التُرَاث والمخطوطات.

لماذا صار كثيرون منا يُسَارِعُونَ إلى "الإتهام" قبل الفهم !

رفاعة الطهطاوي

يُقال مجازًا، إن المفكرين والمُثقَّفين المصريين هم، على وجه الإجمال: أحفاد رِفَاعَة.. في إشارة إلى مكانة رِفَاعَة رافع الطهطاوي كرائدٍ للثقافة والفكر المصري في العصر الحديث، أو بالأحرى هو الذي ابتدأت به الثقافة الحديثة وتدفَّقَت من بين يديه أنهارُ الفِكْرِ المصري المعاصر. وقد رأينا في الفصل السابق جانبًا من حياة سبعة رموز مصرية، أو سبعة شخصيات من "أحفاد رِفَاعَة" فكان من المُنَاسب أن يأتي هذا الفصل عن جدّهم المؤسس. وسوف نتحدث عن جَدِّنا الجليل فيما يلي، بطريقةٍ تختلف عن تلك الطريقة المدرسية المُعتادة، كي نراه من زاوية أخرى غير نمطية.

كنت، حين بدأتُ التدريس بالجامعة في مطلع التسعينيات، قد جعلتُ من رِفَاعَة الطهطاوي مُقَرَّرًا أساسيًا على طلابي بقسم الفلسفة. في مادة: الفكر العربى الحديث والمعاصر. وعامًا بعد عام، رحت أُطَوِّرُ هذا المُقَرَّر الدراسي وافتح فيه مع الطلاب نوافذ جديدة، نُطِلُّ منها على واقعنا المعاصر. واستمر بنا هذا الحالُ عدة أعوامٍ، حتى استطاع الخُبَثَاءُ إخراجي من الجامعة بخديعةٍ إداريةٍ بديعة، تَخْطُرُ فقط على بال الشياطين من المهم، أنه مع توالي تلك الأعوام ظَلَّ درس رِفَاعَة يتسع ويتعمق، فتزدادُ قيمة الرجل أمام ناظري، حتى ليكاد يُرَادِفُ عندي مفهوم كلمة (النهضة) بكل ما فيها من معنى.. بَيْدَ أنني أعترف هنا، بأني لم أفهم رِفَاعَة الطهطاوي حَقَّ الفهم، ولم أجد إجابةً عن الأسئلة الدقيقة التي ظلت تعتمل في نفسي بخصوص هذا الرجل/النهضة، إلا بعدما قمتُ بفهرسة مجموعته الخَطِّيَةِ، المحفوظة بمحافظة سوهاج (صدر الفهرس في ثلاثة أجزاء، عن معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، في بداية التسعينيات).

إن تأمُّل مجموعة رفاعة، وتبصُّر مُحتواها، وملاحظة تنوُّعِها؛ هي أمورٌ من شأنها أن تكشف عن جوانب رَحِيْبَةٍ من شخصية هذا الرائد الكبير، وتكشف في الآنِ ذاته عن التنوُّعِ المُدهِش للتُرَاثِ العربي الإسلامي، وهو التنوُّع الذي أحَاط به رفاعة، واختار مخطوطاته بعنايةٍ فائقة . ومن هنا نفهم مثلًا: لماذا لم ينبهر رِفَاعَة بالحضارة الغربية، مثلما البهر كثيرون ممن جاءوا بعده؟ ذلك لأنه ببساطة شديدة، كان قد أدرك طبيعة التكوين الثري لثقافته، بحيث لم تغلبه مشاعرُ الدُّونية تجاه ثقافة الآخر الأوروبي.. لماذا جاء فكرُ رِفَاعَة مُنْضَبِطًا، عَقْلَانِيًّا، ذا طابع إتقانيّ نسقيّ؟ لأنه نهل من تُرَاث المنطق العربيّ، حتى إن مجموعته احتوت، مثلًا، على ما يقرب من عشرين مخطوطة كاملة لأرجوزة الأَخْضَري (السُّلَّم المرونق في علم المنطق) وشروحها وحواشيها.. لماذا اهتم رِفَاعَة باللغة العربية، وحرص على تطوير أساليبها الإنشائية ودَعْمِها بالترجمات ونَفْضِ التراب عن آدابها الموروثة؟ لأنه وعى درس البلاغة العربية، حتى إن مجموعته احتوت مثلًا، على ما يقرُب من ثلاثين مخطوطة كاملة لمتن البلاغة الشهير تلخيص المفتاح للقزويني وشروحه وحواشيه.. لماذا تنوع جَهْدُ رِفَاعَة بين معارفٍ شَتَّى، وكان مُنْفَتِحًا على كُلّ الروافد؟ لأنه ابنٌ لثقافةٍ مُتَنَوِّعَةٍ مُنْفَتِحَةٍ، حتى إن مجموعته ضَمَّت مثلًا كتابين مُتَضَادَّينِ! هما (مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام) و(باعثة الغرام في التعلُّق بغلمان الحَمَّام) وضمت المجموعة الخَطِّيَة مُتُونِ الفِقْهِ ورَسَائِلُ المُفَاكَهَات، كتب التصوف ونصوص الرياضيات، المنطق والفلك والطبيعيات، الأدعية والابتهالات .. تلك هي (الثقافة) المُتنوِّعة، التي استوعبها رِفَاعَة ووعى تفصيلها، وراح يُثِيرُها لتندفع قُدُمًا نحو الأمام.

* * *

في مدينة سوهاج، عاصمة المحافظة التي تقع بلدة طهطا داخل حدودها؛ يقف مبنى قديم على بُعد خُطُوَات قليلة من مجرى النيل . لافتةُ المبنى مكتوبٌ عليها بخط الثُّلُثِ الرصين (مَكْتَبَةُ رِفَاعَة الطَّهْطَاوِى) . وهى المكتبة العامة التي كانت نواتها، مجموعة كتب ومخطوطات رِفَاعَة التي أهداها للمحافظة حفيدُه (محمد بدوي) قبل خمسين سنة من افتتاحها للعمل سنة ١٩٥٨. وهي الخمسون سنة التي ظلت فيها المجموعة المؤلَّفة من نوادر المخطوطات والمطبوعات، مُلْقَاةً في (شونة التبن) المُلْحَقَة بقسم الشرطة المُسَمَّى آنذاك : محل بوليس بندر سوهاج !

ومع أن الكتب المطبوعة بالمجموعة ذات أهمية، نظرًا لتنوعها وبكور تاريخ طبعها؛ إلا أن الأهمية القُصْوَى لمكتبة رِفَاعَة تكمُنُ في مجموعته الخَطِّيَة. وهي على نفاستها، لاتزال إلى اليومِ محفوظة بشكلٍ بدائيٍّ، وتنتظر عناية فورية قبل أن تمتد إليها يَدُ البَلَى والفَقْد .

والنوادِرُ من مخطوطاتِ رِفَاعَة، يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات. الأولى تضم النُسَخ (العتيقة) التي تستمد قيمتها من قِدَمِهَا، بحيث تُضاف لقيمتها المعرفية قيمةٌ أثرية. والثانية تضم النسخ (الفريدة) التي يصعب لندرتها، أن نجد لها نظيرًا في أيِّ مجموعةٍ خَطِّيَةٍ أخرى. والثالثة مجموعة (خاصة) تُضُمُّ كتابات رِفَاعَة الطهطاوى وشيخه حسن العطار، ومن قبلهما الشيخ أحمد الدمنهوري. وقيمة هذه المجموعة الأصلية من المخطوطات، تنبُع من أهمية مؤلفيها ودورهم الكبير في التاريخ الحديث والمُعَاصِر.

أما المجموعة العتيقة، فأول ما يستوقفنا منها، هو تلك المخطوطة التي تمت كتابتها قبل ألف سنة كاملة، وهي مخطوطة كتاب (الفَصيح في اللُّغَةِ) لأبي العباس أحمد بن يحيى المعروف باسم (ثعلب) المتوفى سنة ٢٩١ هجرية،

وهي مؤرَّخة بسنة ٣٩٨ هجرية، وتحتوي على (فصيح ثعلب) وشرح الإمام الجبَّان عليه، وهو شرحٌ نادرٌ غيرُ مُتَدَاوَل. وحالة المخطوطة مُمْتَازَة بشكل يدعو للدهشة، مع أنها واحدةٌ من أقدم المخطوطات العربية في العالم، بل هي واحدة من المخطوطات الأكثر قِدَمًا، التي صِرتُ أُسمِّيها (المخطوطات الألفية) . وقد عقدتُ لها مُؤتمرًا دُوَلِيًّا بمكتبة الإسكندرية (سنة ٢٠٠٤) وأصدرت عنها كتابًا بعُنوان المؤتمر ذاته: المخطوطات الألفية.

وفي مجموعة رِفَاعَة الطهطاوي نجد أيضًا مخطوطة كتاب (الأخبار الطِوَال في ذكر ملوك الأرض، للدينوري) وهي نسخة مُدَوَّنَة في بدايات القرن السادس الهجري، وعليها قراءة مؤرَّخَة بسنة ٥٧٩ هجرية. وكتاب مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار لابن خميس الموصلي المتوفى ٥٥٢ هجرية، وهي نُسْخَة خَطِّيَة جَيِّدَة مُؤرَّخَة بسنة ٥٦٣ هجرية، ومخطوطة (المحصول في علم الأصول) لفخر الدين الرازي المتوفى ٦٠٦ هجرية، مؤرَّخة بسنة ٦٠٩ هجرية. ومخطوطة (القاموس المُحيط) للفيروزآبادي المتوفى ٨١٧ هجرية، مؤرَّخة بسنة ٨٧٣ هجرية - أسباب الخلاف بين الأئمة لابن السيد البَطَلْيَوْسي، مؤرَّخة بسنة ٦١٨ هجرية - التحرير في حل ألفاظ التنبيه للنووي، كُتِبَت سنة ٦٨٢ - نوادر النظائر لابن الملقن، كُتبت سنة ٦٣٠ - الورقات في أصول الفقه لإمام الكاملية، كُتِبَت سنة ٧٠٣- رمي القوس والنشاب للدمشقي، كُتبت سنة ٧٣٥ - مجموعة رسائل ابن سينا الطبية، كُتبت سنة ٦٨٧ - شرح الشمسية في المنطق للتفتازاني، كُتبت سنة ٨٨٣ هجرية.

تلك بعض الأمثلة.. وإذا نظرنا في تواريخ تدوين هذه المخطوطات، ادركنا كم يقترب تاريخ نسخ المخطوطة من تاريخ وفاة مؤلِّفها، مما يعني أنها أكثر (أصالة) من تلك النسخ الأخرى التي كُتِبَت في عصورٍ تالية، وبالتالي فهي

افضل النسخ التي يمكن الإعتمادُ عليها، إذا أردنا نشر الكتاب المخطوط في طبعة مُحَقَّقَة .

وقد تكون (أهم) مخطوطات رِفَاعَة وأعلاها قيمة، تلك المجموعة التي كُتِبَت بِخَطِّ مؤلّفيها أنفسهم، وهي التي صِرتُ أُسَمِّيهَا (المخطوطات المُوَقَّعة) وقد نظمت لها بعد ذلك بسنوات، مؤتمرًا دُوَلِيًّا انعقد بمكتبة الإسكندرية (عام ٢٠٠٥) وصدرت بحوثه في مُجَلَّدٍ ضخم يستعرض المخطوطات المُوَقَّعَات بمكتبات الشرق والغرب.

وفي ذخائر رِفَاعَة طائفةٌ كبيرة من المخطوطات بخط المؤلف، منها: منظومة الجامع الكبير، لابن إسحاق – بُلغَةِ السائل في تبليغ الرسائل، للجوجري- شرح قصيدة ذات الحلل، للسخاوي- طريق الإستقامة بأحكام الإمامة، لابن هاشم – فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي.. وهؤلاء المؤلّفون، عاشوا جميعًا قبل القرن العاشر الهجري. وهناك عديدٌ من المخطوطات (المُوَقَّعَة) الأخرى، كتبها بأيديهم مؤلفون عاشوا في القرون التالية.

أما بخصوص المجموعة الفريدة من بين مخطوطات رفاعة، وهي التي يصعُبُ أن نجد لها نُسْخَةً أخرى بالعالم. فلابد أولًا من إشارة إلى أن الأصل في عالم المخطوطات، هو أن الكل نادر؛ ذلك لأن كل مخطوطة مكتوبة أو مُزَخْرَفَة بِخَطِّ اليد، هي بمثابة (بصمة) لايمكن لها أن تتكرر، حتى لو تكرر الناسخ وموضوع الكتاب.. ومع ذلك فنحن نقصد بالنُدْرَةِ هنا، صعوبة وجود نسخةٍ أخرى، من هذا النص أو ذاك. ومن هذه المخطوطات النادرة التي انفردت بها مجموعة رفاعة: رسائل محمد بن يوسف الأنطاكي- رسائل الأسطوني- خافية أفلاطون – تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، لابن عطاء الله السكندري- الديوان الكامل لعائشة الباعونية – السبعيات في مواعظ البريات، لعين القضاة

الهمداني– اللمحات الرافعات، للبكري – قطر السيل في سياسة الخيل، لقنبر– الكافي، للمقري.. وغير ذلك كثيرٌ من المخطوطات التي لانجد منها نُسَخًا خَطِّيةً أخرى، في كثيرٍ من خزائن المخطوطات .

أما المجموعة (الخاصة) من المخطوطات الأصلية التي كتبها رواد النهضة، فمنها مؤلفات وترجمات رِفَاعَة الطهطاوي نفسه، مثل: جغرافية بلاد الشام– تاريخ قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر– مُخْتَصَر عنوان البيان.. ومن أعمال حسن العطار: رسالة المنطق – عقود الدُرّ في الآداب – شرح لامية الأفعال، شرح السمرقندية في الإستعارات.. ومن أعمال أحمد الدمنهوري (المتوفى سنة ١١٩٢ هجرية) نجد مخطوطات: شرح السلم المرونق في علم المنطق – إيضاح المشكلات من فن الإستعارات.

هذا بالإضافة إلى عشراتٍ من مخطوطاتٍ نادرة، لأعمال مُعَاصِرِي رِفَاعَة الطهطاوي من علماء مصر، وبعض أفراد أسرته من أمثال: علي باشا فهمي رفاعة، ومحمد بدوي بك رِفَاعَة .. الأول هو ابن الطهطاوي، والآخر هو حفيده الذي أهدى المكتبة إلى محافظة سوهاج، في منتصف القرن العشرين (الحزين) لتظل من يومها إلى اليوم مُهْمَلَةً، شاهدةً على اعتزازنا الأجوف (الفارغ) برِفَاعَة الطهطاوي، ودالةً على انتهاء مشروعه النهضويّ الكبير إلى نهاياتٍ لو كان يعلمها رِفَاعَة الطهطاوي، لما كان قد بدأ ما ابتدأ فيه.

* * *

وُلِدَ رِفَاعَة الطهطاوي في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، حيث كان هناك ارتباطٌ خَفِيٌّ بين كُلّ من: مصر، فرنسا، رِفَاعَة . فكأن ثلاثتهم في ذاك الزمان، زوايا مثلثٍ خَفِيٍّ امتدت أضلاعُه من قبل نهاية القرن الثامن عشر

الميلادي، واكتملت خلال نصف قرن من الزمان. ففي أواخر القرن الثامن عشر (سنة ١٧٩٨) جاء جيشُ فرنسا إلى مصر بالمدفع وبالمطبعة، وبحُلم تأسيس إمبراطورية شرقية تكون بلادنا قاعدتها. وهو الحُلم الفرنسي الذي طالما خايل العقل الفرنسي، وتجلى بنصوع في (رؤيا) الفيلسوف الفرنسي الشهير (ليبنتز) التي صاغها فيما صار يسمى: المخطوط السِرِّي لغزوِ مصر.. ثم فشلت الحملة، فارتحلت عنا يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٨٠١، وهو اليوم الذي وُلد فيه رِفَاعَة رافع الطهطاوى!

وإذا أمعنَّا النظر في هذا الإرتباطِ الخفِيِّ بين الزوايا الثلاث، ظهر لنا أن مصر وفرنسا كانت تجمعهما آنذاك أمورٌ، وتُفَرِّقُ بينهما أمور. فكلاهما كان تحت حُكْمٍ عسكريٍّ يتوسَّل بالقوة إلى السيطرة على مُجرياتِ الأمور؛ ففي مصر كان المماليك يحكمون بسُطْوَةٍ موروثة منذ أيام قطز وبيبرس، ومدعومة من السلطان العثماني القابع في عاصمته: الآستانة (القسطنطينية، بيزنطة، إسلامبول، استانبول، اسطنبول) . وفي فرنسا أدت الثورة إلى اعتلاء نابليون العرش، طامحًا إلى فرض سلطانه بالقوة على أوروبا، بل على العالم كله. وأظهر الإنجليزُ بالحرب ضعفَ العسكرية الفرنسية، ثم أطاحوا في نهاية الأمر بنابليون، الذي كان بدوره قد أظهر بالحرب ضَعْفَ العسكرية المملوكية بمصر، ثم أطاح بسلطانهم. مما مهَّد بعد ذلك، إلى ذبحهم على يد محمد علي (الكبير) يوم المذبحة المشهورة بالقلعة، حتى تخلَّص تمامًا من كُلِّ مُنَافِسيه، ومن فسادهم العتيق، وانفرد من بعد ذلك بحكم البلاد .

والبعض ينظرون إلى مجيء الجيش الفرنسي إلى مصر بقيادة نابليون بونابرت، باعتباره فجر (النهضة) الذي كان فيه خيرٌ للبلاد . لاسيَّمَا أنَّ فرنسا جاءت معها بالمطبعة وبفريق العلماء الذين انجزوا كتاب (وصف مصر) فكان

ذلك مقدمةً لفكِّ رموز اللغة المصرية القديمة، اعتمادًا على النص ثلاثي اللغة، المنقوش على الحجر الذي يتصدَّر اليوم مدخل المتحف البريطاني بلندن: حجر رشيد. على أنني أنظر إلى الأمر من ناحية أخرى، فأجد أن النهضة التي يظنون أن (الحملة) كانت شرارتها الأولى، ظلت تتشكَّل ببطء من قبل مجيء الحملة بعُقُودٍ طويلة من الزمان السابق على مجيء (الفرنسيس) وإلا فكيف استطاع محمد علي في سنوات قليلة، أن يبني إمبراطوريةً بلغت من القوة أن ناطحت الدولة العثمانية، بل كادت تُطِيْحُ بها لولا تدخُّل الإنجليز.. (الإنجليز ثانيةً!).. الذين قَلَّموا لمحمد علي مخالبه، في مؤتمر لندن الشهير.

* * *

هناك شواهد كثيرة على أن الحملة الفرنسية التي خرجت من مصر يوم مولد رِفَاعَة الطهطاوي (١٥ أكتوبر ١٨٠١) لم تأت بالعلم إلى أنحاء مصر. وتقوم دلائل عديدة على أن المعارف المتنوعة، لم تكن معدومةً في أرض مصر من قبل مجيء الحملة بعقودٍ من الزمان. وإلا فكيف تَسَنَّى لشيخ الأزهر أحمد الدمنهوري الذي توفى قبل مجيء (الفرنسيس) بسنوات، أن يؤلِّف في علوم الدين وعلوم الدنيا، فكان ضمن مؤلفاته: القول الصريح في علم التشريح - الكلام اليسير في علاج المقعدة والبواسير - عين الحياة في استنباط المياه - شرح رسالة إيساغوجي في المنطق. وكيف درس حسن الجبرتي (أبو المؤرِّخ المصري الشهير) علومَ الرياضيات والفلك، وهو لم يخرج من مصر؟ وكيف كُتِبَت في بداية القرن التاسع عشر، نصوص علمية بالمعنى الحديث للكلمة، مثل هذه المخطوطة التي كُتِبَت بدمياط سنة ١٨١٠ وعنوانها: رسالة في العلوم الحديثة . وهي عبارة عن كتالوج مُصَوَّر بالغ الدِقَّة، أعَدَّهُ القِسُّ عيسى بيترو للتعريف بدقائق التشريح والميكانيكا والفلك وغير ذلك من العلوم، بحسب

آخر ما وصلت إليه المعارف الأوروبية آنذاك. وهي المخطوطة المحفوظة اليوم بمكتبة الإسكندرية، تحت رقم ١٤٤٩/ج فلك .

الحملة الفرنسية على مصر، إذن، لم تأتِ بِمِشْعَلِ المعرفة ونورِ العلم الحديث وشرارة النهضة، على ما يزعمون. وإنما أجهضت نهضةً كانت تتشكل ببطءٍ في ديارنا، وما كانت لها أن تتوهَّج إلا بإذكاء الروح الوطني الذي كان آخذًا في النمو، وقامت شواهد على تحقُّقه وإمكان استعلائه. فمن ذلك وصول محمد كُرَيِّم إلى رتبة حاكم الإسكندرية، وهو الذي كان من عامة الناس، وبدأ حياته (قَبَّانيًا) أي وَزَّانًا بالجمرك، وهي بداية بالغة التواضع . لكنه ترقَّى في المناصب، حتى صار حاكمًا لأهم مدينة مصرية بعد القاهرة (الإسكندرية) وأهم ميناء مصري. وهي مرتبة لم تكن تتاح من قبل، إلا للأتراك، بل أكثر من ذلك: لم يحكم (مصري) أية منطقة (مصرية) حُكْمًا مُسْتَقِرًّا، منذ انتهاء الزمن المُسمى اعتباطًا بالفرعوني، حتى وقتٍ قريب. مما يعني أن مصر لم يحكمها المصريون طيلة ألفيْ عامٍ من الزمانِ أو أكثر .

وهكذا صار محمد كُرَيِّم أنموذجًا قابلًا للاحتذاء عند المصريين، وصورةً لما يمكن ان يصل إليه اي مصري من مراتب سياسية عالية، إذا صار مجتهدًا مثل محمد كُرَيِّم. مما كان له أثر في إشاعة (الأمل) بنفوس أهل البلاد، وتوهُّج (الروح القومي) عند المصريين . وقد سعى نابليون إلى إخماد ذاك الروح القومي الآخذ آنذاك في التوهُّج، بإمعانه في إذلال محمد كُرَيِّم وسجنه في منطقة أبي قير شرقي الإسكندرية، وإذاعة أن الرجل لايَكُفُّ عن الصراخ في سجنه قائلًا: افتدوني يا مسلمين! ثم دار به الفرنسيون شوارع المدينة ثلاثة أيام، وهو موضوع على حِمَارٍ بعكس وضع الراكب، إمعانًا في المهانة ! وظل المُنَادِي يطوف به صائحًا (هذا جزاء الذي يقاوم الفرنسيس..) وكأن الفرنسيين كانوا ينتظرون من

حاكم الإسكندرية، أن يُرَحِّبَ باحتلالهم لها .. ثم أعدم الفرنسيون محمد كُرَيِّم، جهرةً .

وثار المصريون، فدخل الفرنسيون الأزهر بخيولهم، وضربوا القاهرة بمدافعهم من فوق جبل المقطم . ثم انبرى أزهريٌّ من حلب اسمه سليمان، فقتل قائد الفرنسيين كليبر، فوضعه الفرنسيون على خازوقٍ اخترق جسمه ودماغه، فمات أمام الناس ميتةً مُهِيْنَة، حسبما أراد الفرنسيون.. وما كان ذاك فيما أعتقد، إلا محاولة فرنسية أخرى لإجهاض الأمل والروح القومي الآخذ آنذاك في الازدياد، ضمن محاولات أخرى كثيرة، كان منها شراء سراة المصريين، والتزوُّج بنسائهم مثلما فعل مينو مع (غادة رشيد) ومثلما فعل نابليون بعلاقته المُثِيْرَة مع ابنة شيخ الشيوخ البكري التي كانت امرأة جميلة، فما كان من أحد المصريين الغيورين، إلا أن طعنها بِخِنْجَرٍ في صدرها فأرداها قتيلة .

* * *

هناك مدخلٌ ثالثٌ إلى شخصية رِفَاعَة الطهطاوي، هو التكامل المعرفي عنده، أعني التناغم ما بين الإحاطة بالتُرَاثِ القديم، والفهم العميق للتمدُّن الأوروبي. ثم محاولة المزج بينهما، لتأسيس نهضة مصرية تجمع بين الأصالة والمعاصرة.. ولهذا المدخل مشروعيةٌ كبيرةٌ، تتمثل في استلهام رِفَاعَة لتُرَاثِهِ القديم، على نحو ما أشار إليه كاتب سيرته (صالح مجدي) في كتابه: حلية الزمن بمناقب خادم الوطن . حيث يقول إن رِفَاعَة (خادم الوطن) انهمك في الترجمة، لأنه: يريد أن يُتَرجِمَ علوم القوم (الفرنسيين) إلى العربية، حتى يصنع ما صنعه أسلافه العِظَام زمن العباسيين، وخاصةً على عهد الخليفة العباسي المُستَنِير، المأمون.

كما تتمثل مشروعية هذا المدخل، في الموضوعات الكبرى التي طرحها رِفَاعَة من خلال ترجماته عن الفرنسية، ومن خلال مؤلفاته الهادفة إلى تحريك السواكن الثقافية المصرية في عصره، وإلى استنهاضِ الهِمَمِ على نَسَقٍ أوروبيٍّ ليبرالي، مُسْتَخْدِمًا مُفْرَدَاتِ التُرَاثِ القديم. ولهذا، فهو لم يجد بأسًا في أن يُوْرِدُ في كتابه التربوي (المرشد الأمين للبنات والبنين) وهو الكتاب الذي يفترض فيه أن يكون مُقَرَّرًا على طلاب المدارس من الجنسين؛ نصوصًا من التُرَاث القديم لايجرؤ اليوم أيُّ (وزيرٍ للتعليم) على إيرادها بأىّ كتاب دراسيٍّ، خشية ثورة العوام عليه وخروج (المظاهرات) ضده، أو بدافع الخوف من إقالته. أعني نصوصًا من نوع ما نقله رِفَاعَة عن (ابن الجوزي) حيث قال: بنت عشر سنين تُشمس وتَلِيْن، وبنت عشرين تسر الناظرين، وبنت ثلاثين لذةٌ للمُعَانِقِين، وبنت أربعين ذات رخاوةٌ ولين، وبنت خمسين ذاتُ بناتٍ وبنين، وبنت ستين عجوزٌ في الغابرين.. قالت امرأة لأخرى: ما تقولين في ابن العشرين؟ قالت: ريحانةٌ تَشْمَّيْن، وابنُ الثلاثين قويٌّ متين، وابنُ الأربعين أبو بناتٍ وبنين، وابنُ الخمسين يجوز في الخاطبين، وابنُ الستين صاحِبُ سُعَالٍ وأنين.. النساء منهُنَّ الكاعِبُ وهي التي كعب ثدياها أي برزا وظهرا، ومن طباعها.. ومنهن الناهد، أي التي نَهَدَ ثدياها واستدارا.. إلخ .

* * *

وأعتقد أن ثمة مدخلًا آخر، بالغ الخصوصية، قد يسهم كثيرًا في فهم شخصية رِفَاعَة ويلقي مزيدًا من الضوء عليه. وهذا المدخل لا يُلْغِي أهمية المداخل السابقة وإنما يُضَافُ إليها، وأعني بذلك تلك (الوثيقة) التي كتبها رِفَاعَة بخط يده، ونورد فيما يلي نَصَّهَا (وقد وضعتُ على موقعي بالإنترنت www.ziedan.com صورةً منها) فهي أحد المداخل (الخفِيَّة) المُهِمَّة،

إلى شخصية رِفَاعَة الطهطاوى؛ لأنها تكشف عن جانبٍ عميقٍ منه، وتؤكّد أنه لم يكتب ما كتبه من مؤلفاتٍ تنويريةٍ، بغرض الطرحِ النظريِّ المُجَرَّد.. ولنتأمل هذا (التَعَهُّد) الذي خَطَّهُ رِفَاعَة الطهطاوي بيده، وأعطاه لزوجته:

التزم كاتبُ الأحرف رِفَاعَة بدوي رافع، لابنة خاله المصونة، الحاجة كريمة بنت العلأمة الشيخ محمد الفرغلي الأنصاري، أن يبقى معها وحدها على الزوجيَّة، دون غيرها من زوجةٍ أخرى أو جاريةٍ أيًّا ما كانت. وعَلَّق عِصْمَتَها، على أخْذ غيرها من نساء، أو تمتُّع بجارية أخرى .. فإذا تزوَّج بزوجة أيًّا ما كانت، كانت بنت خاله بمجرد العقد خالصةً (طالق) بالثلاثة، وكذلك إذا تمتَّع بجاريةِ مِلْكُ يمين. ولكن وَعَدها وَعْدًا صحيحًا لا يُنقض ولايخل، أنها ما دامت معه على المحبّة المعهودة، مُقِيْمَةٌ على الأمانة والحفظ لبيتها ولأولادها ولخدمها ولجواريها، ساكنةً معه في محل سكناه؛ لن يتزوج بغيرها أصلًا، ولا يتمتَّعَ بجوارٍ أصلًا، ولا يُخرجها من عصمته، حتى يقضي الله لأحدهما بقضاء. هذا ما انخَطَّت عليه العهود، وشهد الله سبحانه وتعالى بذلك، وملائكتُه ورسلُه. وإن فعل المذكور خلافَه، كان الله تعالى هو الوكيل العادل للزوجة المذكورة، يقتصُّ لها منه في الدنيا والأخرة . هذا ما انخطَّ عليه الاتفاق . وكذلك إن أتعبته، فهي الجانيةُ على نفسها .. (رِفَاعَة بدوي رافع، ١٤ شوال ١٢٥٥ هجرية) .

وقد يتحذلق البعض فيقول ما فحواه إن هذا (التَعَهُّد) الذي كتبه رِفَاعَة الطهطاوي (١٨٠١– ١٨٧٣) لزوجته لا يعكس شخصية رِفَاعَة الفعلية، وإنما يعبِّر عن شعوره بالتصاغر تجاه أخواله! فقد مات أبوه حين كان في سن الثانية عشرة، وتولَّت أمه وأخواله تربيته، خاصةً أن أباه مات فقيرًا بعدما سحب محمد علي امتيازات الأشراف (آل البيت) وألغى نظام الالتزام الذي كانت أسرة أبيه تستفيد منه. ومن ثم، فقد كان رِفَاعَة يشعر بالتصاغر تجاه ابنة خالته التي تزوَّج

منها، خاصةً أن عائلتها (أخواله) هم الذين دفعوا به إلى طريق العلم الأزهري، لكونهم علماء أزهريين، وهم الذين دفعوا به إلى الأمام ورعوا مسيرته . ومن ثم، كان لابد له أن يمتنَّ لابنتهم، لأنهم مَنُّوا عليه وامتنُّوا .

غير أن هذا القول ضعيف الحُجَّة، فإن رِفَاعَة حين ماتت زوجته التي تعهَّد لها بما تعهَّد به، لم يتزوَّج من بعدها بواحدةٍ من بنات العائلات الشهيرة، وهو الذي كان آنذاك مِلء السمع والبصر، بل من مشاهير مصر. وإنما تزوج بجاريةٍ من الجواري اللواتي كُنَّ سابقًا في بيته، فأعتقهن حين أعتق عبيده. ولم يقف رِفَاعَة مع عبيده عند حَدِّ (العِتْق) وإنما أوقف أرضًا للإنفاق على هؤلاء العُتَقَاء، حتى لايضطرهم العوزُ إلى العودة للعبودية مرةً ثانية. وحين صارت (الجارية) له (زوجة) صار رِفَاعَة الطهطاوي يُعَامِلُهَا مثلما كان يُعامِلُ ابنة خاله المُتَوَفَّاة، فلا هو تزوَّج عليها بامرأة أخرى، ولا تسرَّى (عاشر) بجارية أخرى. وإنما قضى معها بقيَّة عمره، مثلما عاش نصفه الأول مع ابنة خاله، فكان حسبما روته زوجته الثانية عنه: يفترش الأرض، فيشتغل بالترجمة وقد تناثرت كتبه حوله، بينما هي جالسة على السرير. وهي صورة حياتية قد يستخف بها المُعَاصِرُونَ، الذين لايعلمون طبيعة حياة أهل الصعيد، لكنه أمرٌ لو يعلمون عظيم. فليس من عادة الرجال هناك، لاسيَّمَا في ذاك الزمان، إعلاءُ النساء ولو في هيئة الجلوس. غير أن رِفَاعَة الذي كتب التعهُّد لامرأته الأولى (عالية النسب) هو الذي عاشر امرأته التالية (الجارية) بالحُسْنَى، وعاملها المعاملة نفسها. وهو الذي كتبَ في مؤلفاته، الفقرات التاليات، التي أرى من المناسب هنا أن نتأملها:

- *كلما كثر احترامُ النساء عند قومٍ، كَثُر أدبهم وظرافتهم. فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغي لهنَّ الحرية فيه، دليلٌ على الطبيعة المُتَبَرْبِرَة .. إلخ.*

• *الفضائل من حيث هي فضائل إنسانية، توجد في الرجال والنساء، ولكن على وجهٍ مختلف في طباعهن.. فهي عامةٌ في جميع أمم الدنيا وقبائلها، وذكورها وإناثها.. إلخ .*

• *إذا أمعن العاقلُ النظرَ الدقيقَ في هيئة الرجل والمرأة، في أيِّ وجهٍ كان من الوجوه، وفي أيِّ نسبةٍ من النِسَب، لم يجد إلا فَرْقًا يسيرًا يظهر في الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما .. وهما موضع التباين والتضاد .. وإلا كادت الأنثى أن تنتظم في سلك الرجل.. إلخ .*

• *يمكن للمرأة عند اقتضاء الحال، أن تتعاطى من الأشغال والأعمال، ما يتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقتها.. وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال، فهي مَذَمَّةٌ عظيمةٌ في حقِّ النساء .. إلخ .*

• *معرفة إرضاء أحد الزوجين للآخر، فنٌّ نفيس. وإن كان صعبًا في حَدِّ ذاته، لأنه يستدعي كمال التربية والإنصاف بالعدل وقوة العقل وذكاء الفطنة.. وكما أن الرجل الكامل يرى زوجته بعين الإجلال والاحترام، كذلك الزوجة المُتَحَبِّبَةُ إلى زوجها لا ترى أن في الدنيا رجلًا يساوي زوجها، وربما أحبته حُبَّيْنِ: حُبًا لذاته، وحُبًا لحقوق الزوجية ! فهذه هي المحبة الراشدة .*

هكذا تكلَّم رفاعة، وهكذا كانت حياته مِصدَاقًا لكلامه، وتطبيقًا فِعْلِيًا لما كان يؤمن به .

• • •

بعد هذه الزوايا والمداخل المتعددة لفهم شخصية رِفَاعَة الطهطاوى (١٨٠١- ١٨٧٣) نقترب فيما يلى من لوحة حياته وصورة مسيرته التي هي، بلا مُنَازِع، حياة ومسيرة الرائد الأول لمشروع النهضة الحديثة. ليس على المستوى النظري والتنظيري فحسب، وإنما على المستوى العملي والتطبيقي. وليس على مستوى مصر فحسب، وإنما على المستوى العربي العام (الذي شِئْنَا أم أَبَيْنَا، فهو ينتمي لثقافة واحدة).

وُلِدَ رِفَاعَة رافع الطهطاوي ببلدة طهطا بصعيد مصر، وهي بلدة كانت ولاتزال، نموذجًا للقرية المصرية بطابعها الجنوبيّ التليد؛ فهي قريبة من النيل تكاد حدودها الشرقية تُلَامِسُه. وتقوم بيوت البلدة في قلب أرضٍ سهلة، تنتصب في شرقها وغربها سلسلتان من الجبال، تَحُدَّانِ بينهما أرضًا خصيبة، ومن خلفهما تمتد صحراوان لا يَحُدُّهُمَا البصر. وفي قلب هذه البلدة المُسَمَّاه (طَهْطا، طَحْطا) بيتٌ عتيق لأسرةٍ توارثت العلوم الدينية وارتبطت أجيالها بالدراسة في الأزهر، فورث رِفَاعَة سمة العائلة وارتبط بسيرة أفرادها .

كان مولد رِفَاعَة سنة ١٢١٦هجرية (١٨٠١ميلادية) وفي السادسة عشرة من عمره نزل القاهرة للدراسة بالأزهر، وبعدها بخمس سنوات تولَّى التدريس في الأزهر، وتوثقت صلته بشيخه (شيخ الأزهر) العلاَّمة حسن العَطَّار. وظلَّ رِفَاعَة يدرِّس بالأزهر لمدة عامين، قضى بعدهما عامين إمامًا وواعظًا في الجيش الذي أسَّسه محمد علي لتحقيق طموحه في تكوين إمبراطورية تَرِثُ الدولة العثمانية .

والمنعَطَفُ الكبير في سيرة رِفَاعَة الطهطاوي، يبدأ مع سفره سنة ١٢٤٢هجرية (١٨٢٦ميلادية) إلى فرنسا ضمن بعثة أرسلها محمد علي على متن السفينة الحربية الفرنسية (لاترويت) لدراسة العلوم الحديثة . وكان حسن

العَطَّار، وراء ترشيح رِفَاعَة للسفر مع البعثة كإمامٍ لها وواعظٍ لطلابها. بَيْدَ أنّ رِفَاعَة طَلَبَ الإنضمام للبعثة، كدارسٍ، فتَمَّ ضَمُّه إليها لدراسة الترجمة .. وبعد سنواتٍ خمسٍ حافلة، أدَّى رِفَاعَة امتحان الترجمة، وقدَّم للامتحان مخطوطة كتابه الذي نال بعد ذلك شهرة واسعة: تَخْلِيصُ الإبْرِيزِ في تَلْخِيصِ بَارِيز .

وعاد رِفَاعَة لمصر سنة ١٢٤٧ هجرية (١٨٣١ميلادية) فلم يَعُدْ مثلما يَعُوْدُ اليوم طُلَّابُ بعثاتنا من الغرب، مُخْبَطِينَ ! وإنما عاد مُفْعَمًا بالأمل، مُنْكَبًّا على العمل؛ فاشتغل بالترجمة في مدرسة الطب، ثُمَّ عمل على تطوير مناهج الدراسة في العلوم الطبيعية .. وافتتح سنة ١٢٥١هجرية (١٨٣٥ميلادية) مدرسة الترجمة، التي صارت فيما بعد مدرسة الألسن، وعُيِّن مديرًا لها، إلى جانب عمله مُدَرِّسًا بها. وفي هذه الفترة تجلَّى المشروع الثقافي الكبير لرِفَاعَة الطهطاوي، وهو المشروع الذي وضع الأساس لحركة النهضة التي آتت أُكلها خلال قرنٍ كاملٍ من الزمان، كادت فيه البلاد تلحق بركب الحضارة والمدنية الغربية، ولكن انتكست أحوالنا واضطرب أمرنا، وصرنا في يومنا هذا، بعد عشرات السنين من زمن رِفَاعَة وتلامذته الرُوَّاد، نملأُ فراغنا اليوميّ بالتشدق حول (إشكالٍ) نَصُوغُهُ ونختلف حوله، يُسَمَّى: الأصالة أم المُعَاصَرَة! مع أن رِفَاعَة كان أصيلًا ومُعَاصِرًا، من دون إشكالٍ ولا اختلاف . ففي الوقت الذي ترجم فيه مُتُونِ الفلسفة والتاريخ الغربي ونصوص العلم الأوروبي المُتَقَدِّم؛ نراه يبدأ في جمع الآثار المصرية القديمة، ويستصدر أمرًا لصيانتها ومنعها من التهريب والضياع . وفي الوقت الذي كان ينكبُّ فيه على تُرَاثه القديم، ويحرص على انتقاء أفضل النُسَخ من مخطوطاته؛ كان يُتابعُ أحدث النظريات الفكرية الأوروبية، ويدعو لتعليم البنات .

وظَلَّ جَهدُ رِفَاعَة يتنامى، ترجمةً وتخطيطًا وإشرافًا على التعليم والصحافة، فأنشأ أقسامًا مُتَخَصِّصَةً للترجمة (الرياضيات، الطبيعيات، الإنسانيات) وأنشأ مدرسة المحاسبة لدراسة الإقتصاد، ومدرسة الإدارة لدراسة العلوم السياسية .
وكان ضمن مفاخره: استصدار قرار تدريس العلوم والمعارف باللغة العربية (وهي العلوم والمعارف التي تدرَّس اليوم في بلادنا باللغات الأجنبية) وإصدار جريدة الوقائع المصرية بالعربية بدلًا من التُرْكِيَّة؛ هذا إلى جانب عشرين كتابًا من ترجمته، وعشرات من الأعمال التي أشرف على ترجمتها.

كانت تلك هي (البدايات) الطَمُوحَة التي انطلق منها (مشروع) رِفَاعَة الطهطاوي. ثم كان من بعد ذلك ما كان من مُخَايَلاتٍ مُعَوِّقَة، ومُخَاتَلَاتٍ مُخبِطَة، ومُخَادَعَاتٍ من السُلْطَةِ الحاكِمَة. مثلما هو الحال ببلادنا في معظم الأحيان.

* * *

وإذا أمعنّا النظر في مشروع رِفَاعَة النهضويّ، سوف نرى أنه كان مشروعًا يتم عبر خطوات (مؤسساتية) لا تعتمد على قناعاته الشخصية فحسب، وإنما تلتزم بخطوطٍ رئيسة في منهج الترجمة، وفي العناية بالنشر الثقافي والصحفي (جريدة الوقائع) وفي العناية بتخريج جيل من المترجمين وحملة المشاعل الثقافية الذين بذلوا جَهْدَهُم، من خلال مؤسسات مصرية كبرى، لاستكمال الطريق الذي بدأه رفاعة. فكان الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والربع الأول من القرن العشرين، شاهدًا على امتداد أثر رِفَاعَة في ثقافتنا المُعَاصِرَة وعقلنا الجمعيُّ المُعَاصِر .

ومن المُحْزِن أننا اليوم مُضطَرُّونَ للإعتراف بأن سرعان ما خَبَت، وخَابَت المساعي، في حياة رِفَاعَة نفسه ! وهو ما حدث مع تولّي الخديوي عباس حكم مصر . فعبَّاسٌ هذا، أغلق مدرسة الألسن وأوقف أعمال الترجمة، وقصر توزيع جريدة الوقائع على كِبَارِ رجالِ الدولة من الأتراك، ونُفِيَ رِفَاعَة إلى السودان (سنة ١٢٦٧هجرية، ١٨٥٠ميلادية) بِحُجَّةِ توليته نِظَارَةَ المدرسة المِصرِيَّةِ بالخُرطومِ، وهي المدرسة المُغْلَقَةُ أصلًا ! وقد توفى بالسودان كثيرٌ ممن ذهبوا مع رفاعة، حتى إنه كتب هناك قصيدة يقول في أبياتها ما ملخصه: إن عمله الوحيد بالسودان، كان لبس ثياب الحداد على زملائه .

وهكذا عَبَس وجه الثقافة المصرية مع عباس، وعُوِّقَ الرفع والرِفْعَةُ التي أرادها رِفَاعَة عبر مشروعه النهضوي الطموح. بيد أن رِفَاعَة لم يَعْبس ولم يُعَوَّقْ، وإنما واصل المشروع في منفاه، فترجم هناك (مغامرات تليماك) لفنيلون، وجاهد للرجوع إلى الوطن. وهو الأمرُ الذي تيسَّر، بعد موت الخديوى العبوس (عَبَّاس) وولاية سعيد، بعدما كانت أربعة أعوامٍ من النَّفْي، قد مرَّتْ عليه ثِقَالًا .

وقد عاد رِفَاعَة بأنشط مما كان، فأنشا مكاتب محو الأمية لنشر العلم بين الناس، وعاود عمله في الترجمة، ودفع مطبعة بولاق لنشر أمهات كتب التُرَاث العربى .. وهكذا قضى رِفَاعَة فترةً حافلة، أخرى، من العمل الجامع بين الأصالة والمعاصرة؛ حتى انتكس سعيد فأغلق المدارس، وفصل رِفَاعَة من عمله (سنة ١٢٧٨هجرية ١٨٦١ميلادية) .

ويتولى الخديوي إسماعيل الحكم بعد وفاة سعيد، سنة ١٢٨٠ هجرية (١٨٦٣ ميلادية) فيعاود رِفَاعَة العمل، ويقضي العِقْدَ الأخير من عمره الحافل، في نشاطٍ مُفْعَمٌ بالأملِ.. فيُشْرِفُ مَرَّةً أخرى، وأخيرة، على مكاتب التعليم ويرأس إدارة الترجمة، ويصدر أول مجلة ثقافية في تاريخنا : رَوْضَةُ المَدَارِسِ .

ويكتب في التاريخ: أَنْوارُ تَوْفِيقِ الجَلِيل في أَخْبَارِ مِصْرَ وتَوْثِيقِ بَنِي إِسْمَاعِيل. وفى التربية والتعليم والتنشئة : مَبَاهِجُ الأَلْبَابِ المِصْرِيَّةِ في مَنَاهِجِ الآدَابِ العَصْرِيَّةِ.. المُرْشِدُ الأَمِين للبَنَاتِ والبَنِين . وفى السيرة النبوية : نِهَايَةُ الإِيجَازِ في تَارِيخِ سَاكِنِ الحِجَازِ .

وتوفى رِفَاعَة الطهطاوي، رحمه الله ورحمنا من بعده، سنة ١٢٩٠ هجرية، المُوَافِقَة لسنة ١٨٧٣ ميلادية، بعدما ترك لنا موروثًا ثريًّا من الرؤى والجهود العلمية والعملية، وترك أيضًا مجموعة مخطوطاته النادرة التي سوف نتوقف عندها في مقالتنا القادمة (الثامنة، الأخيرة) التي نُلَمِّحُ فيها إلى جوانب (خفية) من شخصية رِفَاعَة الطهطاوي، تظهر فقط من خلال النظر في محتوى مكتبته الخَطِّيَةِ النادرة التي كُنْتُ في أيام فُتُوَّتِي وعُنْفُوَانِي، قبل عشرين سنة، قد قمت بفهرستها فهرسةً وصفيةً كاملة، صدرت في ثلاثة أجزاء كِبَار، بمطلع التسعينيات من القرن العشرين (الحزين) الذي شهدَ انهيار المشروع النهضوي الكبير الذي أطلق الطهطاوي شرارته الأولى، فتوهَّجَت حينًا من الزمن ثم انطفأت، أو أُطفِئَت.

الثورة الثقافية

مفهوم الثورة

حسبما ذكرتُ بالتفصيلِ في كتاباتٍ سابقةٍ [1]، منشورة، فإن لفظ "الثورة" في أصل اللغة وفي دلالته القديمة، لا يحمل أيُ معنى إيجابي. بل على العكس تمامًا، ترتبط كلمة "ثورة" ومُشْتَقَّاتَها بدلالاتٍ سلبية، وتُسْتَعْمَل للتعبير عن الرديء والَمرضي من الوقائع والظواهر: ثورة الزَّنْج ، وهى الفوضى التي أحدثها العبيدُ في العصر العباسي.. ثوران الدم، وهو الاسم القديم لما نعرفه اليوم باسم ضغط الدم.. ثائر، وهو الشخص الذي قُتِلَ قَرِيبٌ له ويريد قتل القاتل أخذاً بالثأر.

لكن الاستعمال المُعَاصِرَ للكلمة، وبالتحديد بعد ثورة الظباط الأحرار (جدًّا) سنة ١٩٥٢، شهد انقلابًا دِلَالِيًّا للضِدّ، صارت معه كلمة الثورة ومُشْتَقَّاتِهَا تعني المعاني الإيجابية، فصرنا نقول: النقاء الثوري، الروح الثورية، الثورة المباركة، ثورة التصحيح، التحرر الثوري.. وغير ذلك كثير من التعبيرات الدالة على " إيجابية مفهوم الثورة " .

---

(١) الإشارة الى كتابى الصادر عن دار الشروق، بعنوان : فقه الثورة.

ولما سبق، فإن استعمالنا هنا لكلمة "ثورة" إنما يجري على المسار المُعَاصِر للكلمة، وفقًا لدلالتها الحالية المستقرة في الأذهان، باعتبار الثورة حركة شعبية تُعَبِّرُ عن رغبة الجماعة في التغيير السياسي، وتَنْطَلِقُ من أُمْنِيَاتٍ عامة ترنو إلى التحرر وكَفِّ الظُّلْمِ والارتقاءِ بحياة هذا الشعب أو ذاك.. ومن ثم، وبهذا المعنى المعاصر، فالثورة عمل مشروع كلما دعت الحاجة إليها، أو اضطرَّ الناس لها.

أما كلمة "الثقافة" فهي واسعة المعنى، كثيرة الدِلَالَات. ولذلك فإنني أميل دومًا إلى تعريف عالِم الإجتماع الشهير "تايلور" للثقافة لأنه الأكثر قبولًا والأقل إثارة للخلاف حول مفهوم الكلمة. والثقافة بحسب هذا التعريف تعني: الكل المُرَكَّب من حياة جماعة، بكل ما يشتمل عليه من عادات وتقاليد ولغة ومُعْتَقَدَاتٍ ومعارف عامة شائعة بين أفراد هذا المجتمع أو ذاك .

وعلى ما سبق، فإن كلمة "ثقافية" إذا أُضِيفَت لكلمة "ثورة" فالمراد من مصطلح "الثورة الثقافية" هو الحركة المُجتمعية الرافضة والهادفة إلى تغيير ما استقر في المجتمع من أفكارٍ عامة وأمورٍ اعتقادية ورؤى عامة للكون. وبطبيعة الحال، تختلف الثورة الثقافية عن الثورات السياسية، فهذه الأخيرة تهدف عادة إلى إعلان الرفض للسلطة القائمة، والإفصاح العام عن رغبة الناس في التغيير أو بالأحرى التبديل: تبديل حاكم بحاكم آخر، تبديل نظام الحكم بنظام آخر،تبديل النسق السلطوى العام بنسق سلطوي آخر.. فينادي الثُوَّارُ عادةً بقائِدِ ثَوْرَتِهِم بديلًا عن الحاكم الحالي، أو بتغيير النظام الملكي إلى نظام جمهوري. أو بالخروج من قبضة استعمارٍ ما، إلى إقرار حكومة وطنية. وعادة ما تقترن الثورات السياسية بالعُنْفِ والعُنْفِ المُضَاد، لأن السُلْطَة السابقة لا تتنازل بسهولة عما هي فيه من سيطرة، فتقمع الثائرين ضدها بالإجراءات العنيفة

الرادعة، فينكسر الناس أو يواجهون العنف السلطوي بما هو أعنف. ومعروف أن أي شعب، إذا اتحد، فهو لا محالة أقوى من حاكميه، وأقدر منهم على إملاء إرادته .

أما الثورة الثقافية، فهي لا تنطوي بالضرورة على صَخَبٍ علنيّ، أو مواجهات عنيفة كتلك التي نعرفها في الثوارات السياسية وحركات التحرر. لأن الثورات الثقافية تستهدف الأفكار غير المحسوسة، وتأثيرها لا يجري على نحوٍ مُبَاشِر أو صِدَامي بالضرورة، ولا يقع التغيير المنشود منها على المدى القريب. لأنه يتم على مستوى البِنْيَة العميقة للعقل الجَمْعِي، وليس على مستوى استبدال حاكمٍ بآخر، كما هو الحال في الثوارات السياسية .

ومع ذلك، فإن أيَّ ثورة سياسية ضد حاكم مستبد أو مستعمر لن تخلو من سِمَات ثقافية ذات طبيعة ثورية، إذ لايمكن أن يثور شعبٌ إلا إذا قام أفراده، أو بعضهم، بإعادة النظر في المفاهيم التي كانت سائدة من قبل. وبإعادة النظر في التَصَوُّرَاتِ العامة السائدة في المجتمع، سعيًا لإعادة بنائها في الوعي العام. فمن ذلك معاني: الحرية، الفهم، الخنوع، المقاومة، الرضا، الرغبة في التغير.. وهذه كلها "أفكار" تُحَرِّكُ الجُمُوعَ وتقودها إلى طريق الثورة السياسية.

وهناك مفاهيم أخرى للثورة، قد ترتبط بمفهومي الثورة الثقافية والثورة السياسية، لكنها لا تتطابق بالضرورة مع واحدة منهما، وقد لا تنعكس عليهما. فمن ذلك (الثورات المعرفية) التي يتطور بها العلم الإنساني من مرحلة إلى أخرى، كتلك الثورة المعرفية التي قام بها الطبيب اليوناني العظيم "أبقراط" عندما دَوَّن العِلْمَ وقام بكتابته فجعله مُتَاحًا دون شرط التلقين وصُحْبَةِ الأستاذ، بعدما كان العِلْمُ من قبلُ "سِرًّا" ينتقِلُ من سابقٍ إلى لاحق، بالتلقي المباشر.. ومن الثورات المعرفية ما أحدثه اكتشاف العرب لصناعة الورق، السر الصيني

القديم، وتقديمهم هذا الإكتشاف للعالم أجمع. مما أدى إلى طفرة معرفية كبرى بسبب سهولة الإنتقال والتَفَاعُل المعرفي، عبر وسيط مُتَاح وقليل التَكَلُف نسبيًا، بالمقارنة بوسائط أقدم كورق البردي النادر في غير مصر، والرقوق الجلدية صعبة الإنتاج نسبيًا، والنقش على الحجر أو ألوان الطين الهَشَّة.. ومن الثورات المعرفية، ما جرى على يد كوبرنيكوس الذي عكس الفكرة الأولية الأقدم، وهي مركزية الأرض ومحورية الإنسان،إلى نقيضها: الأرض تدور حول مركز هو الشمس، والمجموعة الشمسية تدور في مجرة، والمجرات تدور في كون لا نهائي الأبعاد.

تشويه المفهوم

أشرت فيما سبق إلى أن الثورة السياسية، لا تخلو من ملامح ثقافية.منها اختلاف طريقة التفكير العام،ومنها إسقاط السلطة البطريركية (بالمعنى الأصلي للكلمة، لا الكَنَسِي تحديدًا، أى سلطة الأب الأعلى فوق الآباء) ومنها إعلاء شعار الحرية على ما عداه من شعارات سابقة، مُسْتَهْلَكَة، مثل قول الحاكم: أنا الدولة، أو الفوضى، دولة القانون، الانحياز لخيار السلام.. إلى آخر هذه العبارات الجوفاء التي طالما سمعنا أيام " الرئيس مبارك " كثيراً منها، ولاكها الإعلام حتى اهترأت، فصارت مع التكرار مُسْتَهْلَكَة ومُهلِكة لأصحابها.

وبعد التداخل في البدايات، تفترق الثورتان (الثقافية والسياسية) في المسار. إذ تتوجه الثورات السياسية مباشَرَةً إلى السلطة، وتسعى إلى تغييرها بشكل راديكالي. أي جذري ومباشر. بينما تهدف الثورة الثقافية إلى إعادة بناء التصورات العامة في المجتمع، وتقود أفراده إلى غاية أبعد من التقلبات السياسية، وأرسخ. هي دفع العقل الجمعي إلى التفكير بشكل جديد، يختلف

عن الشكل القديم العقيم الذي أدى إلى تدهور الأوضاع، حتى وجبت الثورة عليها.

ومع أن الثورة الثقافية أهم من مثيلَتِهَا السياسية، بكثير، إلا أنها أصعب أيضًا بكثير.. فمن اليسير تهييج الناس وإثارة حفيظتهم ضد حاكم معين، بالحق أو بالإعلام، ومن السهل حشد الجماهير بتحريك عواطفهم وحماستهم وميلهم الفطري للصخب. ولكن ليس من اليسير أو السهل، الإرتقاء بالوعي الجمعي وتعديل طريقة التفكير العُمُومِيَّةِ في المُجْتَمَع، ودفع الناس للاستمساك بالأُسُسِ المنطقية، وللإيمان بعقلٍ جديدٍ لعالَمٍ جديدٍ.

وإذا كان " القمع " هو أحد أهم وسائل السلطة لمقاومة الثورة السياسية، فإن من أهم (مُعَوِّقَاتِ) الثورة الثقافية ووسائل الإلتفاف عليها، تشويه دِلَالَة هذا المصطلح وربطه بِخِبراتٍ سيئة في حياة الشعوب، بما يكفي لصرف الأذهان عن التفكير أو الشُرُوعِ في ثوراتٍ ثقافية.. وسوف يسأل سائل: ولماذا يتم إعاقة الثورة الثقافية، ولماذا يتم الإلتفافُ عليها؟ وقد يُضِيْفُ هذا السائل: مَنْ صاحب المصلحة في هذا التعويق، وتلك الإلتفافات؟.. والإجابة: يحرص البعض على إعاقة وتشويه الثورة الثقافية لأنها تُطِيْحُ بمصالح كثيرين، ارتبط وجودهم العام بالنظام الثقافي القديم. وهؤلاء كثيرون ومن مصلحتهم أن يبقى الحال على ما هو عليه، حتى يظلوا على ما هم عليه من مكانة مُجْتَمَعِيَّة سوف تقوم الثورة الثقافية بإزاحتها عن عقول الناس، بمكنسة المَنْطِقِ والرُؤى المُسْتَقْبَلِيَّة.. فإذا كانت الثورة السياسية تهدِف إلى إسقاط حاكم فاسد أو غير صالح للحكم، وحاشيته، فالثورة الثقافية تقوم بتغيير أنظمة كاملة لها حواشٍ عدة، عادةً يرتزق منها كثيرون: الكهنة، الدُعَاة، المُتَسَلِّقُونَ، المُحْتَرِفُونَ سُبُلِ الإلتفافِ حول القانون.. ولأن الثورة الثقافية تدعو للتفكير على نحوٍ مُخْتَلِف

يتسم بالمنطق والعقلانية، فمن الطبيعي أن تكون خطرًا على الكهانة والذين يرتزقون منها، ومن الطبيعي أن تُزِيْحُ أولئك الذين يَّدعون فيدعون المدعوين، كسباً للعيش! إذ ما معنى "الدعوة إلى الإسلام" في مجتمع مُسلِم، وما معنى التبشير "الكرازة" في الكنيسة نفسها؟.. إن أولئك وهؤلاء، تَكْسُدُ بضاعتهم مع نجاح الثورة الثقافية وتطور الأفكار في المجتمع. وكذلك يكون حال المُتَسَلِّقِينَ ومُحترِفِي الإلتفاف، الذين يتعَيَّشُونَ بالسعي في الدهاليز، فهولاء ممن تقضي الثورة على المسارب العطنة التي يجوسون فيها وبالتالي، فهم يحرصون على إخماد الأفكار الثورية ومقاومة التغيير في طرائق التفكير، بعدة وسائل منها تشوية فكرة "الثورة الثقافية" ذاتها.

وطرق تشويه الثورة الثقافية كثيرة، وأولها تشويه المصطلح في أذهان الناس الذين زرع الإعلام في أذهانهم، أن الثورة الثقافية هي ما جرى في الصين على يد الزعيم الشيوعي "ماو تسي تونج" وما جرى في إيران على يدي الإمام الشيعي "الخوميني" وبهذا ترتبط الثورات الثقافية بعكس ما هو ثورات ثقافية .. ولننظر فيما جرى بالصين، لنرى كيف كان المُضَادّ التام للثورة الثقافية: في عام ١٩٦٦ بدأت في تاريخ الصين الحركة التي سُمِّيَت إعلاميًا "الثورة الثقافية" حين أعلن ماوتسي تونج عن بدء حركة فكرية ضد الأفكار القديمة التي يُمَثِّلُها الحكيم الصيني القديم "كونفشيوس" لكن هذا الزعم العريض لم يكن هو الحقيقة. فقد كان "ماو" يشكو من أنهم في الصين، بحسب تعبيره الذي همس به للمثقف الفرنسي والوزير الشهير أندريه مالرو: ما عادوا يسمعون كلامي (راجع نص الحوار، والمقابلة بينهما، في كتاب أنديه مالرو: اللا مُذَكِّرَات) ولكي يسمع الصينيون كلامه أعلن "ماو" ثورته في تلك، وكان غرضه الأصلي هو القضاء على كل الذين يعارضونه، ممن كان يسميهم "ممثلي البرجوازية" وهم في واقع الأمر رجال المرحلة السابقة الذين نُسَمِّي أمثالهم في مصر: فلول

الحزب الوطني (ويسمونهم اليوم في ليبيا: أزلام القذافي).. وتحت راية الثورة الثقافية قام "ماو" ورجاله بتعذيب ملايين الناس، وقتل مئات الألوف، حتى وقفت الصين على شفا حربٍ أهلية سنة ١٩٦٨ وجعلتها أحوالها الداخلية المضطربة، تتراجع أو تتخلف عن دورها العالمي. حتى في المناطق القريبة منها، فلم نستطع مساعدة فيتنام التي انتهكها الأمريكيون علانية، ولم تستطع المشاركة في صياغة السياسة الدولية في تلك الفترة. وبعد وفاة "ماو" بقليل، ولأنه كان شخص شِبه مُقَدَّس، فقد حُوسِبَ غيره على آثار الدمار الذي تم تحت زعم الثورة الثقافية، وحُوكِمَ الأفرادُ المعروفون آنذاك باسم (عصابة الأربعة) وكان منهم أرملة الزعيم.

وعلى النسق السابق، وتحت زعم "الثورة الثقافية" أيضًا، قَتَلَ الخوميني ورجاله الأقربون (الملالى) نالا حصر له من صفوة المجتمع الإيراني، فكان الضحايا من الكثرة بحيث بلغ عددهم عشرات الآلاف ولما كَثُرَ الفتك والقتل، قيل للملالي وآيات الله إن القتلى باسم الثورة كَثُرَ عددهم جدًا، ومن المحتمل أن يكون كثير منهم أبرياء مما فجاء الرد القاطع (العجيب) على لسان آية الله خلخالي، الذي كان مسئولًا عن المُحَاكَمَاتِ الثورية.. قال: إن كان هولاء القتلى هم المُذْنِبُونَ فقد نالوا عقابهم، وإن كانوا أبرياء فسوف يدخلون الجنة .

وهكذا كانت كلتا الثورتين ومهلكة، ومعاكسة لمعناها. مما أدى إلى تشويهِ المُصْطَلَحِ ذاته، فلم يعد تعبير (الثورة الثقافية) جذّابًا في أذهان الناس.. وفى واقع الأمر، فما حدث في الصين وإيران لم يكن أصلًا ثورة ثقافية، أو غير ثقافية لأن الثورة لا يقوم بها شخص أو مجموعة قليلة العدد، وإنما تقوم بها قاعدة عريضة من الناس استجابة لدعوة شخص أو مجموعة قليلة العدد. والثورة لا يصح أن يدعو إليها المُستَولِي فعلاً على السلطة، لأنها تقوم أساسًا لإزاحة

سلطة قائمة بالفعل، سياسية أو اقتصادية أو فِكْرِيَّة . ولا يفوتنا هنا أن السلطات السياسية وغير السياسية (الدينية، الاقتصادية ... إلخ) يكون بينهما تناغم خَفِيّ. وبالتالي فإن المُستَوْلِي على مقاليد السلطة السياسية بشكل ثوري، حين يخشى فقدان سلطته بسبب تطور المسار الثوري العام في بلده، وحين يصيبه القلق من انتقال الفكر الجمعي العام من حالة الثورة السياسية الهادفة إلى تغيير نظام الحكم، وإلى حالة الثورة الثقافية المؤدية إلى إعادة بناء المفاهيم الأساسية والتصورات العامة "رؤى العالم"، يلجأ حينئذ إلى الحيلة المُسَمَّاة زورًا وبُهْتَانًا : الثورة الثقافية.. والذي حدث فعلًا، هو أن ماوتسي تونج والإمام الخوميني، كلاهما انتابه القلق من تحول الثورة وتطورها من الحَيِّزِ السياسي (الأيديولوجي الضَيِّق، إلى المجال الثقافي الواسع. فقام كلٌّ منهما بتوجيه الأمر نحو صالحه الخاص، وصار يدعو هو للثورة في ثوبها الجديد (الثقافي) ومراده الأساسي إحكام قبضته السلطوية على (عقل) المجتمع الذي يحكمه، عن طريق مقاومة الأفكار لا الأفعال، والرؤى العامة لا المظاهرات المُعَارِضَة، وخواطر الناس وليس الأداء العام لهم . وهذا عَيْنُ القَهْرِ، لا للثورة .

إن الثورتين الثقافيتين المزعُومَتَيْنِ في الصين وإيران، كانتا في واقع الأمر حيلة سُلْطَوِيَّة يمكن النظر إليها باعتبارها المُضَاد المُبَاشِر أو النقيض التام للمفهوم الحقيقي للثورة الثقافية. أو هما في حقيقة الحال، محاولة إجهاض لخطوات التحول الثقافي اللازم حدوثه بعد خمود الصخب الذي تُحْدِثُهُ الثورات السياسية.. وبعد هذه الإيضاحات الأولية يأتي أوان هذه الأسئلةالمحورية : ما الذي حدث بمصر؟ وكيف تم تشويه مفهوم الثورة الثقافية؟ ومن الذين قاموا بذلك؟

بخصوص السؤال الأول، فإن حالة النشاط الثقافي المُرْتَفِعَة (نسبيًا) قبيل ثورة يناير، وهي الحالة التي دَلَّت عليها عدةُ مؤشراتٍ كان منها: ارتفاع مُعَدَّلات القراءة بشكل غير مسبوق، افتتاح عدة جامعات أوروبية لفروع لها في مصر، الطفرة المعلوماتية ونشاط وسائل التفاعل على شبكة الإنترنت، الكتابات المُعَارِضَة بقوة للحكومة وسياساتها.. وغير ذلك من الظواهر التي مهَّدت لهذا الإمتزاج المطلوب لإطلاق شرارة الثورة، أعني امتزاج الثقافة بالسياسة والتفاعل بينهما . فلما حققت الثورة السياسية غرضها الأول، وهو إسقاط النظام والقضاء التام على فكرة "توريث" الحكم "الجمهوري".. هنا بدأت عملية التشوية المصري "المُنَظَّم" للجانب الثقافي من الثورة، لتلافي التطور ومقاومة الخطوة التالية المُرتَقَبَة، وهي الإنتقال الثوري من الجانب السياسي إلى الجانب الثقافي. لأن هذا التطور وذلك الإنتقال، يُهَدِّد مصالح كثير من الناس. كان منهم هؤلاء الذين صار بيدهم الحكم السياسي بشكلٍ انتقالي مؤقت، وهم في واقع الأمر جزءٌ من النظام القديم الذي انهار بسبب الثورة.. ولايفوتنا هنا، أن الداعم والمُعَارِض لأي نظام، هما في واقع الأمر جزء من اختلاف الأدوار .

وهنا يأتي السؤال الثاني، عن الكيفية التي تم بها تشويه الثورة الثقافية التي كانت مُرْتَقَبَة، ومُقْلِقَة لمن بأيديهم مقاليد الأمور.. ولنتذكر ما جرى، أو على الأقل بعضه: فجأة، سطع نجم المشايخ المنسوبين إلى التيار السلفي (محمد حسان، حازم أبو إسماعيل، وغيرهما) مع أن السلفيين كانوا مُتَفَاهِمِيْنَ على نحوٍ ما مع النظام الذي قامت الثورة بإسقاطه، ولم يكونوا يومًا ما دُعَاةً لأيِّ ثورة. ولكن صار هؤلاء فجأة، هم النجومُ الذين يترددون على المجلس العسكري (الحاكم) وهم الساطعون في البرامج التليفزيونية، والمؤثرون من فوق

المنابر في جمهورٍ عريضٍ من الناس. وفي الوقتِ ذاته، بدأت عملية الهجوم العام على "النُخْبَة" دون تحديد دقيق لمن هم هؤلاء النخبة، وللمعنى الدقيق لهذا الوصف. مما أدى إلى هَزّ ثقة الجمهور في المفكرين والكُتَّاب، لاسيَّمَا مع إزاحة الجادِّينَ منهم إلى خارج المشهد بتدابير وحِيَل مُختَلِفَة، مع إعلاء شأن التافهين منهم والمُتَفَاهِمِيْنَ مع السُلْطَةِ الجديدة الحاكِمَة، التي هي جزء من مكونات السُلْطَةِ القديمة التي أُزيحت.. وهكذا مورِسَت ألعاب إعلامية، وتعاون الباقون من السُلْطَةِ القديمة معًا وصاغوا تصورات فضفاضة للمستقبل، وتمّ الترويج لها حتى بدا للناس أن ما هو (ديني) هو الخلاص، وما هو(ثقافي) لا قيمة له. فنجح الإخوان في الوصول إلى الحكم، حسبما أُريد منهم ولهم .إلى حينٍ معلوم.

والسؤال الثالث: مَنْ هم هؤلاء الذين قاموا بتشويه الجانب الثقافي من الثورة المصرية، لتلافي استمرار الحالة الثورية وتطورها، وانتقالها المُرْتَقَب من الجانب السياسي إلى الجانب الثقافي؟.. الإجابة الصريحة و المُبَاشِرَة ، هي: المجلس العسكرى وقادة الإخوان المسلمين. كيف؟

هذا يحتاج إيضاحاً : يخطئ من يظن أن الإخوان كانوا على خلاف مع نظام مبارك أو وريثه الأول (المجلس العسكري) لأن هناك شواهد لا حصر لها تدل على التناغم بين أولئك وهؤلاء، وقد أشرت إلى بعضها في الصفحات الأخيرة من روايتي"مُحَال" وصرَّحت ببعضها الآخر في المقالات التي نُشرت في وقتها بجريدة المصري اليوم، ثم أعدتُ نشرها مُنَقَّحَةً في كتابي: فقة الثورة. فمن أراد مزيدًا من الأدلة على تواطؤ الوريثين (المجلس العسكري، الإخوان) فعليه النظر برَوِيَّة في الآتي: التَغَيُّرَاتِ المُتَلاحِقَة والسريعة لوزراء الثقافة

والحرص على اختيار "الوُدَعَاءِ" لهذا المنصب.. الإهمال المُتَعَمَّد للمؤسسات الثقافية الكبرى في مصر، والحرص على إبقائها في حالة اللاموت واللاحياة.. إزاحة معظم الجادين من المفكرين والكتاب من المشهد العام، وتسريب سواقط الأعمال ذات الطابع الثقافي العام لإلهاء الناس (مثل الأفلام الهابطة).. رواج برامج المُهَرِّجُونَ إعلاميًا.. إظهار الثُوَّارِ في ثوب المُنْدَفِع والمُتَواطِئ والمُتَعَامِل مع الغرب وصاحب الأغراض (الأجندة) الخفية.. إفساح المجال الإعلامي أمام أولئك المبتسمين دومًا وهم يُرَدِّدُونَ العبارة الرخيصة: أنا مُتَفَائِل.

وبهذا تحولت الثورة إلى فورة، وتم استبعاد "الثقافة" من المشهد العام، مع أنها هي السبيل الوحيد لتعميق الوعي العام. فكانت النتائج التي سنتحدث عنها فيما يلي، وسوف نرى أنها نتائج خطيرة نُعَانِي منها اليوم، وسوف نُعَانِي من المزيد منها مُستَقْبَلًا[1].

نتائج إجهاض الثورة الثقافية

كانت عمليات التشويه المُتَعَمّد للجانب الثقافي من الثورة المصرية، نوعاً من " الإجهاض " الذى هو فعل استباقيٌ لتلافي قتل الجنين بعد مولده، بإسقاطه من الرحم الحاضن له من قبل أن يكتمل نموّه. وبذلك لا يصير الجنين وليدًا، وإنما يُسَمَّى في فصيح اللغة: ملص. يعني بعبارة أوضح، أن الثورة الثقافية التي كانت تتشكل في أثناء أو في رحم الأحداث

---

(١) نشر هذا الكلام بجريدة الأهرام، يوم ٢٩ أكتوبر ٢٠١٤ .

الثورية، والتحولات المصاحبة لها في أذهان الناس وطرائق تفكيرهم ونظرتهم العامة، يتم القضاء عليها مُبَكِّرًا بهذه الخطوات الإستباقية لكي لا تتشكل منها قوى مُعَارِضَة بمقدورها لاحقاً تكدير صفو السلطة السياسية، وإثارة الإعتراضات المنطقية ضد أشكال الهيمنة السياسية على جمهور الناس. وهذا بالطبع ما لا يرغب فيه أي حاكم يسعى لتوسيع سلطته وتضييق قبضته على الناس، لأن طبيعة السلطة السياسية تَنْزَعُ تلقائيًا نحو الحصول على الطاعة، وتأنف بطبعها من الإعتراضِ عليها.

وقد أدَّى هذا التفريغ الثقافي لمُحْتَوَى الثورة، وإجهاض قُدْرتِهَا على تشكيل وِجْهَاتِ نظر أكثر مُنَاسَبَةً لحالة التحول الثوري، إلى تشويش مفهوم (الذات) بالمعنى الاجتماعي العام. فظهرت نتيجة لذلك الغياب دعاوى علنيةُ جوفاء، منها الشعار الأجوف الذي سمعنا صراخ المنادين به في الشوارع والميادين" إسلامية، إسلامية" وهو ما انتهى إلى استيلاء جماعة الإخوان المسلمين على الحكم السياسي إلى حين لم يستمر إلا سنة واحدة، دفعت البلاد تكلفتها باهظةً. مع إن إسلامية مصر لم تكن هناك آنذاك، ولم يكن من قبل، أيَّ شَكٍ فيها. فمصرُ بطبيعة الحال بلدٌ إسلامي، لكنه أيضًا مسيحي وعربي ومُتَوَسِّطِي، ويفهم الإسلام بطريقته الخاصة يغلب عليها التبسيط وليس التعقيد، التسامح وليس التعصب المذهبي. هذه طبيعة الثقافة المصرية الأصيلة، التي تم اختزالها في شعار (إسلامية، إسلامية) لإلغاء المُكَوِّنَات الثقافية الأخرى الداخلة في المنظومة العامة، وبالتالي الإعلاء الوهمي لعنصرٍ واحدٍ من العناصر الكثيرة التي تتألف منها المنظومة الثقافية المصرية، تمهيدًا للوصول بهذا العنصر الوحيد (الإسلام) إلى الحكم السياسي والسلطة القائمة على عنصر وحيد هو ولاية الداعية ..ولاية المُتَدَيِّن.. ولاية الفَقِيْه.. ولاية الأمير الذي يرأس الجماعة.. ولاية خليفة المسلمين.. ولاية النص الديني! وقد ترتب على هذا

بلايا كثيرة، كان منها: انتشار الإتجاهات المُتَعَصِّبَة دينيًا واستعلانها الغوغائي، وقوع جرائم مُرَوِّعَة باسم الدين كان منها قتل الشيعة في قرية " أبو النمرس " القريبة من القاهرة، وحرق الكنائس في القاهرة و الصعيد، إرسال الشباب إلى الجهاد في سوريا، طمس معالم الشخصية المصرية لمصلحة مصالح الحاكمين من "الإخوان المسلمين" الذي يعني اسمهم أن غيرهم ليسوا إخوانًا، وليسوا مسلمين.

وكان من نتائج إجهاض الثورة الثقافية، سيادة الأعمال الفنية الرديئة. فانتشرت في البرامج التليفزيونية حلقات الهنك والرنك، وصارت لها قنوات مخصوصة لا تُقَدِّمُ الفَنَّ بقدر ما تُمَهِّدُ للعُهر والدَعَارَة. كما ظهرت قنوات خاصة للرقص الشرقي واشتهرت فجأة راقصات لم يُخْبِرهُنَّ أحدٌ بأن الرقص كان قديمًا نوعًا من العبادة. وظهرت الروايات والأعمال الأدبية المُسَمَّاة أدب الرعب، وجاءت خالية من الفكرة العميقة واللغة الأنيقة اللازمة لكل نص أدبي. وسادت الرؤى الجاذبة لاهتمام الجمهور عبر عمليات التخويف من المؤامرة (الصهيونية، الماسونية) التي تُحَاكُ في الخفاءِ ضِدَّ مصر، مع إهمال النظر في الخُطَط المُعْلَنَة والجارية فعلًا، دون أسرار مُخِفْيَة ولا نزعات تآمرية.

وقد ترتب على ذلك، بلايا كثيرة كان منها: اختفاء الصناعات الثقافية الثقيلة بسبب شيوع التفاهة (ومعروف أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، حتى في المجال الثقافي).. اختفاء المُبَادَرَات الفِكْرِيَّة والثقافية الجادة بسبب التدخل العام وافتقاد الدعم اللازم لتطوير هذه المُبَادَرَات. ومعروف أنه "إذا عَظُمَ المطلوب، قَلَّ المُسَاعِد" مثلما قال المُتَنَبِّي في شِعْرِهِ. فما بالك إذا كان الواقع العام لا يقتصر فقط على عدم دعم هذه المُبَادَرَات، وإنما يسعى جاهدًا للإجهاز عليها من قبل أن تولد. وهذا هو الإجهاض الذي يمنع من اكتمال

الجنين الثقافي، لتلافي قتله إذا اكتمل.. وعلى طريقة التعبيرات السينمائية القديمة، فقد تمت التضحية بالجنين والتضحية بالأم والتضحية بالأب أيضًا، لإنقاذ الحكم السياسي النافذ باسم الإله الأعلى وباسم المصالح العليا للبلاد .

وكان يمكن لنا أن نتلافى تلك البلايا، إذا عرفنا أهمية الموازرة الثقافية للتغيير السياسي في النطاق الثوري، وإذا أدركنا أن استبعاد الجانب الثقافي وتعويق حركته، كان لابد أن يؤدي إلى الأعاصير التي أطاحت بكيانات مجاورة لنا مثل ليبيا وسوريا والعراق والصومال.. نقول إجمالًا: إن إهمال الأساس الثقافي لحالات التحول المجتمعي العام،من شأنه أن يؤدي إلى الإطاحة بالمجتمع كله، لأن جوهر هذا الصراع الجاري حاليًا في بلادنا، كما ذَكَرتُ في كثيرٍ من الكتابات السابقة، هو صراع ثقافي في أساسه. لأنه يتعلق بطريقة التفكير، وبنمط الرؤية الكُلِّيَة للعالم، وللتُرَاث، وللتاريخ، ولطبيعة الإنسان. وإهمالنا الحالي للجانب الثقافي، في خِضَمّ التَحَوُّلاتِ الهائِلَة الجارية في مصر والمنطقة، سوف يؤدي إلى تكرار أخطاء ثورة ١٩٥٢ التي قام بها الضباط الأحرار (جدًّا).

ضرورة الثورة الثقافية

المبادرة إلى" الثورة الثقافية "بكل ما تنطوي عليه من إعادة بناء المفاهيم العامة والتصَوُّرَات الأساسية، وإعادة النظر في الملامح المِحْوَرِيَّة لواقعنا الثقافي المُعَاصِر في مصر والمنطقة العربية، هي مسألة ضرورية ولا غنى عنها، لاسيَّمَا مع حالة القصور المعرفي العام الذي يظهر عبر عِدَّة وجوه، أولها تدهور مستوى التعليم الحكومي وضعف الأداء الإعلامي وقُصُوره التثقيفى المُرِيْع. مع أن التثقيف حسبما نَصَّ الدستور الأخير ، هو حق لكل مواطن. ولا أدري كيف

يمكن تأدية هذا الحق الدستوري، في وقت يعاني فيه التعليم والإعلام من بلايا يحتاج علاجها خُطَطًا طَمُوحَةً طويلة المدى، وإجراءات راديكالية (جذرية) لا يُبَادِرُ أحدٌ إليها تَحَاشِيًا لتحمل المسئولية، وتجاهُلًا لخطورة التدهور العام في هذين القطاعين: التعليم الحكومي، الإعلام الحكومي والحر.. ناهيك عن رداءة أغلب المُنْتَجَات الفنية، وتفاهة الإنتاج الدرامي، السينمائي والتليفزيوني . ولهذا تكون الثورة الثقافية مسألة أشد أهمية وأكثر إلحاحًا، لتقليل الأثر السلبي الناتج عن التدهور العام في القطاعين المذكورين. لأن نظم التعليم المُتَطَوِّرَة، والسياسات الإعلامية المُسْتَنِيْرَة، كان بإمكانها (إن كانت مُتَطَوِّرَة ومُتَنَاغِمَة مع الواقع) أن تنوب عن الثورة الثقافية، وتقوم بدورها، ولو بشكل مرحلي يؤدي إلى التثقيف العام ودفع العقل الجمعي إلى التطوير والخروج من حالة السطحية والسذاجة.. وهو من ما تطمح إليه " الثورة الثقافية " وتقوم من أجله.

ونُذَكِّرُ هنا بما ذكرناه سابقًا من أن حالة الصراع الجارية في مصر والمنطقة العربية المُحِيْطَة بها، وهي الحالة التي اتخذت بسرعة شكل المواجهات العسكرية المُسَلَّحَة بين ميلشيات دينية متعددة المسميات، هي في جوهرها مواجهات ثقافية في الأساس. تجري بين نوعين من التفكير، أحدهما مشدود إلى النَصّ الديني، والآخر إلى الواقع المَعِيْش. وبين هذا التفكير وذاك، وكلاهما مشدودٌ ومشدوه، هناك أطياف فكرية تائهة وشائهة الملامح لم تنجح في إعادة طرح التَصَوُّرَات الكُلِّيَة، المُتَعَلِّقَة بمفاهيم مثل: الذات، الوعي التاريخي العام، استشراف المستقبل، قواعد الضبط الإجتماعي، معنى الفن، طبيعة المُشارَكَة المُجْتَمَعِيَّة.. وبالتالي، فهي لم تُحَدِّد لها مَوْقِفًا مَعْنِيًّا يمكن على أساسه ان تقوم نهضة حقيقية، أو حتى المحافظة على الحال مُسْتَقِرًّا.

وغنيٌّ عن البيان أنه من دون إعادة النظر في المفاهيم والتصورات العليا، المُهَيْمِنَة على العقل الجمعي، لن نستطيع تجاوز المأزق العام والعبور بسلام من الحالة الحالية، التي لا تُجْدِي معها المُوَاجَهَات الأمنية، وحدها، نفعاً. وإنما لابد أن تتوازى معها وتسير بإزائها، وتؤازرها، عمليات إعادة بناء المفاهيم والتصورات. وهو ما لا يمكن عمله إلا بثورة ثقافية تطرح وجهة نظر جديدة، وبالأحرى وجهات نظر متعددة في السائد والمستقر من الأفكار.. والفكرة، على رهافتها، هي المُقَدِّمَةالضرورية لكل عمل وهي أيضًا المُحَرِّكُ له.

كما تأتي ضرورة الثورة الثقافية بسبب هذا العجز، شبه التام، للمؤسسات الحكومية ذات الطابع الثقافي. فقد تواضع أداؤها تدريجيًّا وانصرف الناس عمّا تقدمه من بضاعةٍ مُزْجَاة (قليلة) بسبب غرق هذه المؤسسات في مشكلاتها الإدارية ووقوعها في براثن اللوائح الحكومية العقيمة. ناهيك عن عُقم العقليات التي تديرها. هذا في الوقت الذي تحتاج فيه البلاد إلى تطوير كبير في الرؤى، وتأهيل عظيم القدر لنظرتنا العامة للموضوعات الكبرى.. بعبارة مُبَاشِرَة: نحتاج فيه فلسفة جديدة، وعقلًا جديدًا يُنَاسِب العالم الجديد.

وقد يقول قائل، إن الناس في بلادنا قد ملوا الحديث عن" الثورة" ولا مجال عندهم لقبول أي تصورات ثورية جديدة قد تُطِيحُ بما يرتاح إليه اليوم معظم المصريين من هذا الإستقرار النسبي، ومن التعافي المحدود في مناحي الحياة الإجتماعية.. ولهذا القائل نقول: الثورة الثقافية ليست عملًا يتم بالصخب العام والخروج إلى الشوارع بالهتافات المُهَدِّدَةُ للإستقرار الهَشّ، وإنما هي جَهْدٌ هَائِلٌ يتم بين العقول الرشيدة التي تعي أهمية إعادة النظر في هذا

الكَمّ الكبير من الأوهام والخُرَافَات والمفاهيم المغلوطة، التي استقرت في الوجدان العام.. الثورة الثقافية يلزمها التأمل والتفكير المنطقي، وليس الزعيق والهتافات. تحتاج الجرأة على طرح مفاهيم جديدة ونقد المُستَقِرِّ ونَقْضِ عَوَارِه، وليس الصخب الذي يختلط فيه الحابِلُ بالنابِل والصادق بالمُرتَزِق. تلتزم بالعقلانية وقواعد المنطق والمنهج العلمي، وليس الهَرَج الجماعي وتنفيس العُقَد والشعور المؤقت بلذة الهدم والإزاحة.

وأخيرًا، فالثورة الثقافية هي الضامن للسلامة العقلية العامة، والضابط المنطقي لأساليب التفكير في المجتمع، والطريق المؤدي إلى تجديد وتطوير العقل الجمعي وطريقة النظر إلى الموضوعاتِ الكُبْرى. وهذا كله من مستلزمات الإستقرار والتقدم العام. فلا يمكن أن يتطور مجتمع ويعبر مشكلاته، دون قدرة على الإرتقاء بالرؤى العامة المُستَقَاة من الموروث القديم وهو ما لا يمكننا القيام به ،من دون ثورة ثقافية حَقُّه تُعَاوِدُ النَظَرَ في المُسْتَقِرّ، وتَستَشْرِفُ الآتي، وتحفظ المجتمع من الرجوع إلى حالة الإرتباك الفِكْرِي الذي هو البيئة المُنَاسِبَة لظهور تيارات التطرف والتعصب المذهبي والفعل العنيف المُسَمَّى إعلاميًا: الإرهاب.

المعوقات

وبطبيعة الحال، فإن القيام بهذا الواجب الضروري المُسَمَّى إجمالًا "الثورة الثقافية" قد تَحُولُ من دُوْنِهِ مُعَوِّقَات عديدة، كتلك التي أشرنا إليها في بداية

هذا الفصل، ولذلك لابد من الإنتباه إليها والعمل على إزاحتها من مجرى النهر، ليتدفَّق ماؤه.

ومُعَوِّقَات الثورة الثقافية لا تتوقف عند مسألة تشوية المصطلح أو التهوين في مفرداته "ثورة، ثقافة" ولا ترتبط فقط برغبة أصحاب المصالح الجارية، في إبقاء الحال على ما هو عليه، ليبقوا هم على ماهم عليه.. وإنما تتعدَّد هذه المُعَوِّقَات، وتنقسم بِشَكلٍ عام إلى نوعين من المُعَوِّقَات . سوف نتحدث عنهما الآن بشيٍ من التفصيل [1]

---

(١) كان الجزء السابق من هذا الفصل، قد نُشر في مقالات مُفْرَدَة بجريدة الأهرام، آخرها المقالة المنشورة يوم الأربعاء ٢٠١٤/١١/١٢ وفي ذاك اليوم رأيت مؤشرًا يدل على اللا جدوى. فقد أصدر رئيس الوزراء قرار بتعيين مستشارٍ له (لشئون الثقافة والمتاحف) وهو يعلم أن ذلك الذى اختارة لهذا المنصب، هو شخص ماثل أمام المحاكم من قبلها بعامين، (وحتى يومها) اليوم بسبب عدة قضايا تتعلق بالفساد وإهدار المال العام (ومخازي أخرى) أثناء إدارته لمؤسسة مصرية. ومع ذلك، ظَلَّ يُدِيْرُهَا حتى ذاك اليوم، وحتى يوم نشر هذا الكتاب! بل وتم تكريمه بقرار رئيس الوزراء.. ورأيتُ أن مواجهة هذا التدهور المريع، بكتابة المقالات، عبث. لأن المقالات سوف يُرَدُّ عليها بمقالات، حتى يتوه القارئ ويفقد البوصلة. لا سيما أن الناس كانت لا تزال تعيش وَهْمَ "المُخَلِّص"وتريد أن تطوى صفحة الماضي، فتدفن كل أشكال المعارضة كي لا يُشَوِّش على حالة اللذة الكاذبة الناشئة عن العيش في وهم المُخَلِّص.. فتوقفتُ فى يومها عن كتابة المقالات فى الصحف كلها .. ولذلك، فإن بقيَّة هذا الفصل لم يُنْشَر من قبل فى مقالات.

إعاقة الجمهور العام

قولنا "الجمهور العام" هنا، لا نقصد به هذه الجماهير الهادرة التي تثور في الشوارع وتفور في الأنحاء وتصطخب. فهؤلاء هم (مادة) الثورات السياسية والاجتماعية، وهم وقودها المُحَرِّك، وسبب نكستها أحيانًا. بينما يقتصر معنى (الجمهور العام) في الثورة الثقافية على الطبقة الواعية في المجتمع، بكل مُكَوِّناتِهَا من المُفَكِّرِينَ والكُتَّاب والقائمين على الصناعات الثقافية الثقيلة (نشر الكتب، البحث العلمي، الإنتاج الفني) ويلحق بهؤلاء جماعات كثيرة منها القاعدةُ العريضة من القرَّاء، ومحبو الفنون والشغوفون بالبحث والمعرفة.. ومن هنا، فالثورة الثقافية تقوم على أكتاف أولئك وهؤلاء، وليس على أكتاف العوام من الناس أو بهتاف المُخْلِصِيْنَ والمُرْتَزِقَة مثلما هو الحال في الثورات السياسية، التي هدَّت أركان عديد من بلادنا العربية مُؤَخَّرًا، لأنها خلت من عمليات التنوير الثقافي والفكري، وهي العمليات الضرورية لتطوير المجتمع.

ومن جهة هذا "الجمهور العام" هناك بعض المُعَوِّقَات التي تحولُ دون قيامه بالثورة الثقافية، وبما يلزمها من إعادة النظر في الأفكار والمفاهيم السائدة في مجتمعنا. فمن تلك المُعَوِّقَات أن هذا (الجمهور) مع أنه مُثَقَّف بالمعنى العام للكلمة، إلا أن فيه طائفة كبيرة من مُدْمِنِي الإعتياد وعُشَّاق النَمَط. وهم يظنون أن المُسْتَقِرُ من الأفكار العامة، هو بالضرورة صائبٌ، لأنه مُستَقِرّ. وهذا قِياسٌ فاسد. لاسِيَّمَا أن هذه الأفكار العامة والمفاهيم الكُلِّيَةُ السائدة، هي أحد

أهم الأسباب المؤدية إلى تدهور المجتمعات التي ننتمي إليها، ناهيك عن أن القاعدة العلمية والثقافية المُؤَكَّدَة منهجيًا، تقول: تجدَّد أو تبدَّد.. بمعنى أن الفكر العام إذا لم تجر عليه عملياتُ المراجعة المستمرة وإعادة النظر، فسوف يتحول مع الأيام إلى قيدٍ يحول دون الحرية الفكرية اللازمة للتجديد، ويجعل العقل الجمعي مَيَّالًا للاجترار والتسليم بالمشهور من الأفكار، ظنًا من البعض بأن ذلك أكثر أمانًا. ومن هنا تأتي أهمية العبارة التي طالما كرَّرتها (ولا أملُّ من التنبيه إليها) وهي عبارة ابن النفيس التى يقول فيها: ربما أوجب استقصاؤنا النظر عُدُولًا عن المَشْهُورِ والمُتَعَارَف، فمن قَرَع سمعه خِلَافَ ما عَهِدَهُ، فلا يُبادِرْنَا بالإنكار، فذلك طيشٌ. ورُبَّ شَنَع حقّ، ومألوفٍ محمودٍ كاذب. والحَقُّ حقٌّ في نفسه، لا لقول الناس له. ولنذكر دومًا قولهم: إذا تساوت الأذهانُ والهِمَمُ، فإن متأخر كل صناعةٍ، هو خير من متقدمها..(يعنى : اللاحق يمتاز عن السابق، بالتراكم المعرفى) ويلحق بهذا المعنى الدقيق، ويسبقه، المعنى الأدق الوارد فى قول ابن خلدون : ينبغي علينا إعمالُ العقلِ في الخبر.. (سوف أظلّ أردِّدُ هاتين العبارتين، حتى يصلنى الصدى)

* * *

ومن مُعَوِّقَات الثورة الثقافية، المُتَعَلِّقَة بجمهور المُثَقَّفِين والمُتَثَاقِفِين، غلبةُ النزعة التِجَارِيَّة في بعض الأحيان على أعمالهم وأذواقهم، بمعنى أن تصير الثقافة في وهمهم هى أداة للإنتشار والكسب والوجاهة، وليس أسلوبًا للتفكير. وهذا أمرٌ خطير لأنه يوجِّه الاهتمام إلى الشكل ويهمل المضمون، فيكون هذا الكتاب مهم لأنه منتشر ومشهور (أعلى مبيعًا) بصرف النظر عن قيمته الفعلية

! وهذه اللوحة غالية لأنها لفنانٍ مشهورٍ، بصرف النظر عن قيمتها الجمالية ! وهذا الفيلم مُهِمٌّ وتجب مشاهدته لأنه لمخرجٍ أو مُمَثِّلٍ مشهور، بصرف النظر عن القيمة الفنية له.. بعبارة أوضح، فإن النزعة التجارية أو ما يسميه الناس اليوم (البيزنس) يُنَاسِبُ حالات السكون الثقافي والنزعة الاستهلاكية، لكنه لا يؤدي إلى تحرير العقول مما استقر عليه الرأي المشهور المُتَدَاوَل. وبالتالي، فهو عائق " عمومى " لا يُستهانُ به.

ومن هذه المُعَوِّقَات (العُمُومِيَّة) استلام طائفة كبيرة من جمهور ورواد التثقيف والاستنارة، إلى الإحباط. فهذا القارئ كفَّ عن القراءة لأنه لم يعد يثق في المُفَكِّرِينَ والكُتَّاب! دون انتباهٍ إلى أنه بذلك الكفِّ يغلق نوافذ عقله.. وهذا الكاتب ينسحب عن الساحة لأن الناس لم تَعُد تقرأ له، وكأن ما يكتبه هو مُقَرَّرٌ دِرَاسَيٌّ سوف يؤدي فيه القُرَّاءُ امتحان آخر العام! وهذا الفنان ترك الفن لأنه كَفَرَ بِقُدْرَةِ الجُمهور على فهمه.. وهذا المفكر انزوى وذهب مُغَاضِبًا لأن السلطة السياسية ليست راضية عنه، أو لانها تُضَايِقُه.. ولا يعلم هؤلاء جميعًا أننا لم نعد نملك تَرَفَ الإنهيار أو التراجع أو التخاذل، وأننا إذا تقاعسنا عن الجرأة اللازمة للتفكير الحُرّ وإعادة بناء التصورات العامة، فسوف ينهار المجتمع الذي نهرب منه ولن نجد بديلًا له نهرب إليه. علماً بأن المواجهة الثقافية وتَثْوِيْر الراكِد من المنظومة الفكرية المُهْتَرِئَة (السائدة حاليًا في عقلنا الجمعي) هو أمرٌ حتميٌ وليس نُزْهَةً اختيارية يرضى عنها البعض ويرفضها البعض الآخر. لاسِيَّمَا أن القيام بثورةٍ ثقافية في مجتمع عميق الجذور مثل مجتمعنا المصري والعربي، ليس مَهَمَّةً هَيِّنَة أو مَسْلَكًا هَنِيًّا نستمتع به، وإنما هو جَهْدٌ

شاقٌ يلزمه إعادة بناء دِلَالَاتِ المُفْرَدَات، وإعادة تركيب التَصَوُّرَاتِ العامة، وتبديد حالات التوهُم العام للخروج من دَوَّامَاتِ الفِكر المؤدية إلى أعاصير الواقع المؤدية إلى الإطاحة بالمجتمع ككل.. فالكلُ يبدأ من الفكرة، وينتهي إلى المسار الذي تقودنا إليه الأفكار.

وهنا، قد يعترضُ عليَّ مُعتَرِضٌ يقول: كيف يتفق كلامك مع انسحابك من المشهد العام، وتوقفك عن كتابة المقالات الأسبوعية في جريدتي الأهرام والوطن، بسبب قرار رئيس الوزراء تعيين مُتَّهَم أمام القضاء، كمستشار ثقافي ومتحفي؟ أقول للمُعْتَرِض: كان هذا مَوْقِفًا ثَقَافِيًّا وليس هُرُوبًا من الساحة، وقد أردت به توجيه الأنظار بقوة إلى حالة التراجع العام، كما أردت به كشف خبايا هذه القرارات، بتحدٍّ عَلنيٍّ لرئيس الوزراء أن يبرر لنا قراره أو يقدم سببًا مُقْنِعًا له .. ومن ناحية أخرى، رأيت المشهد الإعلامي (الصحفى) قد بلغ من السوء حدًّا جعلني لا أحب أن أكون جزءًا منه، أما دوري الأساسي ككاتب فلم يتوقف قط.

الإعاقة الحكومية

ختامًا للكلام عن الثورة الثقافية، وبعد استعراض مفهومها العام وأهميتها والمُعَوِّقَات العامة التي تحول دونها (جماهيريًا) نتوقف فيما يلي عند النقطة الأخيرة وهي الإعاقة الحكومية، الحالية والمُحْتَمَلَة، التي تَحُولُ دون الثورة الثقافية وتُعَوِّقُ مسارها.. وعلى سبيل ضبط المفردات، باعتبار ذلك من لوازم الفكر المنهجي ومُمهِّدات الرؤى الإستشرافية الحُرَّة، نقول إن لفظ "الحكومة"

هنا مقصودٌ به بشكلٍ عام: سلطة الإدارة الثقافية، وهي السُلْطَةُ (الحاكِمَة) على عقول الناس وتصوراتهم، ابتداءً من المراتب الهرمية للسلطة في المجتمع: قادة الرأي، مديرو الهيئات ووزراء الثقافة، ورؤساء الحكومة، ورؤساء الجمهورية ومن في مستواهم من الأمراء والملوك وسائر الحُكَّام على اختلاف مُسَمَّيَاتِهِم "سلطان، صاحب جلالة، أمير بلاد، حاكم إمارة، رئيس بلد .."

وهؤلاء الحاكمون والحكوميون يُهَدِّدُونَ عادةً أية مُبَادَرَات راديكالية (جذرية) في ميدان الثقافة وفي غيره من الميادين، لِظَنِّهِمُ الوهمي بأن حُكْمَهُم مُرْتَبِط باستقرار الحال، لا بتغييره. وتحضُرني هنا صورة الرئيس الأسبق "مبارك" في سنوات حكمه الأخيرة، حين كان لا يَكُفُّ عن ترديد تعبيرٍ شهيرٍ بائسٍ ، هو (مُنَاخ الإستقرار) اعتقادًا منه بأن هذا الإستقرار هو الأساس الداعم لحكمه الطامح إلى التوريث. فكانت النتيجة أن أُطيحَ به وبأوهام التوريث. ومع أنه اجتهد هو ورجال دولته لإبقاء الحال العام على ما هو عليه، إلا أن ذلك كان مُقَدِّمَةً للإطاحة بِكُلِّ مُسْتَقِرٍ، بما في ذلك حُكْمُهُ المُلْتَصِقُ بالكُرسِيِّ الرِئَاسِيِّ طيلة ثلاثين عامًا عِجَافًا خالية من أي تجديدٍ فكريّ أو ثقافيّ عام.. ناهيك عن استهانته بكل ما هو ثقافي، حتى أنه هزأ مرةً على الهواء من لفظ الثقافة، بنُطق الكلمة بلفظها العاميّ السخيف: سآفة .

إن ما يظنه الحاكمون والحكوميون استقرارًا مُمَهِّدًا لاستقرارهم وبقائهم على ما هم عليه، هو عينُ السبب الذي يُطِيْحُ بهم لفشلهم في تطوير وتجديد الفكر العام في مجتمعاتهم ولذلك قيل: تجدَّد أو تبدَّد. وقد تبدَّدت سُلُطَاتٌ كثيرة وكنستها الرياحُ العاصفة، لكون المستفيدين منها يتوهَّمون أن الثقافة

كالإقتصاد، تحتاج الثبات والإستقرار . مُتَغَافِلِيْنَ أو غافلين عن أن الإقتصاد، وغيره من الأنشطة العامة للمجتمع، إذا لم يتطوَّر ويقتحم آفاقًا جديدةً فإن ذلك يُنذِرُ بانهياره. وبطبيعة الحال فإن الإقتصاد وغيره من الأنشطة المجتمعية، لن يتطور إلا بالقُدْرَةِ على التفكير الإبتكاري ذي الطابع الثوري. ولهذا نقول إن كل شيء يبدأ من (الفكرة) وينتهي مساره في خاتمة المطاف إلى الموضع الذي تقودنا إليه الأفكار.. أما الثبات، فهو قرينُ الموات.

ومن المخاطر الحكومية والحُكَّامِيَّة على الثورة الثقافية، أن تتسلَّم الجهاتُ الرسمية قياد الثورة الفكرية والثقافية في المجتمع. ومعروف أن السُلُطَاتِ الرسمية تفتقر إلى" الخيال" اللازم لِأَيِّ تجديد، ومعروفٌ أن استلام السُلْطَة السياسية لقياد الفِكْر في المجتمع يكون مُقَدِّمةً لإجهاض الرؤى الثقافية غير النمطية. ناهيك عن أن التجارب الفعلية تدل على أن انطلاق الثورة الثقافية من قِمَّةِ الهرم السُلْطَوِي، أو بالأحرى الزعم بانطلاقها من هناك، يكون في العادة شكلًا مُنَمَّقًا من أشكال القهر والاستبداد باسم الثورة الثقافية، حسبما جرى في الصين وفي إيران، إذ كانت "الثورة الثقافية " مجرّد شعارٍ جرى تحت رايته التنكيل بكل المخالفين والمعارضين للسُلطَة السياسية الحاكمة، مما جعل ثوراتهم الثقافية المزعومة إطارًا رسميًا يحول دون الحرية الفكرية اللازمة لأي تغييرٍ فكريّ، ولأيّ ثورة على موروثٍ ثقافي.

ومع أن النُظُم الحاكِمَة تُمَثِّلُ عائِقًا أمام التَحَرُّك الفِكْرِي الحُرّ وحائِلًا وللثورة الثقافية الضرورية، إلا أن هذه النُظُم بأشكالِها المُتَعَدِّدة ومَرَاتِبِهَا الهَرَمِيَّة المُتَصَاعِدَة، تظل مسؤولة بشكل غير مباشر عن فشل أو نجاح الثورات الثقافية

بمعناها الحقيقي. لأن هذه القوى السلطوية، وإن كان لا يجب عليها دسّ أنفها في مسار الثورة الفكرية والثقافية في المجتمع، ولا يجب عليها الإمساك بزمام الإجتهادات المُبْتَكِرَة، الحُرَّة فإن من الواجب عليها رعاية مسار الثورة الثقافية الجارية في المجتمع، ولكن من بعيد. بمعنى توفير والتأمين اللازم لقيام هذه " الثورة " واستمرارها، حتى تؤتي ثمارها، من دون استعمال الحجج البالية التي هي عَيْنُ العراقيل، مثل الوصاية على عقول الناس، والمُرَاقَبَة القانونية للاجتهادات الفِكْرِيَّة، والزعم بأن الحكومة هي الجهة الوحيدة التي تفهم وتفسِّر وتطور .

وكَيلا يكون الكلام كله نظريًّا، سأُعطي بعض الأمثلة الفعلية للعراقيل الحكومية القائمة حاليًا في مصر، والمُعْتَرِضَة لكل الأفكار الحُرَّة التي تتشكل منها بدايات الثورة الثقافية، وبها تتطور . فمن ذلك، هذا " القانون " الذي وضعه الرئيس الأسبق "السادات" في معرض لَعِبَهُ السياسي مع الجماعات الدينية، وفي سياق عمليات الشد والجذب التي جَرَت بين الطرفين. إذ قام ترزيةُ القوانين السُلْطَوِيِّين بإصدار القانون المرضي (بضم الميم وفتحها) المُسَمَّى: ازدراء الأديان.. فصار هذا القانون سيفًا مُسَلَّطًا على رقبة كُلِّ مجتهدٍ، حتى لو كان يجتهد في ميدان الدين ذاته، وصارت عبارة " إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة" مُسْتَنَدًا قانونيًّا يُحاكم به أيُّ مفكرٍ يسعى مُخْلِصًا لتطوير الفكر العام المصري. ومن ذلك، التراخى الحكومى فى مواجهة الحيل التى يواجه بها الأسلاميون (يعنى الذى يكسبون عيشهم من الدين) المفكرين، وعدم حسم الموقف. مثلما جرى مع د. نصر حامد أبو زيد، الذى تركته الدولة

يواجه العنت حتى اضطر للهجرة من البلاد. ومن ذلك، الاستخفاف الحكومى بالشؤون الثقافية.

•　　　•　　　•

وعلى الرغم فى كل ماسبق، أقول: لابد لنا في مصر من الثورة الثقافية، وإلا عادت بنا عقارب الساعة إلى الوراء ستين سنة، فصرنا سنة ١٩٥٢ أو بتحديد أكثر سنة ١٩٥٤ .. يعني تكرار التجربة الناصرية.. يعنى، تكرار الأسى.

فصول الكتاب



.. وعلى ما سبق، فإن "الحديث ذو شجون" تعنى أن له تشابكات وتداخلات، كالشجنة من فروع الشجر الملتف. وبهذا المعنى، نستعمل الكلمة في عنوان هذا الكتاب الذي يحتوي على سبعة فصول متفاوتة الحجم متنوعة الموضوعات، لكن ما يجمع بينها هو كونها شجون، ولكل فصلٍ منها شجونه.. وفصول هذا الكتاب تسير على طريقٍ واحدٍ، هو: الوعي العميق بالماضي، والغوص في الحال الحاضر، واستشراف المستقبل.

يوسف زيدان

ISBN 9789776436480

للنشر والتوزيع